

صحراء منھاتن

عنوان العمل	:	صحراء منهاتن
نوع العمل	:	رواية
تأليف	:	أيمن نيازى
تصميم الغلاف	:	حكيم صالح
إخراج داخلي	:	عبدالقادر فايز
الطباعة	:	أتيليه تاتش – المحروسة
الناشر	:	الدار للنشر والتوزيع
المدير العام	:	محمد صلاح مراد
تليفون	:	01125800467
البريد الإلكتروني	:	eddar_press@yahoo.com
فيس بوك	:	www.facebook.com/eldarpublish
رقم الإيداع	:	٢٠٠٨\٧٦٣٦
الترقيم الدولي	:	I.S.B.N: 978-977-6227-23-3

صحراء منهاتن

رواية
أيمن نيازي

الدار
للنشر والتوزيع

٢٠١٦

(١) أكتوبر ٨١

كان يتحتم على أن أستيظف مبكرًا فى ذلك اليوم بالذات، على الرغم من أنه كان يوم العطلة التى تحمل ذكرى تلك المناسبة القومية الأكثر فخراً فى تاريخنا الحديث.

اليوم تزورنا أمل وعائلتها حيث يجب أن نصحو مبكرًا؛ لتنظيف البيت وشراء احتياجات الغذاء، وهى المهمة التى سوف تكون حتمًا من نصيبى، هذا بالإضافة إلى إعداد وليمة تليق بعائلة صديقة كانت رفيق غربتنا لأربع سنوات بالمملكة السعودية، خصوصًا أنها الزيارة الأولى بعد العودة إلى أرض الكنانة.

كانت والدة أمل تعمل طبيبة أسنان بالمملكة وهو ما كان سببًا مباشرًا للتمهيد لصداقة وطيدة نشأت بينها وبين أمى صاحبة التاريخ الطويل فى آلام الأسنان، وذلك على الرغم من الاختلافات السياسية والاجتماعية الكبيرة بين السيدتين. فكيف تنشأ صداقة بين سائلة الحسب والنسب الدكتورة سوسن التى ترعرعت بحى جاردن سيتى فى قصر والدها الباشا الذى أمم عبد الناصر أملاكه وهى طفلة صغيرة وبين أمى مدرسة التاريخ الناصرية التى نشأت فى دروب حى السيدة زينب؟!!

لكن يبدو أن ألم الأسنان كان أقوى من هذا الصراع الطبقي والسياسى معًا. وإن كانت الحقيقة أن أمى كانت تحب الدكتورة لأسباب أخرى تتعلق بوداعتها ورقتها ووجها الطفولى وطبيعتها التى تصل إلى حد السذاجة، كذلك عندما بدأ الفكر الاستهلاكي الانفتاحى يغزو عقل أمى بعد سنوات الإغارة الرأسمالية حدث تقارب فى العادات بشكل أكبر مما أطر لنشوء علاقة قوية بينهما خصوصًا فى الغرب.

أبى يصحو من النوم متكاسلاً لا يقوى على فتح عينيه، ينهض بصعوبة بالغلة من على المرتبة الناعمة التى أشرف على عملية تنجيدها بنفسه بعد سنوات لا يريد أن يتذكرها كان ينام فيها على البرش، أو هكذا كان يحلو له أن يسمى فراشه الخشن أيام دراسته وعمله فى تلك المدرسة الابتدائية التى بدأ بها حياته العملية مدرساً للجغرافيا فى تلك الشقة التى أعطتها له المحافظة بعد عناء فى مشروع الإسكان الشعبى بعد زواجه من أمى، الذى بدأ بأثاث متواضع وأحلام وردية نشأت بين اثنين من أشد المخلصين من جيل الثورة. كانا يعتقدان وقتها أنهما أصحاب رسالة وأن تدريس التاريخ والجغرافيا هما الوسيلة لخلق جيل يؤمن بالحضارة الأصيلة والقومية العربية التى كانت حلم المرحلة!

وصلة من التراشق بالألفاظ بدأت بخروج أبى من الحمام بينه وبين أمى اعتادا عليها طويلاً حتى صارت من أهم معالم العائلة طيلة سنوات الإعاره، وإن كانت تعبر عن أشياء طبيعية تحدث بين المتزوجين.. لماذا لا تصحو مبكراً مثل باقى الرجال؟ لماذا لا ترتب الغرفة وتساعدنى قليلاً؟ لماذا ترمى ملابسك المتسخة فى كل مكان؟ وهو يرد عليها: لقد تعبت من مطالبك التى لا تنتهى.. أين حذائى.. أين الدواء.. كان فيه فلوس على الكومودينو راحت فين؟

إلى آخر هذه المناوشات الزوجية المعتادة، إلا أننى أعتقد أن هذه التراشقات بين أبى وأمى كانت بسبب شىء آخر.. غصة دفيئة فى العقل الباطن تنتهز أى فرصة للخروج كحمم البركان.

لقد كان انهيار الحلم الستينى الذى كان يوماً من الأيام هو المحرك الأول لزواجهما. فأبى وخصوصاً بعد النكسة تحول ١٨٠ درجة عما قبلها وأصبح كافراً بكل ما كان يؤمن به من قبل مما جعله فى صدام دائم مع أمى التى بقيت على عهدىها الناصرى القديم. فقد كانت ترى أن

الدروس الخصوصية التى بدأ أبى يعطيها لطلبته خيانة للرسالة التى كانا يؤمنان بها معاً، وقد كان أبى يرد بأن هذا كلام عبيط.. ماذا أخذنا من هذه المبادئ غير الفقر والهزيمة والإحباط!

ثم كانت الطامة الكبرى عندما تقدم أبى فى منتصف السبعينات للحصول على طلب الإعارة إلى دول النفط التى كانت أمى تراها دولا رجعية وقفت ضدنا أيام عبدالناصر فكيف لنا أن نعلم أبناءهم؟! فما كان من أبى إلا أن يلعن هذه الأيام ويحاول إقناعها بمنطقه الاقتصادى الجديد بأن الإعارة سوف تجلب لنا ما لم نحلم به من قبل: ألا ترين الزملاء الذين يعودون من الخليج محملين بما لا عين رأت ولا أذن سمعت وأصبحوا من ملاك الأراضى والشقق والسيارات! ألم تشتاقى بعد لاستعمال المروحة والتلفزيون الملون والريكوردر؟!!

وعندما يلاحظ أن لعبها بدأ يسيل على هذه الأيقونات الاستهلاكية التى لا تعرف عنها شيئاً كان يبدأ فى محاولة إقناعها من الناحية السياسية.. أليست هذه الدول هى من ساعدتنا فى حرب أكتوبر ألم تمنع هذه الدول البترول عن الغرب! ورغم أن هذه الدول استفادت من ذلك برفع أسعار البترول أضعافاً مضاعفة إلا أن أمى كانت قد بدأت تقتنع قليلاً.. ربما ينبغى علينا أن نؤدى رسالتنا فى هذه الدول حتى تزدهر القومية العربية كما كان يحلم عبدالناصر.

إلا أنه بمرور الوقت تحول أبى إلى صورة مثالية للنموذج الانفتاحى الذى بدأ يصيب المصريين فى تلك الفترة، فبدأ كرشه رحلته فى الصعود إلى الأمام بشكل ملفت للنظر مما جعل أمى تتحسر على صورته قبل الزواج أثناء ممارسته لرياضة كمال الأجسام. أصبح يلهث دوما وراء السلع المستوردة يتناولها بنهم لم يكن من طباعه من قبل، بصورة جعلت ذهابه للسوبر ماركت الذى افتتحه ذلك الملياردير

السعودى فى أحد أرقى أحياء مدينة الرياض مزاراً سياحياً له يتبرك به كلما أخذه الحنين لبعض أنواع الجبن الفرنسى الشهير أو الأسماك المدخنة أو كيك السويسرول أو التفاح الأمريكى الفاخر وطبعاً لا ننسى الشيكولاته السويسرية الحاملة. وهو ما لم يعتده فيما كانت تقدمه المجمعات الاستهلاكية العامرة فى مصر.

كان هذا فقط ما يجمع بين أبى والمهندس حسن الزهار، الفلسطينى الذى يعيش فى السعودية والد أمل، فالرجلان كانا يتباريان فى تقديم نمط انفتاحى متميز يظهر جلياً فى منافسة كل منهما الآخر فى سننيمترات زائدة فى طول الكرش العامر الممتد للأمام.. إلا أن السياسة كانت دائماً ما تحيل جلساتهما المشتركة إلى صراع أقرب إلى صراع الديوك، حيث تحول المهندس حسن وبفعل اتجاه الدولة المصرية فى ذلك الوقت إلى التسوية مع إسرائيل إلى كاره للسياسة المصرية والرئيس السادات الذى كان أبى قد أصبح من أشد مؤيديه لدرجة اعتباره المثل الأعلى وكبير العائلة؛ حيث وجد فيه أبى -وخصوصاً بعد حرب أكتوبر وسياسة الانفتاح- ما جعله يتعزى قليلاً عن إحباط الحلم الناصرى الذى انهار بالهزيمة، كما كان يقول لأمى دائماً.

لكن حسن الزهار ورغم كرهه للسادات لم يكن يحب عبدالناصر، وهو ما كان يصيبنى بالحيرة فى صغرى فى تلك الآونة، وقد يبدو ذلك من أهم أسباب التقارب التى جمعت بينه وبين الدكتورة سوسن. فرغم أن الحالة الاقتصادية والاجتماعية لهما كانت متقاربة حيث إنه ينحدر من عائلة فلسطينية غنية نزحت من رام الله بعد النكسة كانت تدير مشروعات مقاولات كبرى بمصر والمملكة السعودية فى الستينات إلا أن ما جمعهما كان سبباً آخر وهو إظهاره لأبيها أنه يكره عبدالناصر الذى تسبب فى نقل أعمال العائلة من مصر للسعودية، وهو ما وجد أثراً جيداً عند الدكتور شاكر والدها المؤمم من نظام عبدالناصر وجعله يرى

فى المهندس حسن راعياً رجعيًا يمكنه أن يصون ابنته ضد شيطان
الاشتراكية، ووافق على الزواج وسفر ابنته مع زوجها إلى الرياض
وذلك رغم عدم عراقة أسرته مقارنة بأسرتها التى كانت تتحدر لقائد
شركسى كان من قواد جيش محمد على.

وهو ما أظهر الكثير من المشاكل فيما بعد بين الزوجين وصل إلى
حد معايرة الدكتورة سوسن بفقر أسرتها بعد العز وأنه يملك أن يشتريها
هى وعائلتها إذا أراد، فقد ظل المهندس حسن يشعر دائماً بأنه أقل منها
رقياً وتعليماً فهو التاجر الذى لم يتعلم مثلها تعليماً أوروبياً راقياً وهو ما
جعله ينهرها كثيراً لأنها كانت تخجل منه ومن تصرفاته أمام الناس
وهذا ما جعل أمى تشفق عليها وتحبها أكثر رغم كونها سلبية الإقطاع.

(٢) أمل

اليوم تأتى أمل بعد غياب طويل منذ أن افترقنا فى ذلك اليوم القاسى من أيام الرياض الحارة، الذى شهد نهاية تاريخية لعملية بيع أبى لنفسه لمدة أربع سنوات متتالية مثل باقى المصريين الذين يخدعون أنفسهم بإطلاق مصطلح الإعارة على عملية البيع تلك.

كانت فرحة الطفل فى كبرية جدًا عند العودة إلى مصر التى لم تكن حارة بقسوة الهجير السعودى.. مصر دائماً يميزها فى ذاكرتى الشاطئ السكندرى العامر بنسمات الصيف العلية، والآيس كريم المثلج المنعش، وموج البحر المتدفق الذى لم أكن أعى من أين يأتى بهذه القوة والعنفوان، ليطيح ببيوت الرمل التى أبنيتها مع أبناء جيلى.

لم تتمح من ذاكرتى أبداً صورة تلك الفتاة الجميلة التى كان البحر يداعب ساقىها وهى ممددة على الشاطئ، وكنت أنا أحرق فى ذلك الانحسار الذى حدث بفعل الموج للمايوه الذى كانت ترتديه فاتحاً زاوية لسهام الرؤية التى أطلقتها مباشرة حتى استقرت على منفرجها الذى ظهر جلياً لثوانى قبل أن تعيد المايوه إلى مكانه الصحيح.

هذا المشهد الذى أرخ لبداية انطلاق مشاعرى العاطفية وهو ما كان كفيلاً بإصابتى بأرق طويل تلك الليلة جعلنى أحياء فى عوالم رحبة بصحبة صاحبة المايوه حتى جاءت اللحظة الفارقة التى تحولت على إثرها من الطفولة إلى الصبا، وخرجت رغماً عنى قطرات ذلك السائل الشفاف.

ذلك المشهد الذى ظل قابلاً فى ركن دفين فى ذاكرتى لا يبارحها عندما عدنا للسعودية فى تلك السنة يمثل صورة مصر التى أتوق للهروب

إليها من هذا الهجير الذى نعيشه فى الغربية، والذى لم يكن يعنى بالنسبة لى الحر فقط وإنما كان يتمثل فى نظرة ذلك الكفيل السعودى المذلة لأبى الذى كان يتوسله فى الحصول على راتب أعلى أو العمل فى مدرسة قريبة للسكن أو ما يشبه تلك الأشياء... لكن رد الكفيل العابس كان دائماً: لا!

كذلك كانت حياتى فى المدرسة التى أدرس بها فى تلك المدينة عذاباً، فقد كنت منعزلاً دائماً لا يلعب معى أحد ولا يقتربون منى لأننى أنا المصرى المختلف عنهم.

كذلك لم يسلم الأمر من بعض التحرشات الجنسية المنتشرة كثيراً فى هذا المجتمع المغلق، خصوصاً من بعض الأولاد الأكبر سناً وهو ما لم أكن أفهمه بطبيعة الحال.

باختصار شديد لم يكن لى ما يعيننى على هذه الغربية غير أمل التى كانت تمثل لى الملاذ الآمن الذى ألجأ إليه، بمجرد عودتى من المدرسة كنا نلعب سوياً ونشاهد الكرتون فى تلك الغرفة المملوءة بالألعاب فى منزلها القريب من منزلنا.

كان بيتهم يزخر بكل ألوان العز.. غرفة نوم بسرير دوار، تلفزيون ملون كبير بريموت كنترول، وما إلى ذلك من أجهزة كثيرة لم تكن موجودة فى بيتنا كانت تمثل لى فى تلك الحقبة عالماً مبهرًا تضاهى اكتشاف الكهرباء أو العجلة عند المخترعين الأوائل.

كنا أنا وأمل نقضى كل أوقاتنا معاً رغم أن ذلك كان يضايق المهندس حسن ذو الفكر المتشدد قليلاً، إلا أنه كان يرضخ عندما تنهره الدكتورة سوسن لأننا ما زلنا أطفالاً صغاراً.

كنت بطبيعة الحال أفهم ما يخشاه المهندس حسن على ابنته منى فلكل الأطفال فى هذه السن البريئة محاولاتهم للتعرف على جسد الآخر، وهو ما كان يحدث بيننا فى تلك الغرفة النائية المظلمة فى آخر البيت، حين كنا نلعب لعبة العريس والعروس التى من خلالها تعرف كل منا على الأجزاء الحميمة فى جسد الآخر.

لكن أمل تظل تلك الصديقة التى لا أطيق عنها بعداً.. لقد مرت على تلك الشهور الماضية منذ أن عدنا إلى مصر بعد انتهاء إغارة أبى كأنها دهر.

بعد عودتى من شراء مستلزمات الوليمة التى تنوى أمى إعدادها كان التليفزيون المصرى قد بدأ فى نقل الاحتفال السنوى المهيّب بمناسبة مرور ثمانية أعوام كاملة على نصر أكتوبر العظيم.

جلست بجوار أبى نشاهد دخول الرئيس السادات بالزى العسكرى الأزرق الأنيق والعصا المرشالية وهو يلوح للجماهير فى سيارة مكشوفة، وإلى جواره نائبه مبارك والمشير أبو غزالة.

كانت الكاميرا تجرى مسرعة إلى أعلى لتلحق بطائرات العرض ذات الدخان الملون، التى كانت تحيل السماء بعد مرورها فوق منطقة العرض إلى لوحة سيريالية بدیعة.

كانت أمى تأتى لتجلس معنا كلما انتهت من بعض أعمال المطبخ.. كانت أمى تنتقد السادات وهذه المبالغة فى الفشخرة على حد وصفها ثم تكمل:

- ده عبدالناصر عمره ما لبس بدلة عدلة ولا عمره ركب عربية كويسة إيه لزوم كل التكاليف دى والشعب جعان! هو السادات بيقلد

احتفالات شاه إيران اللي صرف عليها ملايين.. ألم تكن تلك المبالغة فيها من أهم أسباب نقمة الشعب الإيراني عليه وبعد ذلك قيام الثورة؟! ألم يتعظ السادات لما جرى لصديقه الشاه.. هوا فاكّر نفسه فرعون.

كل هذا وأبى لا يعيرها التفاتًا حيث كان منهمكًا فى متابعة العرض الذى كان من وجهة نظره ردًا على كل المتشككين فى حكم السادات وفى قوة الجيش المصرى ولم يفكر أبدًا فى الموضوع باعتباره يمثل سفهًا فى الإنفاق أو كما كانت أمى ترى أنه حفل مبالغ فيه كما فعل الشاه من قبل.

- أنت مابتدش عليا ليه طبعًا عاجبك اللي أنت شايفه ده.

فرد عليها أبى بهدوء:

- من حقه يعمل كل ما يريد.. زعيم منتصر رجع أرضنا اللي ضاعت بسبب عبدالناصر بتاعك من حقه يحتفل هو وجنوده بالنصر.

لم تتمكن أمى من كظم غيظها إلا بالهروب من أمام شاشة التليفزيون والرجوع إلى المطبخ لاستكمال عملية الطبخ.

ثم عادت أمى بعد برهة تذكر أبى بما حدث للفريق أحمد بدوى وسقوط طائرته التى كانت تحمل بعض القادة العسكريين والتى كان سبب سقوطها كما ورد فى بيان الجيش ارتطام مروحتها الخلفية بسلك كهربى وهو ما لم تصدقه أمى واتهمت السادات.

- أين الفريق سعد الدين الشاذلى صاحب خطة الانتصار ألم ينفه السادات خارج الوطن وينكر دوره وقيادته الحكيمة للحرب.. كيف تقول أنه يحتفل بين جنوده بالنصر وهو ينكل بهم!

كان أبى يرد على أمى وعينيه على الشاشة لا تبرحها:

- السادات زعيم منتصر ومن حقه أن يفعل ما يحلو له لقد رفع راسنا أمام العالم. العالم كله يشاهد بطل الحرب والسلام بأناقته المعهودة وصداقته الوطيدة لزعماء العالم.. السادات وضع مصر على أول الطريق وفى مصاف الدول الكبرى.

- والدول العربية اللي قاطعتنا بعد كامب ديفيد!

- هم أحرار أمامهم الكثير لكى يستوعبوا ما فعله السادات.

دق جرس الباب معلناً وصول عائلة المهندس حسن وما إن فتح الباب حتى حملنى عمو حسن بجسده الضخم ورفعنى إلى أعلى مهلاً كعادته: شو هالصبى! وطبع قبلته الخشنة المعتادة على وجهى قبل أن ينزلنى إلى الأرض ليسلم على أبى الذى قام ليستقبله: كيفك يا زلمة؟ ويجعلنى فى مواجهة أمل التى جرت نحوى بوجهها الباسم وضافرها الصغيرة وفسنانها الوردى القصير فقبلتها قبل أن تجذبنى دكتورة سوسن لتضمنى إلى صدرها وتقبلنى: واحسنى يا واد يا شقى.

ودخلوا جميعاً إلى الصالون قبل أن تأتى أمى مسرعة من المطبخ وفى يدها قطعة قماش تمسح بها يدها حتى تتمكن من الترحيب بالضيوف.

بدأت أطباق الطعام تتدفق على المائدة وتغزو أنوفنا روائح الملوخية المصرية الأصيلة مختلطة بروائح اللحوم المشوية.

- الملوخية تجنن تسلم إيديكى يا حبيبتي.

- بالهنا والشفاء يا سوسن اتفضللى دوقى المحشى.

- لأ مش حأقدر خالص أنا عاملة (ريجيم).

يرد عمو حسن مستهزئاً:

- ليش تحرم نفسها من نعمة ربنا ما باعرف!

- عشان مبقاش زيك بكرش كده.

- ولو... وشو الضرر؟!!

يرد أبى:

- مافيش أجمل من الكرش ده النعمة.

ترد دكتورة سوسن بطريقة ولاد الذوات:

- لا مش ممكن أقدر آكل زيكو كده.

- يا حبيبتي كلى ما حدش واخد منها حاجة.

بعد أن غسل يديه ولحق بأبى ليجلسا أمام التلفزيون بدأ عمو حسن فى انتقاد أبى على إعجابه بالسادات الخائن على حد وصفه...

- كيف يعجبك هذا البهلوان عميل الأمريكان؟!!

يرد أبى عليه بحدة:

- لا تنس أنه السبب فى عودتك للعمل مرة أخرى فى مصر بعد

طردك منها أيام عبدالناصر.

- يا أخى هذا لا يبهر أن أحبه أو أؤيده فيما يفعل لقد باع العرب
وذهب لإسرائيل ووقع معهم معاهدة السلام بكامب ديفيد.. ألا يعد ذلك
خيانة للعرب والإسلام؟!

- لا يا سيدى ليس خيانة.. إن الرجل يراعى مصلحة بلده وأعاد
الأرض التى كان من رابع المستحيلات إعادتها، هل أعادت إسرائيل
أى أرض احتلتها من قبل.. انظر إلى الجولان هل عادت؟

رد حسن بطريقة العارف ببواطن الأمور:

- هل نعتبر أن سيناء تحررت بهذا الشكل إنها لا تزال تحت
الاحتلال ورجال الأعمال اليهود يجوبونها طولا وعرضا.. هذا غير
القوات الدولية وعدم وجود قوات مصرية على طول الحدود مع
إسرائيل.. سيناء عادت ولكن بلا سيادة.

رد أبى بلهجة شامتة:

- يا سيدى بسيادة بدون سيادة إحنا عاجبنا كده.. المهم انها رجعت..
الدور والباقي على اللى أرضهم لسه ما رجعتش.

أحس أبى أن الجملة الأخيرة خرجت رغماً عنه وأنها كانت قاسية
أكثر من اللازم على المهندس حسن للدرجة التى جعلته يدير وجهه عن
أبى فى اتجاه التلفزيون. ولكن أبى لم يعتذر أو يقل شيئاً حتى دخلت
أمى ودكتورة سوسن حاملتين أطباق المهلبية اللذيذة التى تجيد أمى
إعدادها.

فحاولت أُمى تلطيف الأجواء عندما لاحظت وجه عمو حسن العابس
فلكرزت أبى:

- حد يقول الكلام ده يا راجل!

- أنا آسف.

- مش وقته الكلام فى السياسة خلونا فى المهلبية.. دوق وقولى رأيك
يا حسن.

تناول عمو حسن ملعقة كبيرة من المهلبية.

- يسلموا إيديكى يا سناء.. المهلبية تبعك أحلى من المهلبية اللى فى
عقل زوجك.

فضحك أبى محاولاً تلطيف الأجواء هو الآخر، ثم ضحك الجميع
على دكتورة سوسن وهى ساهمة تلقى بوجهها شطر التلفزيون:

- السادات ده برنس أكيد جيهان هى السبب فى الشياكة دى.

بينما كنا أنا وأمل نمارس لعبتنا السرية فى غرفتى البعيدة حتى دق
جرس الباب معلناً انضمام عائلة الشيخ يوسف جارنا الذى أتى للترحيب
بالمهندس حسن هو وزوجته أبله صفية.

دخل الشيخ يوسف مرتدياً جلباباً أبيض فضفاضاً وشبشباً بأصبع من
النوع السعودى الفاخر ويتحلى بلحية سوداء طويلة يهاجمها الشيب فى
بعض الأجزاء.

داعبه أبى بلؤم: الزببية كبرت قوى يا شيخ يوسف.

- ما شاء الله يا سيدى الله أكبر (كأنه يقاوم عيون أبى الحاسدة).

سلمت على حازم ابن الشيخ يوسف وقد كان طفلاً منطوياً لا يحب اللعب مع باقى الأطفال فى شارعنا.

دخلت أبله صافية وفى يدها صينية كنافه ضخمة تفوح منها رائحة السمنة البلدى تتناسب تناسباً طردياً مع جسدها المترهل نسبياً مقارنة بجسد أُمى أو الدكتورة سوسن.

أخذت حازم ليلعب معنا فى غرفتى وطبعاً كان شعورى سلبياً نحوه لأنه تسبب فى قطع لعبتنا الحميمية أنا وأمل.. لكنه وعلى استحياء بدأ يشاركنا لعبة الأتارى التى اندمجنا فيها تماماً بينما كان الاجتماع العائلى فى الخارج يحفل بالضحك والحديث المرتفع الصوت خصوصاً بعد حضور الشيخ يوسف الذى كان يميزه، ورغم تدينه الواضح قدرته الفائقة على السخرية من البشر وتقليدهم.. وكاد الجميع أن يقعوا على الأرض من فرط الضحك الهيستيرى عندما بدأ يقلد السادات أثناء انتقاده للشيخ كشك ثم بدأ يقلد الشيخ كشك نفسه وهو يصف السادات بالعجوز الأقرع ويقول باسم الله دون أن يكمل الرحمن الرحيم وأم كلثوم وهى تقول خدنى فى حنانك خدنى: ياخى خدك ربنا.

(كان هذا إيذاناً ببث أفكار دينية جديدة بدأت تتغلغل فى المجتمع المصرى ترفض الحاكم كما تحرم الفن).

وكان أبى يرد عليه بعد وصلة الضحك الهيستيرية:

- يا أخى لم نفسك شوية ده حتى عيب على ذقنك!

ثم بدأت وصلة السخرية تتجه للدكتورة سوسن وهى تنطق بعض

الكلمات الأجنبية كالسيمون فيميه بطريقة فرنسية مبالغ فيها.

أمى ترد عليها:

- إيه قلتي إيه يا حبيبتي ده بيتاكل ولا إيه!

ثم عطست الدكتورة سوسن فجأة وسط موجة الضحك الغامرة، فقال لها الشيخ يوسف يرحمكم الله فردت عليه:

- ميرسى.

فضحك الجميع حتى احمرت وجنتاها من شدة الخجل.

فرد الشيخ يوسف:

- اسمها يهديكم ويصلح بالكم يا دكتورة..

كانت الحاجة صفية قد انشغلت عنهم قليلاً بالعبث بسبحتها والتمتمة بشفتيها حتى قطع ذلك كله صوت الرصاص الذى أحال وجوههم جميعاً فجأة ناحية التليفزيون الذى انقطع إرساله وبدأ عرض الأغاني الوطنية ثم بعد ذلك قراءة القرآن، بعد ذلك رافقهم أبى وأمى إلى الباب جميعاً. ودعه حسن بابتسامة أفلتت منه رغماً عنه بعد أن همس فى أذنه الشيخ يوسف بدعاء:

- شكلنا حنسمع أخبار حلوة الليلة دى يا أبو على.

(٣) حسنى مبارك

عندما سأل أحد الصحفيين الأجنبى الرئيس الجديء عن السياسة التى ينتوى انتهاجها فى حكمه ما إذا كانت اشتراكية عبد الناصر أم رأسمالية السادات.. أجاب الرئيس الجديء بالإنجليزية:

- اسمى حسنى مبارك.

هنا بدأ إعجابى بالرجل إلى الحد الذى جعلنى أقرر أنه إذا كانت أمى ناصرية وأبى ساداتى فأنا أحب حسنى مبارك، وأرخ ذلك لبداية عشرة طويلة بين الرئيس الجديء وجيل بأكمله لم يتعود أن يرى رئيساً آخر.

ظل البيت معلناً حالة الحداد العام لمدة لا تقل عن الشهر.. أبى عابس دائماً وإن كان موت السادات هو سبب عبوسه بالظاهر لكن السبب الباطن كان عودته إلى الوظيفة الحكومية ذات المرتب الهزيل مقارنة بما كان يحصل عليه فى الخليج.

أما أمى فكانت حزينة ليس على موت السادات فهى لم تكن تحبه كثيراً ولكن بسبب الطريقة التى قتل بها الرجل وسط جيشه بهذه الطريقة المهينة للمصريين جميعاً، وإن كانت مقتنعة فى داخلها بأن أمريكا قتلتها.

كان أبى يستغرب رأيها كثيراً كيف تقتله أمريكا وقد كان رجلها المخلص فى المنطقة خصوصاً بعد نهاية شاه إيران.

كنت أخرج للعب فى الشارع مع باقى الصبية أود أن تخرج أمل من النافذة لأراها حيث كانت والدتها لا تسمح لها بالخروج مطلقاً.. لا تسمح لها باللعب إلا فى النادى وهو ما كان عصياً على أسرتنا بظروف مرتب أبى المتواضع الذى لا يقدر على دفع اشتراك النادى.

إلى أن علمت من أحد صبية العمارة فيما بعد أن حازم يذهب معهم للنادى ويلعب مع أمل وهو ما كان يصيبني بالغيرة الشديدة والحنق على الفروق الطبقة التي لم ألحظها فيما سبق، فأسررتي التي كانت تنتمي للطبقة الوسطى أصبحت بعد انفتاح السادات الاستهلاكى أسرة كادحة.

ولكن الذى يحيرنى كثيراً هو ذلك التقارب الغريب الذى حدث بين أمل وحازم رغم خجله الشديد، هل هى الكيمياء التى تحكم علاقات البشر وخصوصاً بين الأطفال فى مثل هذه السن المبكرة والتى جعلت أمل تميل له وتنسأنى تماماً. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فقد كان ذلك نتيجة التقارب الشديد الذى حدث بين العائلتين، حيث يتشابهان فى أمور كثيرة تجمعهما كالحالة الاقتصادية؛ فحسن الزهار رجل المقاولات الثرى والشيخ يوسف الذى يعمل بالتجارة وخصوصاً تجارة السلع المهربة من بورسعيد وتجارة العملة التى لا يعتبرها حراماً فتسعة أعشار الرزق فى التجارة كما كان يحب دائماً أن يقول مبرراً عمله المخالف للقانون، كذلك كانت تجمع الرجلين مسحة من التدين الظاهر الذى كان بمثابة جواز مرور لهما فى الكثير من الأعمال التى يثق البسطاء فيها بالرجل المتدين.

بعد إعلان وفاة الرئيس السادات والقبض على قاتليه من الجماعة الإسلامية هلّل المهندس حسن وكاد أن يرقص طرباً لولا أن رأى وجه أبى يكاد ينفجر من الحزن على الرجل، فما كان منه إلا أن خفف من فرحته قليلاً وسلم على أبى وانصرف. ولكن الجفوة بدأت منذ ذلك التاريخ بين الرجلين وذهب حسن وعائلته للإقامة بإحدى العمارات التى بناها بمدينة نصر وهو ما جعلنى أشتاق كثيراً لأمل إلا أن إصرار الدكتورة سوسن على الاتصال بأمى وزيارتها فى منطقة القبة وهو ما جعلنى أتمكن من رؤية أمل عندما تأتى لزيارتنا مع أمها التى كانت كثيراً ما يكون محور حديثها مع أمى يتمثل فى الشكوى من تغير أحوال

زوجها، فبعد انضمامه للإخوان المسلمين والتي كانت تظن أن السبب فيه يرجع إلى قيامه ببعض الأعمال الخيرية ولكنها سرعان ما وجدت أن ذلك أثر بالسلب على تواجدته بالمنزل وجعله يعود إلى البيت متأخراً بعد أن تكون هي قد أسلمت جسدها للنوم، ناهيك عن السفر المتكرر والمستمر إلى غزة والسعودية وهو يخبرها أنه بصدد السفر إلى باكستان قريباً لتوصيل معونات وأموال للمجاهدين الأفغان في حربهم مع الروس.

وأخيراً إصراره على ارتدائها الحجاب الذي كانت ترتديه في السعودية، وهي لا تجد في ارتدائه علاقة بالدين، وحتى إن كان كذلك فلماذا لم تكن نساء مصر ترتدينه من قبل! هل الفريضة لم تكن معروفة في مصر قبل بداية السبعينات رغم أنها كانت تحرص على سماع دروس الشيخ الشعرواي كل يوم جمعة ولم يكن يتناول موضوع الحجاب في دروسه.

كانت أمى تهدئها وتؤكد لها أنه لا علاقة للملابس أو تغطية الشعر بالدين: ربنا رب قلوب.

وكانت أمى تخشى من أن انتشار ظاهرة التدين الشكلى في هذه المرحلة قد ينبئ بمشاكل كثيرة سنعانى منها كثيراً. ألم يكن هذا التدين الشكلى هو ما يجعل السيدات السعوديات يصطففن في طابور طويل أمام حمام السيدات بمجرد خروج الطائرة التى تقلهن من الأجواء السعودية لتغيير ملابسهن وإستبدالها بملابس متحررة جداً على أحدث صيحات الموضة الأوروبية وذلك نتيجة الكبت الشديد.. ثم يكررن نفس عملية الاصطفاف لفعل عكس ذلك في رحلة الإياب.

لم تكن أمى تستطيع أن تقول مثل هذا الكلام أمام أبله صافية والد

حازم عندما أعلن جرس الباب عن قدومها لزيارتنا عندما علمت بمجىء
الدكتورة سوسن عندنا، وكان معها حازم الذى كان فى يده لعبة الـ
Game Watch عليها بعض الألعاب التى تشبه ألعاب الأتارى، جرت
إليه أمل تريد أن تلعب معه بها بينما لم أنجذب أنا إلى هذه الألعاب.

(٤) صبرا وشاتيلا

فى ذلك اليوم من خريف عام ٨٢ دق جرس الباب معلناً عن مجيء حسن الزهار مهتاجاً ثائراً ووراءه زوجته تحاول تهدئته وفى أعقابهما دخلت أمل تحمل حقيبتها الصغيرة.

أشار عمو حسن إلى التلفزيون موجهاً حديثه نحوى:

- افتح يابنى التلفزيون خلىنا نشوف هالمصيبة.

جاءت أمى مسرعة من المطبخ إلى الصالة لتسأل الجميع عما يحدث ثم أتى أبى متثاقلاً بعد أن استيقظ فجأة على الضجة التى أحدثها عمو حسن.

وأمام شاشة التلفزيون لم يكن هناك داع لكى يسأل أحد عن سبب ضجة المهندس حسن.

فقد كان المنظر يوحى بما يخرس الألسنة ويشد الانتباه وذلك من هول الصدمة التى تجلت على الشاشة.

بكينا أنا وأمل فأخذتنا أمى إلى الداخل فما شاهدناه كان يتنهد براءة الأطفال بل والكبار أيضاً؛ الجثث ملقاة فى شوارع المخيم والدماء تغطى المشهد بالكامل، أشلاء بشرية فى كل مكان، أطنان من الذباب تحوم حول المكان فقد وجدت غذاءً يكفيتها لسنوات.

المذيع يبكى وتخرج غصة من حلقه وهو يصف تلك المجزرة التى حدثت صباح الأمس فى مخيم صبرا وشاتيلا، وهو أحد المخيمات التى يقيم فيها اللاجئين أو النازحون الفلسطينيون فى لبنان.

ثلاثة آلاف قتيل ذبحوا بدم بارد لم تأخذ القتلة أى شفقة ولا رحمة حتى بالنساء والأطفال.

أبى يصرخ على غير العادة: اليهود الكفرة.. شارون الكلب حيقتل كل الفلسطينيين فى لبنان.

كان أبى شبه متأكد أن هذا العمل الإجرامى ضد الفلسطينيين لا يمكن أن يصدر إلا من الإسرائيليين وخصوصاً بعد قيام شارون باحتلال جنوب لبنان قبل ذلك بشهر تقريباً.

إلا أن عمو حسن رد عليه ساخرًا:

- إسرائيليين مين يا أستاذ دول عرب اللى عمل هيك، عرب.. الميليشيات المارونية مرقوا عالمخيم فى الليل وذبحوا وقوصوا على كل اللى قابلهم.

دخلت أمى فى الحوار مذهولة:

- معقول شارون برىء من الجريمة دى!

رد حسن عليها:

- طبعًا شارون شارك بهالمذبحة لقد أضاء لهم كشافات أحالت ظلام المخيم الدامس إلى ظهر. ملعون أبو اليهود على الميليشيات كفرة ما إلهم ملة.

ربتت أمى على كتف سوسن التى كانت شبه منهارة وحاولت تهدئتها، ثم قالت:

- إن شاء الله أبو عمار والمقاومة يرجعوا حق الضحايا اللي ماتوا.

رد أبي ساخرًا:

- آه إن شاء الله.

أيده حسن قائلًا:

- لا يوجد مقاومة يا سناء احكىنى إيش سوت منظمة التحرير للإسرائيليين للحين غير افتعال حروب مع العرب؟ ألم تورط المنظمة نفسها فى حروب وصراعات مع الأردن حتى قوص الملك حسين عليهم فى أيلول الأسود. ألم تورط نفسها ثانية فى صراعات عربية مع الميليشيات فى لبنان وهذه هى النتيجة.. أين المقاومة عندما تدخل فى صراعات عربية وتنسى المحتل الإسرائيلى.

لم يعجب هذا الحديث أُمى التى كانت تحب أبو عمار كثيرًا وتعتبره مناضلاً حقيقياً يذكرها بجيفارا وعبدناصر ومانديلا.

على الرغم من أن كل ما ذكره المهندس حسن كان صحيحًا إلى حد كبير.

فمنذ نشأة منظمة التحرير بقيادة ياسر عرفات فى منتصف الستينات ورغم كثرة ما انهال على المنظمة من أموال نفطية من ليبيا ودول الخليج إلا أن المنظمة لم تحقق أى انتصارات حقيقية على المستوى العسكرى أو السياسى على الجانب الإسرائيلى (باستثناء معركة الكرامة سنة ٦٨ التى شارك فيها الجيش الأردنى مع المقاومة).

ولأن رجال المنظمة كانوا يعتبرون أن الأردن بلدهم باعتبار أن

نصف سكانها من الفلسطينيين وأنهم يملكون المال والسلاح فتحولوا إلى دولة داخل الدولة مما اضطر الملك حسين لتوجيه ضربة موجعة لهم فيما سمي بمذبحة أيلول الأسود، وفي أعقابها تم طردهم إلى لبنان ونفس ما حدث في الأردن حدث في لبنان في شكل صراعات المارونيين والسنة والشيعية في منتصف السبعينات وقد كان هذا الصراع سبباً مباشراً في دخول الجيش السوري إلى لبنان وهو ما أدى إلى إشعال فتيل الحرب الأهلية في لبنان التي استمرت إلى ما يقرب من خمسة عشر عاماً.

ردت أمى مستنكرة:

- يعنى نعمل إيه يا حسن نبطل مقاومة!

رد عليها حسن مطمئناً:

- لا ما نبطل مقاومة يا سناء ولكن المقاومة لا بد تكون مقاومة إسلامية ما يدور في فلسطين ولبنان هو حرب دينية القتل فيها بيتم على الهوية.. اليهود بيقتلوا المسلمين والمسيحيين بيقتلوا المسلمين والمسلمين الشيعة بيقتلوا المسلمين السنة هي حرب لإبادة المسلمين ولن يردعهم عنا غير الجهاد.

رد أبى بعد فترة:

- يا عم قول يا باسط.. المهم أن يكون فيه مقاومة بجد مش مهم نوعها إيه علمانية ولا إسلامية. إنتم يا فلسطينيين سيبتوا بلدكم وفرطتم في حقكم من زمان والمثل بيقول ما حك جلدك مثل ظفرك.

نظرت أمى معاتبة على ما اعتاد أن يجرح به المهندس حسن.

- أنا مش حازعل هالمرة أنا باعرف إن كلامك مثل الدبش مثل ما بتحكوا بمصر.. أنا بدى أرد عليك عملى وبتشوف أنا شو باسوى.

وتركنا ومضى مصرًا على فعل شىء ما يرضى به كبرياءه
الفلسطينى الذى جرحه أبى.

مضت دكتورة سوسن مع زوجها تحاول تهدئته ونادت على أمل
لكى تذهب معهما.

كان أبى وخصوصًا فى فترته الساداتية الحالية يعتبر أن الفلسطينيين هم من باعوا أرضهم أو تخاذلوا فى الدفاع عنها ضد اليهود وكان يقول كثيرًا للمهندس حسن وخصوصًا بعد كامب ديفيد إنكم تعتمدون كثيرًا على الآخرين لاستعادة وطنكم السليب. فأرض فلسطين يجب أن يعيدها الفلسطينيون وليس المصريون أو السوريون.

كان المهندس حسن يرد دائمًا بصيغ المستقبل: سوف نفعل إن شاء الله.. نحن نعد لهم العدة.. سوف نمحوهم من الوجود.. سوف نطردهم من أرضنا.

كان أبى يسخر منه مستفهمًا:

- كيف وأنتم تناضلون من دول أخرى؟ بالكلام فقط!

ثم ينظر إلى ساعة المهندس حسن الرادو الذهبية الغالية ويكمل:

- لابسين بدل وساعات غالية وراكبين عربيات آخر موديل.. يا بتوع نضال آخر زمن فى العوامات.

على رأى الشيخ إمام الذى كان حسن لا يحبه إطلاقًا نظرًا لشيوعيته

الظاهرة، فكان ينهر أبى وهو يقول:

- والله لو ما حسنت ملافظك بامشى.

فكان أبى يثير حفيظته بشكل أكبر عندما يقول:

- أليس أخوك هذا النائب فى الكنيسة!

يرد حسن:

- هو أخى صحيح ولكنه منبوذ من كل العائلة من سنيين ولا يتصل به أحد.

- ولكنه يدافع دائماً عن حقوق عرب ٤٨.

- ما بيدافع ولا شى هيدى مجرد مصالح مع الإسرائيلية.. إسرائيل بدها تثبت للعالم أن فيه نواب عرب بالكنيسة.

عند هذا الحد لم يستوعب عقلى الصغير ما يقال فوجهت كلامى لعمو حسن:

- كيف يكون عربياً نائباً بالبرلمان الإسرائيلى ومن هم عرب ٤٨ الذين يدافع عنهم أخوك؟

- هما يا حبيبى الفلسطينىة اللى ما خرجوا من أرضهم بعد النكبة سنة ٤٨.

- يعنى دول ببقوا كويسين لأنهم لم يتركوا بلدهم واللا وحشين لانهم عاشو مع الإسرائيلين؟!

لم يرد عمو حسن على سؤالى هذا مطلقاً وتركنا وانصرف.

جلست أُمى تربت على كتفى وأنا أبكى من هول ما شاهدته من مناظر مروعة فى مخيم صبرا وشاتيلا.

سألتها:

- كيف لعربى أن يقتل عربياً مثله بهذه الوحشية وبمساعدة الإسرائيليين!

- للأسف يا بنى هذا ما يحدث دائماً ومثل ما كانت دير ياسين وكفر قاسم مذابح ارتكبتها الإسرائيليين لطردهم الفلسطينيين من أرضهم. فقد ارتكبت جرائم لا تقل فى وحشييتها وهمجيتها ولكن بأيدى عربية مع الأسف الشديد.

لم أصدق ما سمعت إلا عندما قرأت فيما بعد عن مذبحه أيلول الأسود التى تحدث عنها المهندس حسن التى نفذها الجيش الأردنى ضد منظمة التحرير الفلسطينية.

ثم مذبحه تل الزعتر الذى نفذها الجيش السورى هذه المرة بأمر من حافظ الأسد الذى كان لا يحب عرفات لخلافات سياسية قديمة منذ كان الأسد وزيراً للداخلية فى سوريا.

قصفت الطائرات السورية مخيم تل الزعتر بالقنابل حتى قتلت ما يقرب من ثلاثة آلاف شخص.

وللمفارقة أن هذا الجيش السورى الذى قتل الفلسطينيين فى تل الزعتر وكان سبباً رئيسياً فى اشتعال الحرب الأهلية فى لبنان قد قام

بضرب السوريين فى مدينة حماة السورية فى عام ٨٢ لمدة شهر
بالقنابل والصواريخ واللى راح ضحيتها ما يقرب من ثلاثين ألف قتيل.

ومع ذلك فهضبة الجولان لا تزال محتلة حتى وقتنا هذا.

(٥) أفغانستان

عندما احتلت القوات الروسية أفغانستان كان ذلك بمثابة نقطة التحول في حياة المهندس حسن، بدأ نجمه يلعب داخل جماعة الإخوان المسلمين لحماسته الشديد للجهاد وأخذ يساهم بأمواله في دعم عملية تجنيد المجاهدين، التي كانت تتم برعاية من الحكومة مجاملة للأمريكان.

بدأ يتقرب للحاج مصطفى مشهور الذي كان جارنا في منطقة القبة، الرجل القوى داخل الجماعة ومؤسس التنظيم الدولي والمشهور إعلامياً بعملية السيارة الجيب التي كانت سبباً في اكتشاف النظام الخاص للإخوان المسلمين عام ٤٨، الذي كان مسئولاً عن بعض الاغتيالات التي تمت في تلك الفترة.

رأى الحاج مصطفى مشهور في المهندس حسن طاقة كبيرة ينبغي الاستفادة منها لخدمة أهداف الجماعة؛ فهو فلسطيني ومعه جنسية أردنية وكان يعمل في السعودية، لذلك كان يرسله إلى هناك لمقابلة كمال السنانيري أحد أهم رجال النظام الخاص بالإخوان والمسئول عن ملف الجهاد والشيخ عبدالرحمن عزام الفلسطيني الذي يعتبر الأب الروحي لمشروع الجهاد في أفغانستان إلى السعودية للتنسيق والترتيب لنقل المجاهدين من مصر والأردن وباقي البلاد العربية إلى باكستان، وكان المهندس حسن بعلاقاته المتعددة وأمواله بمثابة همزة الوصل بين الشيخ عزام والحاج مصطفى مشهور.

ثم كانت رحلته التالية بعد ذلك إلى أفغانستان برفقة الشيخ عزام للبحث عن مكان صالح لتدريب شباب المجاهدين وهناك تم تأسيس مكتب الخدمات لتسهيل عملية تسفير المجاهدين العرب لمحاربة الروس.

ومن هنا بدأت مهمة جلب الشباب العربى للتدريب على القتال، ليس لتحرير القدس وقتال الإسرائيلىين والتى تمثل أولوية الجهاد، وإنما لقتال الروس الملاحدة والعياذ بالله طبقاً للإرادة الأمريكية.

لم يكن المهندس حسن يعلم أنه بإرادته الحرة جزء من مؤامرة أمريكية نجحت بامتياز فى استخدام الإسلاميين ليحاربوا الروس حرباً بالوكالة بدلاً منها وبأكثر مما كانت تستطيع.

فالعبقريّة الأمريكية نجحت فى إقناع المهندس حسن الفلسطينى المحبط الذى قضى كل عمره يحلم بالنصر دون أن يجد إليه سبيلاً إلى أن وجد فى العملية الأمريكية ضالته المنشودة التى ترضى مشاعره الذكورية، بعد استهانة أبى الدائمة بكل إخفاقاته النضالية السابقة.

فعندما يصبح الإسلام بديلاً للوطن تنوّه المشكلة وتتوارى وتصبح إقامة الدولة الإسلامية فى أفغانستان بديلاً مريحاً عن الوطن البعيد المنال فى فلسطين.

حتى وإن كان هذا الوهم على حساب أرواح ودماء الشباب العربى، الذى كان من المفترض أن تكون أهم أولوياته تحرير وطنه وقضيته الكبرى وليس تحرير أوطان الآخرين، وأن الإسلام الذى ذهبوا للدفاع عنه بإرادة أمريكية له رب يحميه ولن يخسر كثيراً بسقوط أفغانستان أو غيرها وإنما يخسر بدرجة أكبر كلما ظلت مدينة القدس تحت الانتهاك الإسرائيلى.

بصورة أقرب إلى ذلك كان الفكر القومى الناصرى يرى عندما ترك حربه مع الإسرائيلىين وذهب لمقامرته فى حرب اليمن التى استمرت خمسة أعوام وكانت سبيلاً مباشراً لنكسة ٦٧.

(٦) مراهقة

وسط تحصينات كبيرة من العسكر والحصان استطاع حازم أن يحول دون أى هجمات خطيرة قد يتعرض لها داخل التبييتة الفولانية التى تحمى ملكه والتى لم أكن قادراً على اختراقها بعد أن خسرت جزءاً كبيراً من جيشى، فلم يكن أمامى غير حل وحيد يتمثل فى المغامرة حتى لا أخسر هذا الدور أمام أمل التى كانت تشاهد تلك المنافسة الشطرنجية القوية بيننا، وإن كانت تميل إلى تشجيع حازم الذى كان يهزمنى دائماً وذلك نظراً لطريقته التقليدية فى اللعب التى كانت تعتمد على حفظ بعض الأدوار العالمية المشهورة للاعبين الذين يركزون للحصول على فارق قطعة واحدة حتى لو بيدق واحد ثم يتمكنون بعد ذلك من الفوز.

أما أنا فقد كنت أميل إلى مدرسة المغامرة والابتكار التى تتمثل فى وضع خطط جديدة للعب التى قد تتطلب التضحية ببعض القطع فى سبيل تحقيق إستراتيجية مختلفة أو فتح ثغرات فى دفاعات الخصم، وهو ما حاولت أن أفعله ولكن بشيء من الرعونة عندما قدمت وزيرى هدية له بدون مقابل حتى أتمكن من فتح مدخل أتمكن من خلاله من الولوج إلى ملك حازم المحصن، ولكن محاولتى باءت بالفشل وكالعادة تمكن وزيره من الفتك بجيشى.

وهو ما تهللت له أسارير أمل فقد أحببت طريقته التقليدية فى اللعب وهى دائماً ما تقول عنه أنه يعرف ما يريد، أما أنا فدائماً ما كان يطلق على الجميع خالف تعرف.

هذا كان سبب خسارتى دائماً: البعد عن النمطية والتقليدية وتجريب أفكار جديدة حتى لو فشلت.

قطعت أمل شرودى بسبب دور الشطرنج وأخرجت بعض الشطائر من حقيبتها:

- اتفضل ساندوتش وما تز علش قوى كده ده مجرد دور شطرنج.

- هو إنت ز علت ليه المرة دى ما أنا كل مرة باكسبك! (قالها حازم بشماتة).

- أنا مش ز علان عشان الدور أنا عايز أعرف أنا ليه باخسر كل مرة.

علقت أمل وهى تتناولنى الطعام:

- كل الأول وبعدين نشوف الموضوع ده.

وأعطت حازم شطيرة أخرى من الجبن الفرنسى الشهير برائحته غير المستحبة التى كان يحبها جدًا.

بدأ حازم يشكو لنا دائماً من عدم تمكنه من مشاهدة التليفزيون مثلنا لأن أباه الشيخ يوسف منع أسرته من مشاهدته وهو يحب أن يشاهد أفلام بروس لى وجاكى شان؛ فقد كان مغرمًا بلعبة الكاراتيه والكونغ فو وكان يشاهد تلك الافلام فى منزل أمل حيث إن أبى أو المهندس حسن لم يجدا غضاضة فى مشاهدة التليفزيون أو أفلام الفيديو.

وبينما كان حازم يمارس هوايته فى تقليد بروس لى فى إحدى حركاته القتالية المشهورة أمام الشاشة كنا أنا وأمل نستمتع إلى بعض أغانى فيروز التى تحبها جدًا.

كنت سعيدًا بالحديث مع أمل بعيدًا عن حازم الذى انشغل عنا تمامًا

بمشاهدة فيلم بروس لى، يدور الحديث بيننا حول المدرسة والأصدقاء الجدد وبعض المواد الجديدة كالأحياء والرياضيات. كانت هى تحفظ أشعار إبراهيم ناجى وخصوصاً قصيدة الأطلال تغنى لى مقطعاً مقلدة صوت أم كلثوم.

كنت أنا مغرمًا وقتها بالحديث عن حلقات الدكتور مصطفى محمود وكتب أنيس منصور وروايات نجيب محفوظ وإحسان عبدالقدوس، أما هى فكانت تحب قراءة الروايات الحالمية.

وأثناء الحديث شررت منها قليلاً وفكرت كيف لفتاة حالمية وجميلة مثل أمل أن تتعلق بحازم الذى يحب الألعاب القتالية ويكره الأدب وتتركنى أنا الذى أشاركها نفس الميول والأفكار؟!

"إنها الكيمياء يا صديقى" قالها لى ذات يوم صديق يكبرنى ببضعة أعوام عندما سألته عن سبب بعده عن صديقته فى الجامعة التى يعشقها ولا تعيره نفس الاهتمام والعاطفة.

كانت أمل تتحلى بسيقان مرمية بيضاء ممثلة تخلق الألباب حين تنحسر عنها تنورتها القصيرة وهى امتداد لذلك الجسد الجميل المتناسق. فرغم قصر قامتها الظاهر إلا أن ملامحها كانت محفورة بعناية كما تمثال الإلهة فينوس وصدرها الأبيض الناصع كان يتفجر بالأنوثة عندما يظهر خلسة من فتحة بلوزتها الرقيقة.

لم أكن أحتمل جمالها الأخاذ كلما التقينا خصوصاً فى بيتهم، عندما كانت تخرج علينا بملابس البيت الأكثر إثارة مخالفة لتعليمات المهندس حسن الدائمة بضرورة الاحتشام خصوصاً بعد فرضه الحجاب على أمها، إلا أن الدكتور سوسن كانت تنتهز فرصة خروجه وسفره الدائم وترتدى هى وابنتها ما يحلو لهما غير عابئة بتعليمات زوجها المحافظة.

فكنا عندما نزوهم تقابلنا الدكتورة سوسن بملابس البيت العادية يتدلى شعرها القصير بانسيابية أثارت حسد أمى كثيراً بالرغم من عدم حجابها، وهذا ما ورثته أمل عن أمها بالطبع شعر بنى جميل يميل إلى الاصفرار تهوى خصلاته مظلة جبهتها يميناً ويساراً بما تهفو له قلوب المحبين أمثالى.

لم تكن أمل رغم ذلك تغضب من أبيها عندما يأمرها بالاحتشام فالموضوع عندها لم يكن بالأهمية مثل أمها التى كان الحجاب بالنسبة لها نوعاً من القيد لم تتحمله، ليس لأسباب دينية فقد كانت تصلى وتصوم ولكن لأنها نشأت فى بيئة أقل محافظة مما جعلها تحب ارتداء الملابس التى تظهر مفاتها وهو ما يعوض بطريقة أو بأخرى قصر قامتها وملاحها العادية التى لم ترق لمستوى الجمال العادى فكانت تعبر عن أنوثتها بارتداء هذه النوعية من الملابس.

أما أمل فلم تكن تبالى كثيراً بذلك فقد وهبها الله جمالاً لا يحتاج لإبراز مفاتن جسدها، فكانت تنفذ كلام أبيها وترتدى ملابس أكثر احتشاماً وكان ذلك أيضاً ما تحثها عليه الداهه عزيزة مربية أمل الفلسطينية التى نزحت مع العائلة من الأراضى المحتلة عقب النكسة والتى لم أكن أفهم طبيعة علاقتها بهذه العائلة فقد كانت أمل تطيعها وتحبها أكثر من أمها، كذلك كان المهندس حسن يجلها ويحترم رأيها بدرجة أكبر كثيراً من كونها مجرد مربية أصغر منه سناً، أما الدكتورة سوسن فكانت دائماً تنعتها بالجنون والدروشة نظراً لتردها شبه اليومى على مقامات الأولياء والعارفين بالله.

أما حازم فقد كان فتى الأحلام الذى تحلم به الفتيات فى مثل هذه السن، فجسده الرياضى وطوله الفارع المنقول إليه وراثياً من جينات الشيخ يوسف بالإضافة إلى وسامته الظاهرة وبشرته البضاء التى

اكتسبها من جينات الحاجة صفية كونها تنحدر من أصول تركية، كان ذلك كفيلاً بحسم الصراع لصالحه مقارنة بجسدى النحيل وبشرتى السمراء.

كان يحاول دائماً أن يتقرب إلىَّ ويصادقنى نظراً لقلة أصدقائه وعدم قدرته على التكيف اجتماعياً وانطوائيته المعهودة التى كان يحاول أن يتغلب عليها بممارسة الرياضة بل والألعاب القتالية على وجه الخصوص التى تجتذب قدراً كبيراً من الأولاد فى مثل هذه السن المصاحب للبلوغ.

كنت أتمنى ألا أرى صداقته فى ذلك الوقت إلا أن أمل هى من كانت تحول دون ذلك، فكيف أغفر له حتى وإن لم يقصد استيلاءه على صديقتى الوحيدة التى نقشت ملامح طفولتى على شفثيها؟!!

كيف تنتظر فى عيني وتشعر بالخجل عندما ألمس يدها أو أجزاء من جسدها عن طريق الخطأ؟ ألا تذكر تلك اللحظات الحميمة التى كانت بيننا؟ ألم أكن أقرب إليها من ذلك الحازم الذى لا يفكر فى مثل هذه الأشياء؟!!

هل أنا الذى أرتكب أخطاء وذنباً يعاقبنى الله عليها لما اقترفته مع أمل ونحن صغار ألم نكن مجرد أطفال وليس علينا من حرج؟ أليكون ذلك هو سبب بعدها عنى وميلها إليه؟

لا.. أنت تعلم أن أخلاقك لم تتحسن حتى الآن رغم محاولاتك المضنية للصلاة وقراءة القرآن مثل حازم، إلا أنك ما زلت تنتظر إلى جسدها بأشتهاء، ألم تحاول أن تتسلل فى إحدى المرات فى بيتهم لتشاهدها من ثقب الباب وهى تستحم مستغلاً انشغال الدكتورة سوسن فى المطبخ والداده عزيزة فى قراءة أورادها؟

ألم أقارن بين جسدها الجميل وجسد تلك الممثلة الفرنسية التي شاهدها في شريط الفيديو الذى نسيه أبى فى الجهاز وخرج هو وأمى، فكانت فرصة شيطانية للاستمتاع برؤية جسد تلك الفتاة وهى تستحم مع صديقها.

ليتنى كنت مثل ذلك الصديق أعبت بنديى أمل الصغيرين وألثم شفيتها الرقيقتين.

هربت يومها من بيتهم قبل أن تخرج أمل أو تنتهى الدكتوراة سوسن من إعداد الطعام. وقضيت ساعة كاملة فى غرفتى أتأمل جسد أمل العارى كأنها تنام معى فى سريري، حتى جاءت اللحظة الحاسمة فقذفت كما لم أفعل من قبل. بعدها اعترانى الخزي واللعة وندمت على ما حدث.

نعم إن حازم أفضل منى فى كل شىء: متفوق فى دراسته، يجيد الحفظ عن ظهر قلب، بطل رياضى، ذو جسد قوى مفتول العضلات وليس خيلاً تافهاً مثل جسدى الذى أعيته كثرة الاستمنااء. ثم إنه يهزمنى دائماً فى الشطرنج.

من الواضح أننى لا أجيد شيئاً أستطيع به جذب انتباه أمل إلىَّ.

هل رأنتى وهى تستحم وأنا ألتصص عليها ولم ترد أن تخبرنى؟ نعم لقد التقت نظرانا معاً لحظة ما وهى تستدير ناحية الباب لكى ترتدى ملابسها.. ترى هل استمتعت بنظرأتى إلى جسدها؟

لا لا.. أكيد أنها لم ترنى، إنها خجولة ولو رأنتى لغضبت منى كثيراً ولأصبحت الآن فى موقف لا أحسد عليه.

كيف تكون بهذه الأخلاق وأنت الفتى المؤدب القارئ المتذوق للموسيقى؟ ماذا تركت لحازم الذى لا تستهويه الآداب والفنون؟ إنه مثل حجر أصم لا يشعر ولا يحس كيف تحبه هو وتتركى!

الإجابة واضحة يا عزيزى أنت بلا أخلاق وهى تذكر كل أفعالك السيئة معها أثناء الطفولة ولا تريد أن يعلم أحد بذلك فتهرب منك وتهرب إليه.. هذا الفتى الذى يحظى بكل شىء حتى الأخلاق والصلاة. ولكن ما ذنبى أنا إنه ذنب أبى وأمى اللذين لم يعودانى على الصلاة كما يفعل الشيخ يوسف والخالة صفية مع ابنهما، لقد قاما بتحفيظه القرآن وهو طفل والشيخ يوسف يصحبه إلى الجامع كلما غدا أو راح، حتى لصلاة الفجر التى لم أقو على أدائها حتى فى البيت.

ألم يسخر منى عندما قلت له إنى أصلى جميع الفروض فى البيت عندما قال إننى أفعل مثل الفتيات لا أستطيع الذهاب إلى المسجد مثل الرجال.

لماذا لم أرد عليه فى ذلك اليوم؟ هل لأننى أعلم أنه محق فأنا لا أواظب على أداء الصلاة فى البيت ولا أصلى غير الجمعة مع أبى فى المسجد بحكم العادة الاجتماعية ليس إلا؟

لماذا لم يكن أبى مثل الشيخ يوسف أو حتى المهندس حسن، أو الشيخ مصطفى مشهور ذلك العالم الجليل الذى أراه أحياناً يؤدى خطبة الجمعة فى الجامع الكبير فى شارعنا؟

إننى ملعون مثل الشيطان كما قال لى الشيخ يوسف ذات يوم عندما رآنى أرتدى إنسيالاً وقال لى هذا من فعل الشيطان يا بنى والرجل لا يرتدى مثل هذه الأشياء.

ومع هذا لم أخلعه ولا القلادة الفضية التى أهبتها لى أمى فى عيد ميلادى الأخير وعندما أخبرتها عن رأى الشيخ يوسف قالت لى:

- ده راجل متخلف لا تستمع إليه. الدين ليس له علاقة بالمظهر إنه دين للقلوب.

هذه الجملة التى كانت تقولها دائماً عندما تنتقدها أى من زميلاتها المحجبات لعدم ارتدائها الحجاب، رغم أننا كنا نعيش فى ذلك الوقت فى العصر الذهبى للحجاب تلك الفريضة الغائبة التى ظهرت فى السبعينات وازدهرت فى الثمانينات. كما كانت أمى تقول دائماً.

لم تكن أمى تصلى كل الفروض بطبيعة الحال تماماً مثل أبى، ولكن كانت أمى مثلاً يحتذى فى الأخلاق لا تتحدث عن أحد ولا تقصر فى عملها كمدرسة، لا تعطى أبداً أى دروس خصوصية مثل أقرانها اللاتى كان بعضهن محجبات.

ورغم عدم حجابها فقد كانت محتشمة فى ملابسها رغم عدم تغطية شعرها فجميع ما ترتديه فضفاض على عكس الدكتوراة سوسن التى كانت دائماً ما ترتدى القصير والشفاف من الملابس، بينما كانت تتحجب عند الخروج مع زوجها، فى زيارته القليلة عند عودته من كل سفرة له خارج مصر سواء لزيارتنا فى بيتنا أو غيره فكانت تخلع الحجاب بمجرد دخولها البيت، وكانت دائماً تقول لزوجها:

- عادل وسناء إخوانى سيبنى أقعد براحتى.

أما فى الزيارات التى تتعلق بلقاءات قيادات الجماعة فكانت دائماً تثير حقها، وذلك لعدم قدرتها على الاندماج أو التجاوب مع زوجاتهم. فلم تكن طبيعة الدكتوراة سوسن تتقبل فكرة الحجاب لا شكلاً ولا

موضوعاً ولكنها تضطر إلى ارتدائه إرضاءً لزوجها ليس إلا.

أما الخالة صفية والددة حازم فكانت تقدم نموذجاً آخر أكثر تشدداً ظهر في المجتمع المصري بعد حقبة الإغارات الخليجية، وملخصه أن الحجاب لا يغطي كل أجزاء جسد المرأة المثيرة للغرائز فينبغى تجاوز مرحلة الحجاب بارتداء عباءة سوداء سعودية الطابع تغطي باقي الجسد ينسدل فوقها خمار طويل يكسو المنطقة العليا من الجسد وهي مرحلة كانت مقدمة لارتداء الخالة صفية لما يعرف بالنقاب والتي تمت بعد ذلك بوقت ليس بالطويل. وذلك كله رغم احتفاظها بتلك الصورة التي لا تزال معلقة في غرفة صالون بيتها لها مع الشيخ يوسف أثناء حفل زفافهما ترتدى فيه أبله صفية فستاناً قصيراً يغطي بالكاد ركبتيها وكان شعرها ينسدل كشلالات نياجرا على كتف الشيخ يوسف وإلى جوارهما تقف زميلاتها بالمعهد الدينى الذى كانت تدرس فيه فى المنصورة كلهن سافرات يرتدين فساتين وتنورات تنافس فستان زفاف أبله صفية فى القصر.

وكان تعليق أبله صفية على ذلك دائماً وبمنتهى التلقائية أن الحجاب لم يكن موجوداً وقتها وكان ذلك رغم الدراسة فى معهد دينى.

أما الشيخ يوسف فقد كان يقدم النمط الذكورى المقابل لزوجته الذى بدأ فى الظهور فى هذه المرحلة، فقد كان يلبس جلباباً قصيراً من الأمام ويغوص وجهه فى لحية طويلة غير مهذبة أقرب إلى لحية كاسترو أو كارل ماركس.

وكانت أمى تحكى لى فيما مضى عن الشيخ يوسف الذى كانت تحبه كثيراً قبل سفره إلى الخليج، فقد كان حليقاً يهتم بمظهره بعناية وكان مرجعاً إسلامياً يرد على أى سؤال فى الدين، ناهيك عن فترات كثيرة

كان يقضيها فى خلوته فى تلك الغرفة الصغيرة فى بيتهم، والتي كانت أقرب إلى واحة تحيط بها الملائكة على حد وصف أمى وأبلة صفية لها فى ذلك الوقت. وكان الشيخ يوسف يحدثهم عن التصوف ورواده من أول حسن البصرى ورابعة العدوية وابن عربى وجلال الدين الرومى وابن الفارض حتى الشيخ الشعراوى، وكيف كان هؤلاء مثلاً يحتذى للحب الإلهى والزهد وكيف ساروا على طريق الوصول إلى الله على نهج سيدنا النبى والصحابه الأبرار.

وقد كانت هذه الفترة تمثل مرحلة مهمة أثرت على أفكار أمى عن الدين وأنه باطنى وليس ظاهرياً، وأن العلاقة مع الله هى حالة خاصة ليس مسموحاً لأحد مناقشتها أو الحديث عنها.

هكذا كانت تحكى لى عن الشيخ يوسف قبل سفره وتحوله بعد ذلك حتى وصفته بأنه رجل متخلف بعد ذلك.

تغير الشيخ يوسف وأصبح أكثر تشدداً مما كان من قبل أم أن أمى هى التى لم تعد على سابق عهدا الصوفى قريبة من الله مثلما كانت؟

أعتقد أن الشيخ يوسف رجل طيب وعلى خلق، وجميعنا يحبه حتى أمى ولكنه ازداد غلواً بفعل تغير المجتمع وليس عن اقتناع كما كانت أمى تقول.

فكثيراً ما يقسو الصوفيون على أنفسهم عندما يشعرون بأن شيئاً ما يعكر صفو إيمانهم أو يجعلهم يبتعدون عن طريق السالكين.

كما أن فترة إقامته الطويلة فى السعودية جعلته أقرب إلى الفكر الوهابى المتشدد منه للصوفية التى بدأ بها.

كان الشيخ يوسف يمثل تلك الشعرة بين الصوفى والسلفى لا يقطعها إلا الصوفى الذى يقسو على نفسه إلى درجة التشدد فيهتم بالتفاصيل على حساب الجوهر، أو السلفى الذى يترك التفاصيل باحثاً عن الجوهر ليجد الطريق فلا تشغله القشور بحثاً وراء الحقيقة الإلهية.

وهكذا كان صراع الشيخ يوسف دائماً، فالشكليات تجعله يتكيف اجتماعياً وبشكل أفضل يضيف عليه هالة من الإيمان يهابها كل مريدوه وأصدقائه وجيرانه.

ولكنه يرى فى خلوته مع الله ما هو أعمق وأكثر تقرباً ووصولاً للحقيقة بشكل يجعل الشكليات والتفاصيل موضوعات ثانوية لا ترتقى لمعنى الدين الحقيقى والفلسفى.

فكثيراً ما كان يركز خطبة الجمعة على غرس مفهوم السمو والارتقاء بالروح والنفس فوق الغرائز والدنایا..

وفى نفس الخطبة يعود مرة أخرى ويتحدث عن حديث الشيخ ابن باز الذى عاصره بالسعودية عن عذاب القبر وفريضة إطلاق اللحية وأهمية السواك.. ثم ينهر بعض الشباب الذين جاءوا يسألونه هل يجوز دخول الخلاء بالقدم اليمنى وكيفية الاستنجاء أو ما شابه هذه الأشياء.. فكان ينهاهم عن تضييع أوقاتهم بالاهتمام بمثل هذه التفاصيل وسفاسف الأمور على حد تعبيره وأن يبحثوا عن هذه الأشياء فى كتب الشيخ سيد سابق إن أرادوا أن يتعرفوا على هذه التفاصيل، رغم أنه هو من تحدث عن مثل هذه الأشياء منذ قليل.

الشيخ يوسف يخاف على الإسلام مثله مثل كل المتشددین، دائماً ينظرون إلى الدين على أنه يواجه خطراً دائماً ولا بد من حمايته وتحصينه ضد المؤثرات الوافدة عليه كالموسيقا والسينما والفلسفة التى

قد تؤثر على الشباب وتهز عقيدتهم، ولم يفهم هؤلاء أن للدين ربًّا يحميه (إننا نحن نزلنا الذكر وإننا له لحافظون) هذا ما كان الشيخ يوسف نفسه يقوله عندما تغلب صوفيته على غرائزه.

والغرائز وإن كانت تصيبنا جميعًا إلا أن استجاباتنا لها دائمًا ما تكون مختلفة، فلماذا نفترض أن الشباب المسلم ضعيف الإيمان دائمًا وأنه سوف ينظر إلى شعر المرأة بطريقة شهوانية وأن علاج ذلك لن يكون إلا بارتدائها الحجاب. لماذا لا نفترض أن هناك فضيلة يجب أن يتعلمها هذا الشاب تسمى غض البصر تقيه من السقوط في براثن الشهوة.

كان الشيخ يوسف دائمًا يؤمن على كلامي بأنه صحيح فيما قلت، ولكنه أيضًا يحدثني عن أن درء المفسد مقدم على جلب المنافع اتقاءً للشبهات فلم أكن أقنع وكان دائمًا يقول لى:

- انت طالع لسناء دماغك ناشفة.

فكنت أرد عليه بفخر بأنى أعمل عقلى مثلما أمرنا الله، هكذا علمتنى أمى يا شيخ.

فكان يربت على كتنى مؤمنًا على كلامى ويقول:

- أنت مختلف عن الآخرين.. ولكن ماذا يحدث مع من لا يعملون عقولهم ولا بد أن نصب لهم المعلومة كما يصب الشاي فى الفجان.. ليت أصابع اليد كلها متشابهة يا مولانا.

كنت أحب لقب مولانا الذى يقوله الشيخ يوسف دائمًا لكل الناس، فهو لقب من الثقافة الصوفية وإن كان قد تعلمه من الأستاذ العقاد رحمه الله

عندما كان يحضر جلساته مع صفوة من الشباب والمتقنين الذين تحدث عنهم أنيس منصور في كتابه "في صالون العقاد كانت لنا أيام" .. حيث كان هذا الكتاب هو أول خطواتي نحو المعرفة التي تذخر بها مكتبة الشيخ يوسف العامرة بكل صنوف الثقافة وليس الدينية فحسب.

(٧) السيناتور

كان السيناتور ويليام يجلس مع ممولى حملته الانتخابية الذين كانوا يمثلون شركات صناعة السلاح الأمريكية الكبرى، كان السيناتور مهمومًا من اللقاءات التى تجرى بين ريجان وجورباتشوف التى قد تنهى مرحلة أربعين عامًا من الحرب الباردة كان الاتحاد السوفيتى فيها هو العدو اللدود الذى يجب على أمريكا والعالم الحر محاربته حتى لا يتمكن من نشر أفكاره الفاشية الشيوعية فى العالم.

ولما كانت الحرب بين البلدين هى حرب باردة لا تستخدم فيها الأسلحة.. إلا أن السلاح الأمريكى كان دائمًا ما يجد طريقه إلى أيدي جنود الحرية فى كل دول العالم الحر الصديقة لكى تتمكن من محاربة دول المعسكر الشرقى كحروب بالوكالة، كان أصدقاء السيناتور وممولو حملته الانتخابية يبيعون فيها أسلحتهم بمئات المليارات من الدولارات.

فعندما تجد عدوك تنتعش تجارة السلاح التى تدر المليارات.. هذا هو مبدأ العم سام فى أعقاب الحرب العالمية الثانية. والعدو واضح وصريح: كل من يناصر الشيوعية أو الأفكار الاشتراكية وكل من يقف ضد الرأسمالية الغربية.

لذلك وجد أصدقاء السيناتور ويليام طريقًا لبيع أسلحتهم فى العديد من دول العالم: إسرائيل، إيران، العراق، دول الخليج، مصر بعد كامب ديفيد.. وأمريكا نفسها فى حربها فى فيتنام.

وفى أفريقيا استخدم السلاح الأمريكى فى إثيوبيا وأنجولا وليبيا وزائير قبل موبوتو.

وفى أمريكا الجنوبية ضد نيكارا جوا وتشيلي عندما ساعدت بنوشيه ضد الليندى.

هكذا انتعشت الخزانة الأمريكية بفعل الرواج الذى لحق بمصانع الأسلحة الأمريكية بسبب حروب الوكالة تلك التى كانت فى أغلبها فى صالح المعسكر الرأسمالى.

حتى أقدمت روسيا نفسها على احتلال أفغانستان جارتها الجنوبية لتأمين نفوذها فى منطقة آسيا الوسطى وحتى تكون مدخلاً إستراتيجياً لها إلى بترول الشرق الأوسط فى إيران ودول الخليج.. إلا أن الدخول الروسى إلى أفغانستان كان يهدد وبشكل مباشر النفوذ الأمريكى فى المنطقة خصوصاً بعد أن فقدت أمريكا حليفها الرئيسى فى المنطقة شاه إيران بعد سقوطه أمام ثورة الخمينى الإسلامية، فى نفس العام الذى أقدمت فيه روسيا على احتلال أفغانستان.

لذلك كان السيناتور مهموماً فى ذلك اليوم عندما أخبره ممثلو شركات السلاح عن خطورة الموقف المتوقع من سياسة البيت الأبيض الرامية إلى التصالح مع جوراتشوف وإنهاء الحرب الباردة والسكوت على احتلاله لأفغانستان بما يهدد صناعة السلاح فى المرحلة المقبلة ويهددها بالكساد وهو سوف يستتبع بالضرورة عدم التمكن من تمويل حملته الانتخابية القادمة أمام عدوه اللدود من الحزب الديمقراطى.

تركهم السيناتور وأخذ يدخل سيجاره الكوبى بمنتهى القلق على مستقبله السياسى من ناحية، وعلى مشروعه السياسى الذى ظل يجاهد من أجله منذ تخرجه من جامعة هارفارد، من ناحية ثانية.

كيف ينتصر الغرب على الشيوعية ويقضى على أفكار ماركس ولينين إلى الأبد، مستلهماً أفكاره من روح روزفلت وكيندى اللذين تربى

على قيادتهما للمعسكر الغربى فى حربہ الباردة ضد الروس والتى حققا فيها نصرًا أمريكيًا عظيمًا توج القرن العشرين وجعله قرنا أمريكيًا باقتدار.

فكيف لهذا النصر أن يذهب أدراج الرياح بمعاهدة سلام يضيع بعدها النصر الأمريكى ويصبح الأمريكان الأحرار فى غفلة من الزمان أصدقاء لهؤلاء الفاشيست.

لم ينس السيناتور وهو يتأمل شريط ذكرياته تلك السنة الكبيسة التى قضاها ضابطًا فى الجيش الأمريكى الذى كان مقدراً له أن يقضى على الشيوعية فى حرب فيتنام ولم تأت رياحه بما تشتهى سفنه التى تداعت وانهارت على صخرة المقاتلين الفيتناميين الذين برعوا فى حرب العصابات ضد القوات الأمريكية النظامية التى لم تكن قادرة على مجاراتهم، ونالت هزيمة مروعة فى بداية السبعينيات عاد على إثرها السيناتور الذى كان وقتها ضابطًا بالجيش الأمريكى يجر أذيال الخيبة، بعد أن لطخت سمعة الأمريكيين بالعار فى هذه الحرب المذلة.

أقل من عشر سنوات مرت على انتهاء هذه الحرب وتأتيه الفرصة من جديد للثأر من هذا العدو الذى أذله فى فيتنام.

الدب الروسى يدخل بإرادته الحرة إلى نفس المصيدة وفى نفس الظروف وإن اختلفت ساحة المعركة.

لا بد لنا من حل للثأر والتشفى ومحو عار هزيمتنا فى فيتنام. لا بد من انتهاز الفرصة.

كيف لنا أن نسكت على احتلالهم لأفغانستان وضربهم لنفوذنا فى هذه المنطقة المهمة من العالم. لا بد من حل نستعيد به قوتنا ونفوذنا قبل

أن يضحك علينا جورباتشوف.. هذا الرجل خطير جداً كيف استطاع أن يقع قادتنا برغبته فى التفاهم مع الغرب؟ ترى هل تحبه تاتشر كما يقولون؟ هل له هذا التأثير على ريجان إلى هذا الحد؟ كيف استطاع أن يكون نذاً لأمريكا رغم تخلف بلاده واقتصادها المنهار؟ لقد لعبها جيداً قبل أن تأتى الجولة الأخيرة قبل أن يتلقى ضربة قاضية نظر لخصمه فى ود واحتضنه حتى لا يمكنه من تسديد اللكمة القاتلة.

ألم يفكر هؤلاء الجالسون على مقاعدهم الوثيرة فى البيت الأبيض ولو للحظة واحدة.. ماذا لو تمت هذه المصالحة ما تأثيرها على أمريكا ونفوذها فى العالم مع من سنتنافس.. من سيكون عدونا.. هل سنبحث عن عدو آخر.. من سيكون هذا العدو؟ ولا بد ألا يقل بأى حال من الأحوال عن الاتحاد السوفيتى.

هل يوجد بلد على وجه الأرض يمكن أن تكون فى حجم روسيا أم أننا سنترك الأرض ونبدأ صراعاً قادمًا مع الكواكب الأخرى فى مجرتنا. لا بد من إيجاد حل.

لم يكن السيناتور يتخيل أن حل مشكلته سوف يأتيه فى صباح اليوم التالى فى تلك المكالمة التى جاءته من أبعد مكان على وجه الأرض يمكن تخيله. إنها المكالمة التى حملت له عبر الأثير صوت صديقه جاكى التى تعمل فى إحدى منظمات رعاية اللاجئين التابعة للأمم المتحدة كتغطية لعملها الحقيقى فى الـ CIA. والتى كانت تعرف تماماً ما يدور فى عقل السيناتور منذ أن كانت تعمل مديرة لحملة الانتخابية الأخيرة التى أدخلته الكونجرس.

- جاكى كيف حالك يا حبيبتي؟

- أهلاً بك يا سيناتور لقد اشتقت إليك كثيراً.

- أين أنت الآن؟

- أنا أحدثك من كابول.. منذ يومين كنا نشارك في معسكر للجرحى والمصابين من هجمات الروس الوحشية.

شعر السيناتور بغصة في حلقه لم تكن ناجمة عن تعاطفه مع الجرحى الأفغان بطبيعة الحال ولكنها ناتجة عن شعوره بالانتصار الروسى وأنهم بدأوا يفعلون ما يحلو لهم فى هذه المنطقة من العالم.

- سيناتور!

- نعم يا جاكى أنا معك.

- إنها فرصتك للتدخل يا سيناتور فكر جيداً لا تضيع الفرصة.

- أعرف ذلك يا جاكى ولكن كيف أفعل ذلك وريجان يلهث للصلح مع جورباتشوف؟!

- يا سيناتور لا بد من أن نفعل شيئاً لهؤلاء المستضعفين الأفغان.

- كيف يا جاكى؟

- صديقنا العربى.

- تقصدين...؟

ثم سكت السيناتور قليلاً وقال: حسن الزهار؟

كان السيناتور يعرف المهندس حسن الزهار عن طريق ابن أخيه نواف معين الزهار الذى يدرس علم النفس بجامعة كولومبيا وصديق

جاكى والذى جعلته يشارك فى حملة السيناتور الانتخابية وكان ينصح السيناتور دائماً بأن يقابل بعض الشخصيات الإسلامية المعتدلة من أجل الحصول على أصوات الأمريكيان العرب والمسلمين فى الولاية، كما تذكر ويليام نصيحته له بالحديث عن الأزهر ودوره فى محاربة الشيوعية والإلحاد.

وقتها دبر له نواف لقاء مع عمه حسن الزهار كممثل للإخوان المسلمين وتم ذلك اللقاء بحضور جاكى ونواف.

لمعت الفكرة فى رأس ويليام بمجرد أن أنهى مكالمته مع جاكى وتمنى عودتها سالمة إلى الوطن.

وانتشى كثيراً وهو يرشف رشقات من كأس النبيذ الذى صبه لنفسه قبل أن يغلق الخط ويضع السماعة على أذنه رغم انتهاء المكالمة مع جاكى.

حسن الزهار.. إنه دورك الذى كنت تنتظره كثيراً يا صديقى ولم أهتم بما قلته وقتها لانشغالى بالحملة الانتخابية.. نعم لقد آن الأوان لتتعاون ضد الغزو الروسى لأفغانستان كما حدثتني يومها عندما زرتني مع ابن أخيك الذى يحمل الجنسية الإسرائيلية.. عجباً حقاً لهذا العالم المجنون.

كيف لم أر هذا الكنز الغالى المتمثل فى المسلمين؟ كيف حاربناهم من قبل لنشر الديمقراطية والحداثة بل والعلمانية فى بلادهم؟ تباً لهذه العلمانية وهذا التحديث.. إنهم يملكون السلاح الفعال لقهر الروس.. إنه الإسلام الذى لا يرضى أبداً لوقوع بلد مسلم فى يد الروس الملاحدة الشيوعيين.

إنهم من سوف ينقذنا من هذا المأزق الذى يحاصر أمريكا. هل يكون
مقدراً لهؤلاء أن يمحوا عارنا فى فيتنام بتكرار نفس السيناريو فى
أفغانستان وإلحاق الهزيمة بالروس الكفرة كما يحلو لهم دائماً وصفهم؟!

(٨) هيلجا

كانت تلك الفتاة الألمانية وسيلتى الوحيدة للإعلان عن وصولى إلى مرحلة البلوغ. اشترت التذكرة المكتوب عليها اسم هيلجا ديتريش البالغة من العمر ستة عشر عامًا وبدأت إرسالها منذ ذلك اليوم، طبقاً لمقتضيات نظام المراسلة وهو النظام الوحيد المتاح فى ذلك العصر من منظومة التواصل الاجتماعى.

كنت أستشعر الفخر فى عيون زملائى فى الفصل وهم يطالعون معى صورة هيلجا مرتدية بلوزة حمراء وتتورق زرقاء قصيرة.. أظهرت بياض فخذيهما بالدرجة التى ألهمت مشاعر كل من شاهد الصورة والذين كانت اهتماماتهم فى تلك المرحلة تنصب على معاكسة قتيات مدرسة القبة الثانوية بنات التى تحتل الناصية فى آخر الشارع الذى تقبع فيه مدرستنا، أو مشاهدة الصور الجنسية التى كانت توزع بين المراهقين فى تلك المرحلة، أو التجمع عند أحد الزملاء من مالكى الفيديو لمشاهدة فيلم كيميا كما كان يطلق وقتها على أفلام البورنو وذلك بالطبع أثناء غياب والديه أو نقل الجهاز والفيلم إلى منزل خال من السكان لمدة لا تزيد عن ساعة نتمكن خلالها من مشاهدة بعض اللقطات من ممارسة الجنس الذى يمثل فى مجتمعنا فى هذه السن بالذات قدس الأقداس الذى لا يمكن بلوغه إلا فى سرية تامة يحيطها الخوف من الفضيحة وسوء العاقبة.

هذا ما جعل مجتمعنا يحظى بخصوصية كبرى وهى تفردته بإثبات نظريات فرويد النفسية التى تفسر السلوك الإنسانى من الميلاد وحتى الشيخوخة من منظور جنسى وهذا ما أثار فى نفسى تساؤلاً غريباً: ماذا لو كان فرويد عربياً؟ أعتقد أنه لم يكن ليصل إلى هذه المنزلة الكبرى

فى علم النفس حيث إن الجنس فى مجتمعنا هو فعلاً ما يفسر السلوك الإنسانى فما الجديد الذى كان من الممكن أن يطرحه!

ثم إنه وطبقاً للتأليل الفرويدى لنشوء ظاهرة الحجاب والنقاب فى مجتمعنا نجد أن الرجل المسلم دائماً ما تحاصره الشهوات من كل جانب وخصوصاً شهوة الجنس لأنه محروم منها طيلة حياته فهى المتعة الحرام التى تترسخ فى ذهنه منذ البلوغ فتنشأ الفتى مفتوناً بالجنس يبحث عنه دائماً فى السر. ويصبح الحديث عن الجنس من الموضوعات المثيرة للخلج حتى عند الآباء والأمهات أثناء حديثهم لأبنائهم وقت البلوغ، تماماً مثلما فعل أبى وقت أن حدثنى عن الموضوع بشىء من الاقتضاب عن التغيرات التى يمكن أن تحدث للشباب أثناء الاحتلام، وهو الحديث الذى تأخر عن موعده أكثر من عام حيث قد كنتُ فى ذلك الوقت قد جربت الاحتلام والاستمناء ومشاهدة الأفلام.

كذلك كان الخجل سيد الموقف عندما دخل علينا الأستاذ سيد مدرس العلوم فى المدرسة بدلاً من أبله سلوى مدرسة المادة الأصلية حتى يشرح لنا درس التكاثر عند الإنسان بدلاً منها والذى أدى إلى تحول الفصل المعروف عنه التمرد والصخب إلى الإنصات الكامل لما يقوله الأستاذ سيد فى شرحه لصورة الجهاز التناسلى الذكرى والأنثوى، وهى لحظات من الصمت لم يشهداها الفصل فى تاريخه.

المهم كانت المراسلة التى عرضها على أحد الزملاء والذى كان يبيع لنا عنوان الفتاة فى أى دولة أوروبية بخمسة جنيهات كانت تمثل مبلغاً كبيراً فى ذلك الوقت.. فدفعت المبلغ صاغراً حتى أحصل على هذا الكنز الذى لم يقدره زميلى حق قدره، فكيف له أن يتخلى بمثل هذه البساطة عن صداقة فتاة أوروبية بيضاء حتى وإن كانت بالمراسلة!

استجمعت كل ما أملك من المفردات الإنجليزية التي أعرفها والمتاحة لشباب مصرى نشأ وترعرع على التعليم الحكومى الذى يتعامل مع اللغات بطريقة تختلف تمامًا عن دارسى المدارس الخاصة.

فبينما هم يتعلمون كيف يفكرون باللغة الأجنبية كنا نحن نتعلم كيف نفكر بالعربية ثم نترجم بعد ذلك بما يجعلك تتحدث بطريقة أشبه بأصحاب الإعاقة وهو بالطبع ما يثير تنذر الجنسيات الأخرى عندما يقيّمون طريقة المصريين فى نطق اللغات.

المهم أننى تمكنت بصعوبة من كتابة الخطاب وأرسلت الخطاب بالبريد إلى هيلجا. جاءنى الرد بعد أسبوعين فقط قالت هيلجا أنها سعيدة بمراسلتى وأنها تود أن أرسل لها صورة لى فى الرسالة القادمة كما ذكرت بعض المجاملات المعتادة التى يقولها الأجانب لنا نحن المصريين دائماً: نحن نحب مصر كثيراً.. أتمنى مشاهدة الأهرام والنيل والجمال...

كنت فى هذه الفترة قد بدأت رحلتى مع القراءة فكانت مجلة الشباب هى الوسيلة الوحيدة التى شهدت بداية رحلة تكوينى الثقافى.. وخصوصاً مقالات محمود السعدنى (حمار من الشرق). تمنيت أن تصل علاقتى بهيلجا إلى المرحلة التى يتحدث عنها والتى قابل فيها فتاته الفرنسية فى أوروبا.

المهم أن تكون لى صديقة أخرج معها ويشاهدنى الجميع وأنا أسير برفقتها.. ولكنى بدأت أرى الموضوع بشكل مغاير عندما بدأ السعدنى يسرد أن فتاته تجرى أبحاثاً عن تطور الجنس البشرى فى العالم الثالث وأنها تريد أن تتجب منه طفلاً لهذا الغرض ليس إلا.

فترسخت فى ذهنى فكرة الهوة السحيقة بيننا جميعاً كحميز من

الشرق وبين من يسكنون على الجانب الآخر من البحر.

كانت هيلجا بالنسبة لى هى فتاة محمود السعدنى أو فتاة توفيق الحكيم أو الطبيب الصالح.

محاولة للتفسير المتبادل لهذه العلاقة الشاذة بين الشرق والغرب نحن حمير الشرق لماذا حتى لا نقتررب منهم؟ ما هى الأسباب الخفية التى تزيد من تحضرهم وتزيد بنفس القدر من تأخرنا؟ لماذا هم دائماً أفضل وأرقى؟ لماذا يبرعون فى كل شىء: الصناعة، التجارة، الزراعة، الفن، الرياضة.. لماذا لا يتركون لنا شيئاً نبرع فيه؟

ما تفسير علم النفس لذلك؟ هل هناك فرق بيولوجى مثلاً؟ هل تؤمن هيلجا بنظرية الجنس الآرى؟

هل هى درجة الحرارة هم يعيشون فى أجواء باردة تحثهم على العمل والنشاط ونحن نرتخى ونصاب بالكسل مع درجات الحرارة المرتفعة عندنا.. مع أنه لا يحدث لنا أى تغيير فى فصل الشتاء؟!

هل هو الدين وتفسيره لكل شىء فى مجتمعنا بينما هم تحرروا من سطوته فى القرون الوسطى وبدأو عصر النهضة من ذلك الوقت؟

هل يمكن للدين أن يعوق نهضة المجتمع.. كيف؟ وهل نحن متدينون فعلاً؟!

هل سلطة الكنيسة فى القرون الوسطى تعادل سلطة الأزهر عندنا الآن أو سلطة الجماعات الإسلامية؟

المفروض أن المتدين هو شخص إيجابى مجتهد يتقن عمله ويراعى

ضميره كما أمرنا الدين.

هيلجا ملحدة لم تحدثنى عن الدين، استغربت بشدة عندما سألتها:
كيف يكون أحد ملحدًا لا يؤمن بوجود الله.

(٩) جسر بروكلين

كان السيناتور يسير فوق جسر بروكلين متأبطاً ذراع صديقه جولدلمان.. يرتديان معطفين من الفراء الغالى بما يتناسب مع برودة شتاء نيويورك.

يتحدثان بصوت خفيض لا يسمعه غيرهما عن موضوعات مشتركة لا تزال عالقة بجدار الذاكرة المهدم.

كيف نشأت العلاقة بينهما؟ إبان الحرب العالمية الثانية عندما كانا جنديين اشتركا معاً فى صد الهجوم اليابانى عن بيرل هاربور فى عام ٤١ ثم بعدها بأربع سنوات كان كل منهما يفتح مظلاته إيداًئاً بنزولهما كأول جنديين يصلان إلى نورماندى معلنين عن بدء انتصار دول الحلفاء، بزعامة أمريكا، على دول المحور.

حصلاً على أنواط عسكرية تقديراً لانتصارهما فى الحرب.. ومع بداية العصر الأمريكى دخل السيناتور عالم السياسة وتدرج فى المناصب داخل الحزب الجمهورى حتى أصبح مرشحاً وهو فى الثلاثينيات من عمره عن ولاية فرجينيا، وعندما دخل الكونجرس فى منتصف الخمسينيات كان لا يزال على اتصال بصديقه الحميم ديفيد جولدلمان الذى التحق بعد تركه الخدمة العسكرية بالمخابرات الأمريكية CIA بعد رحلة صعوده الكبرى هو الآخر.

ومع الاختلافات الجوهرية التى تقف بين الرجلين كاختلاف الطبقة الاجتماعية التى هى فى صالح السيناتور لانحداره من عائلة أمريكية عريقة فى مقابل النشأة المتواضعة لجولدلمان الذى كان أبوه يعمل نجاراً. كذلك كان الاختلاف الدينى بين السيناتور الذى ينتمى لطائفة

الإنجيليين البروتستانت وجولدمان اليهودى الأرثوذكسى.

كل هذا كان يمثل نقاط تنافر بين الرجلين إلا أن اختلافهما سار مع قانون التجاذب بين قطبين مختلفين كما هى الحقيقة الفيزيائية.

ومع أول عملية تعاون بينهما توطدت الصداقة حتى أصبح لهما دور مؤثر فى مجريات السياسة الأمريكية، وقد ساهم هذا التعاون فى صناعة مصطلح المكارثية الذى كان صاحبه السيناتور مكارثى ملهماً للسيناتور الصغير وقتها لدرجة أنه اعتبره مثلاً أعلى. فقد كان السيناتور مكارثى يكره كل من يعارض الرئيس ترومان ويتهمه بالعمالة للاتحاد السوفيتى وبمساعدة السيناتور ويليام وصديقه جولدمان انتشر المصطلح وأصبح فزاعة لكل من تسول له نفسه معارضة الرئيس.

فقد كان ويليام يتعاون مع السيناتور مكارثى فى حصر الشخصيات والأسماء العامة التى تقف موقفاً معادياً لسياسات الرئيس، وكان يبلغ الأسماء لصديقه الذى يعمل بالـ CIA فكان لجولدمان طريقته المثلثى فى التشهير بهذه الشخصيات عن طريق تسريب معلومات غير صحيحة عن هؤلاء لبعض الصحفيين الموالين له. فيصبح الليبرالى الذى يدافع عن حقوق الناس، مثلاً، عميلاً شيوعياً يقبض أموالاً من الكرملين.

بعدها بعدة سنوات وتحديداً فى أعقاب حرب يونيو ٦٧ كان قانون العداء للسامية جاهزاً فى مكتب السيناتور لكل من تسول له نفسه مهاجمة إسرائيل بعد احتلالها القدس والأراضى العربية.

بعدها بسنوات سافر ويليام وجولدمان فى مهمة سرية لدعم القوات الأمريكية المحاربة فى فيتنام. وها هى السنوات تجمع بين الصديقين مرة أخرى، إنها الحرب فى أفغانستان:

- الموضوع شائك هذه المرة يا جولدمان لا بد لنا من إيجاد حل..
ريجان يلهث لعقد اتفاق مذل مع جورباتشوف فى الوقت الذى تتوغل
فيه القوات الروسية فى أفغانستان لضرب منطقة نفوذنا فى منطقة
الشرق الأدنى ناهيك عن مارجريت تاتشر التى يقال إنها تحبه.

- تقصد ريجان؟!

- جولدمان.. لا تعبت معى أنت تعرف من أقصد.

- نعم أعرف هى معلومة غير دقيقة.

- ولكن الكثير من السياسيين يخوضون فيها باعتبارها حقيقة مؤكدة..
لقد استطاع هذا الرجل أن يؤثر على قادة المعسكر الغربى ويخدعهم
باتفاقية تافهة بينما هو يتوغل لضرب نفوذنا فى وسط آسيا مقترباً من
منابع البترول.

- لا تقلق يا سيناتور الحل موجود.

- كيف يا جولدمان كيف؟

- قريباً يا سيناتور لا تقلق...

(١٠) صديقى

كانت الكتب الإخوانية التى تتضمن أفكار حسن البنا وسيد قطب هى الوسيلة التى لجأ إليها الشيخ يوسف ليمد بها حازم وينصحه دائماً بقراءتها، فكانت هذه الكتب بديلاً محصناً له من الانحراف الفكرى، من وجهة نظر الشيخ يوسف، المتوقع فى مثل هذه السن كبديل موضوعى يحول بينه وبين قراءة روايات نجيب محفوظ أو إحسان عبدالقدوس. هذا على الرغم من أن مجموعتهما الكاملة تحتل موقعاً بارزاً فى مكتبة الشيخ يوسف، إلا أنه وكما يقول دائماً أن درء المفسد مقدم على جلب المنافع كما أن حازم نفسه وجد متعته فى الغوص داخل هذه الكتب التى تضع للشباب المسلم منهجاً ومنهجاً يسير عليه يحثه على إصلاح نفسه قبل إصلاح المجتمع.. ابدأ بنفسك.. زكّ نفسك بالصلاة والالتزام والبعد عن فعل المنكرات، وهو ما جعل حازم ينشد هذا الكمال الذى هو أهل له بفعل النشأة المحافظة القديمة التى رباه عليها والداه حتى يصبح مؤهلاً وبكل عزم لى يصبح من أحد العشرة الذين يظلمهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله.

لقد استغل الإخوان الطبيعة البشرية الطامحة دائماً للإيمان والتطهر وهى الرسالة التى بلغ بها الرسول الكريم وسائر الأنبياء من قبله.. إنها فطرة الله التى فطر الناس عليها وهى لم تكن بطبيعة الحال فكرة جديدة استحدثها حسن البنا أو سيد قطب.

لكن حازم الذى نشأ محباً لمسلسلات "على هامش السيرة" وأفلام مثل "فجر الإسلام" و"الشيماء"، التى شملت بداية الدعوة المحمدية وما تبعها من انتصارات العصر الذهبى للخلفاء الراشدين ما جعله تواقاً دائماً للتمثل بالنموذج الإسلامى الذى كان ملهماً لطفولته ومرافقه التى

ميزها ميل غريزى نحو الألعاب القتالية.

لم يكن يهتم بزيارة المتحف المصرى ومشاهدة الآثار أو الأهرامات وإنما كان دائماً يميل إلى الذهاب مع والده الشيخ يوسف لزيارة الأضرحة ومساجد الأولياء، ذلك رغم انتقاد بعض الملتحين للشيخ يوسف على ذلك باعتباره بدعة وضلالة إلا أنه كان لا يطيق بعداً عن زيارة أهل البيت والتبرك بهم، وهو ما يعبر عن منزلة خاصة لهم فى تكوينه الفطرى.

أما حازم فكان على خلاف أبيه يذهب لاستحضار عظمة عصور المد الإسلامى أكثر منه تقرباً وحباً لأهل البيت.

كنا نتجادل كثيراً حول فترات الخلافة الإسلامية التى لم تكن راشدة فى كل الأوقات وإنما كانت تمر بمنحنيات بين قمة التوهج إبان فترة حكم الخلفاء الأربعة الذين مات منهم ثلاثة بالقتل إلى باقى عهود الخلافة التى بدأت بالفتنة الكبرى وانتهت برجل أوروبا المريض الذى أنهى أتاتورك حياته برصاصة الرحمة.

لم يكن يعجبه كلامى لأنه كا مغرمًا بالشخصيات التاريخية الإسلامية كعمرو بن العاص مثلاً الذى لم يكن يعرف أنه بارز على بن أبى طالب بالسيف وكان حريصاً على قتله، كما لم يعرف أيضاً أنه كان سبباً مباشراً فى تأجيج نار الفتنة الكبرى.

فكان يرد على بأن الفتنة الكبرى سببها اليهود وأن سيدنا معاوية بن أبى سفيان غريم سيدنا على بن أبى طالب على حد وصفه أنه كان تقياً ورعاً يقوم الليل ويصوم الدهر.

ولكى يهدينى إلى السراط المستقيم أخذنى من يدى فى أحد الأيام بعد

صلاة العشاء للقاء الحاج مصطفى مشهور جارنا الذى كان مرشحاً ليصبح المرشد العام للإخوان المسلمين، الذى حدثنا بفخر عن جهاده فى فلسطين إبان نكبة ٤٨ والعملية المعروفة تاريخياً بحادثة السيارة الجيب التى كانت محملة بالأسلحة قبل أن يتم القبض عليه من قبل قوات الأمن. ولم يخبرنا بطبيعة الحال أن هذه الحادثة كانت سبباً فى كشف ما عرف بالتنظيم الخاص الذى كان مسئولاً عن بعض حوادث القتل التى ارتكبها الإخوان فى تلك الحقبة.

ثم حدثنا عن أهمية عودة الخلافة الإسلامية لاسترداد مجد الأمة الإسلامية الذى انهار بعد سقوط الخلافة على يد الكافر الزنديق مصطفى كمال أتاتورك الذى عزل آخر خلفاء الدولة العثمانية فى عام ١٩٢٤.

لم أتمكن من كبح جماح رغبة الاختلاف الداخلية فى التى ترفض هذا الكلام شكلاً وموضوعاً، فانطلقت الكلمات من لسانى على غير عادة من يحضرون مجلس الحاج مصطفى.

فقدت تحدثت عن أن الصراع من أجل الخلافة والحكم كان سبباً فى ما فعله معاوية بالحسين وما فعله ابنه يزيد من بعده.. كذلك لا ننسى ضرب الحجاج بن يوسف الثقفى المشهور بورعه وتقواه للكعبة بالمجانيق فى حربه الشعواء ضد عبدالله بن الزبير فى عهد الخليفة عبدالملك بن مروان.

ثم ما فعله العباس أول خلفاء الدولة العباسية من الذبح والتنكيل بالأمويين حتى سموه السفاح.

ثم المماليك الذين لم يكونوا أكثر من مرتزقة ثم العثمانيون الذين لم يكونوا أفضل من المماليك حتى وصلنا إلى السلطان عبدالمجيد الذى كان

عميلاً للإنجليز.

نهرنى حازم بنظرة غاضبة على مقاطعة الحاج مصطفى الذى استشاط وجهه غضباً حتى تدارك نفسه بعد فترة صمت قصيرة قبل أن يرد بهدوء:

- يا أبنائى إن الخلافة هى أمل هذه الأمة حتى نتمكن من تحرير بيت المقدس من اليهود أبناء القردة والخنازير لعنهم الله ولعن كل من هم على شاكلتهم، وإن شاء الله جيش محمد سوف يعود ويلقنهم درساً لن ينسوه جزاء ما يرتكبونه من أفعال قذرة ضد انتفاضة إخواننا الفلسطينيين العزل.

كانت هذه الكلمات كفيلة بسحب البساط من تحت قدمى تماماً لصالح فكرة الخلافة التى يروج لها الإخوان باعتبارها أمل الأمة المهزومة المقهورة لأنها ابتعدت عن طريق الله وأهملت شريعته.

وفى نهاية الجلسة قام الحاج مصطفى وسلم علىّ وابتسم لى موجهاً نظرة تشفٍ اخترقتنى حتى أصابتنى بالكامل ثم أهدانى كتاباً فى الاقتصاد الإسلامى بعد أن علم أننى سوف ألتحق بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية وربت على كتفى وسألنى:

- إنت بتصلى؟

وقبل أن أجيب بادرنى بنظرة حنان طالباً لى الهداية:

- ربنا يهديك.

(١١) نيويورك ٨٣

عندما وصل حسن الزهار إلى نيويورك أدرك معنى تلك اللفحة الباردة التي تلقاها في وجهه عندما مر من باب الطائرة. فقد كانت لفحة معاتبة له على كل ما قاله هو وزملاؤه من الجماعات الإسلامية أثناء دراسته الجامعية في أوائل السبعينيات عندما كان يسب الأمريكيان ويصفهم بالكفر لأنهم من زرعوا الكيان الفلسطيني في أرضنا.

سبحان مغير الأحوال الآن ترحب الولايات المتحدة بزيارته كصديق لم يحلم يوماً لا هو ولا زملاؤه سواء كانوا من الإخوان أو الجماعات الإسلامية أو حتى من باقى فصائل المقاومة الفلسطينية من أن يحصلوا على فيزا المرور لأمريكا فى حياتهم.

اليوم يأتى لزيارة أمريكا معززاً مكرماً، بل إن أمريكا هى التى تحتاج إلى خدماته لحماية متدينى العالم من الروس الملاحدة.

هكذا كان يظن عندما قابل السيناتور الذى كان فى هذه الفترة يخوض حرباً شعواء فى الكونجرس لزيادة المخصصات المالية التى سوف تدفعها أمريكا لتسليح المجاهدين العرب والأفغان حتى يتمكنوا من مقاومة الروس وطردهم خارج البلاد الإسلامية.

كيف يصمت العرب والمسلمون على ما يجرى فى أفغانستان.. كيف يسمحون للروس الملاحدة الذين يسبون الأنبياء والكتب المقدس أن يحتلوا بلداً مسلماً فتحه المسلمون الأوائل أيام ازدهار دولة الخلافة الإسلامية؟!

رد عليه حسن مستغرباً:

- ماذا تريد منا أن نفعل يا سيناتور!!؟

- الجيهاد يا مستر حسن من أجل حماية المسلمين.

- ولكنك تتحدث عن دولة عظمى يا سيناتور!

- نحن نعرف. لذلك نحن معكم، سوف نمدكم بكل ما يلزمكم من السلاح.

انفجرت أسارير حسن وقدم للسيناتور قائمة بالأسلحة والمعدات المطلوبة. كان قد أعدها قبل سفره تحسباً لطلبها من الجانب الأمريكى.

عبس ويليام عندما نظر إلى قائمة الأسلحة التى قدمها له حسن حيث كانت تحتاج إلى صرف ملايين الدولارات بما لا تحتمله الخزينة الأمريكية، وظن أن مهمته قد تكون مستحيلة لإقناع الكونجرس أو الرئيس ريجان بهذه المخصصات، خصوصاً بعد التقارب الذى بدأ يحدث بينه وبين جورباتشوف وعبث إنهاء الحرب الباردة وتفكيك الأسلحة النووية.

لم يرتح المهندس حسن لردة فعل السيناتور ولا لمعاونيه وخصوصاً ذلك الرجل السمين ذا النظرة الزائغة غير الودود الذى سلم عليه بطرف يده. دون إبداء الترحيب كما فعل الرجل الآخر الذى جلس على يسار السيناتور.

خرج حسن غير متفائل من نتيجة اللقاء والتى كان يعلق عليه آمالاً كبيرة، فعاد إلى الفندق منتظراً بجوار الهاتف على أحرّ من الجمر.

لم يكن حال السيناتور يختلف عنه كثيراً؛ فقد كانت اللحظة تجمع

كليهما على نفس الوسيلة وإن اختلف كل منهما فى الأهداف والغايات.

فالسيناتور يريد أن يثبت انتصار مشروعه السياسى الساحق على الشيوعية قبل أن تسفر المفاوضات بين ريجان وجورباتشوف على تسوية ما بين المعسكرين تنتهى على أثرها الحرب الباردة بالتعادل بلا منتصر ولا مهزوم.

بينما كان المهندس حسن يحلم بتكوين الدولة الجديدة فى أفغانستان بكل ما تحمله من أفكار تشربها فى شبابه من رسائل حسن البنا عن عودة الخلافة ومعالم طريق سيد قطب عن تكفير المجتمع وكتاب عبدالسلام فرج عن الفريضة الغائبة، لتحاكى هذه الخلافة الجديدة عصر الخلفاء الراشدين وهزيمة الفرس والروم أمامهم.

بعد خروج المهندس حسن لم يكن أمامه إلا أن ينظر إلى جولدمان مستفهماً فبادره ديفيد بقوله:

- لا داعى للقلق يا ويليام.

- كيف؟

اقترب منه جولدمان وحدثه بدهاء:

- لا تقلق سوف نرسل كل الأسلحة المطلوبة للمجاهدين.

نظر إليه ويليام باستغراب، فأكمل جولدمان كلامه:

- لن نرسل أسلحة أمريكية لأن هذا يجعلنا فى نفس الخندق مع المجاهدين فى مواجهة عسكرية مع الروس. وهذا طبعاً لن يوافق عليه الكونجرس ولا الرئيس.

- إذن ماذا سنفعل؟

- هناك أصدقاء لنا في مصر وإسرائيل يريدون التخلص من بعض الأسلحة القديمة وبقايا الحروب.

- تقصد شراء أسلحة غير أمريكية للمجاهدين؟

- ليس هذا فحسب بل سوف نشترى أسلحة روسية لهذا الغرض.

نظر ويليام إليه معجباً بدهائه الشديد، وقال:

- وماذا عن تمويل هذه العملية؟

- لا تقلق يا سيناتور هنا أهمية دور الإسلام فالسعودية على استعداد كامل لتحمل نفقات هذه الأسلحة.

خلال هذا الشهر كان فريق العمل الذي كونه السيناتور لإتمام هذه العملية قد نجح في الحصول على الكميات المطلوبة من الأسلحة من الكلاشينكوف ومدافع الهاون ومضادات الدبابات، وتم إدراج بعض القطع من مدفع ستينجر الأمريكي لاصطياد طائرات الهليكوبتر الروسية.

(١٢) كلية الإعلام

كان من المتوقع جدًا حصول أمل على الثانوية العامة وهو ما أهلها لدخول كلية الإعلام التي كانت تتمناها. كانت دائمًا تقول أن أهلها في فلسطين في حاجة دائمة لمن يتحدث عنهم ويستمع لشكواهم ومعاناتهم مع المحتل الإسرائيلي الغاصب، وأن الإعلام وإن كان قد بدأ في تسليط الضوء على أطفال الحجارة فإن ذلك يعود إلى الشجاعة والبطولة غير المسبوقة التي قام بها الشعب الفلسطيني الباسل في وجه المحتل، ويجب أن يقوم الإعلام بدوره في كشف الجرائم التي ترتكبها دولة إسرائيل.

كانت أمل تحلم بأن تكون مراسلة صحفية تعمل من داخل الأراضي المحتلة لتنتقل للعالم ما يدور في هذه البلد المنكوب بفعل قدره الجغرافي والميثولوجي.

كانت تختلف دائمًا مع المهندس حسن في المرات القليلة التي كان يأتي فيها إلى المنزل عندما عرف أنها تريد أن تدرس الإعلام.. كان يريد أن تدرس الهندسة حتى تتمكن من إدارة أعماله في المستقبل بعد عمر طويل. كان يأكله القلق على مستقبل شركته إلا أنه وأمام إصرار ابنته الوحيدة تكسرت رغبته على صخور عنادها فهي طفلة المدللة التي لم يتمكن من أن يجبرها على شيء منذ نعومة أظفارها.

لم يكن الأب فقط هو من يعترض على دخولها كلية الإعلام بل كانت الأم أيضًا، منذ سنتين هي الأخرى تحاول إقناع أمل بدخول كلية الطب بل وطب الأسنان على وجه الخصوص حتى تراث اسم أمها وعيادتها في أن.

لم تجد أمل وقتها جدوى من مناقشة الأم مثلما فعلت تمامًا مع أبيها،

فالموضوع بالنسبة لها لم يكن اختيار كلية أو نوع دراسة سوف تختارها بسبب مجموعها الكبير الذى حصلت عليه.. إنما كان الحلم الذى ينمو فى وجدانها منذ بداية التلقى عندما شعرت بخصوصية وضعها بين زميلاتها فى المدرسة أو حتى مع الجيران، فالبرغم من أنها مصرية وأمها مصرية إلا أنها لم تتمكن من استخراج بطاقة هوية مصرية عندما أخبرها الموظف أنها لا تحمل الجنسية المصرية كما يقول جواز السفر الأردنى الذى تحمله والذى لا تنتمى إليه كهوية حقيقية، إنه مجرد ترتيبات سياسية أُلقت بظلالها على المنطقة لتشكل حدوداً وهويات ما أنزل الله بها من سلطان.

لم تشعر بأرذنتها عندما عاشت فى الأردن كما لم تشعر بمصريتها عندما عاشت فى مصر، كانت دائماً غريبة لاجئة نازحة لم تشعر بفرق بين المسميات لكنها كانت تحن إلى التوضؤ بشعاع شمس الوطن، إنها تلك المدينة الجميلة رام الله، تلك المدينة التى لم ينفك والدها سرد خيوط ذكرياته الممتدة إليها قبل أن يتركها مضطراً بعد أن احتلتها إسرائيل.

كان ما زال يذكر حبيبته هند التى اختار أبواها البقاء رغم الاحتلال.. كانت داهه عزيزة تذكر لها كيف ودع أبوها هند بقبلة سريعة على جبينها مبللة بدموع الفراق.

لم يكن يخطر بباله يومها أنه سيكون واحداً ممن يتهمون عرب إسرائيل بالخيانة لأنهم كانوا يعيشون جنباً إلى جنب مع الإسرائيليين.

نظرة من بعيد وهو على ظهر تلك الباكسة تحمل صورة فلسطين وهى تصغر كلما مخرت السفينة وسط أمواج الغربة حتى تلاشت تماماً وتصبح نقطة محفورة فى الذاكرة هى كل ما يحمله من ذكرى الوطن. والتى استعاض عنها بمحاولة خلق وطن بديل بل وأوطان بديلة بدأت

بالأردن ثم السعودية ثم مصر وأخيراً أفغانستان حلم الدولة الجديدة التى
ستمحو عار تخليه عن رام الله، تماماً كما كان اليهود يحلمون بأرض
الميعاد.

هل تكون أفغانستان هى أرض الميعاد التى يبعث منها الدين من
جديد لكى يسود العالم؟

هل نسى حبه الأول لهند عندما تزوج الدكتورة سوسن؟ هل وجد
فيها ما يعوضه عن حبه الأول، عن ذكرياته البريئة، عن قلبته الأولى،
عن ركضه وراءها عبر السهول الخضراء ثم ارتماؤها فى أحضانها
معلنة عدم قدرتها على المقاومة؟

لقد كانت نظرتها له من نفس المكان نظرة محيرة لم يفهم كنهها هل
كانت تعنى الوداع أم المعاتبة على تركها، أم تلك النظرة فى عين المرأة
التي لا يفهمها إلا الرجل عندما يسقط من نظرها.. عندما يخفق فى
إثبات رجولته أمامها.. عندما يهرب من مواجهة عينيها.

كان يصحو من نومه دوماً على هذا الكابوس المعتاد.. أمواج البحر
تنزع سفينته من أحضان شاطئها، قلبه ما زال هناك.. هند تنظر له تلك
النظرة.

يشعر بالاختناق ونقص الهواء كلما خرجت السفينة تاركة المياه
الإقليمية لضفاف حبيبته...

تتصاعد أصوات المحركات فى رأسه.. يصحو من نومه مفزوعاً
على صرخات أمه:

- هيدى أرضنا كيف بدنا ندشرها ها ها ها.

(١٣) المثلث

تذكر السيناتور أيام شبابه الأولى كيف كان هذا الشاب الأنيق ممشوق القوام كلارك جيبيل، كيف كانت الفتيات تتهافت عليه كتهافت الفراشات على كوة تدخل شعاعًا خافتًا من الضوء من سقف حجرة مظلمة.

درس القانون في هارفارد كما نصحه أبوه: القانون يا ولدى هو الترمومتر الذي يقاس به تقدم البشر، بالقانون فقط تستطيع أن تقنع أى شخص بقدراتك العقلية الرهيبة.

أما أمه فقد ورث منها شعرها الذهبى المنسدل على كتفها فى انسيابية شلالات نياجرا، إلا أنها أضفت عليه شخصيتها المتدنية، التى كانت تحرص على حضور دروس الأحد بالكنيسة أسبوعيًا وهو ما أضفى على السيناتور تلك الهالة الهادئة التى تجعله أشبه بالقديس الوسيم حلو الكلام وصاحب المنطق.

تلك الصفات التى تحلى بها السيناتور فى شبابه هى ما ألقاها كيوبيد بسهمه الثاقب فى قلب هلين زميلته فى هارفارد، التى كانت تنتمى لعائلة ثرية تعمل فى مجال البترول فى ولاية تكساس.

كانت فتاة تسير على نمط الحلم الأمريكى تمامًا، ترتدى الملابس القصيرة التى تظهر جمال ساقها، تحب الرقص ومفتونة بالملك ألفيس بريسلى.

ولكن هذا لم يكن ما أعجب السيناتور فيها وإنما كان ويليام ينظر إلى عائلتها العريقة وثروتها الكبيرة التى تتناسب مع عراقة وثروة عائلته.

هنا يتحقق التوافق بين الأجناس والطبقات من وجهة نظره التي قد تبدو للبسطاء نظرة عنصرية بها الكثير من التعالي، ولكنها بالنسبة له هى سر هذه الحياة.. فالأسود ينبغى له أن يتزوج سوداء مثله والعامل الصينى لا يجب أن يفكر إلا فى عاملة صينية مثله، وكذلك الهنود والعرب واليهود... لا ينبغى لطبقة أو لجنس أن يختلطا سويًا؛ لذلك كان ويليام فى شبابه من أشد المناهضين لحقوق السود والأقليات وعندما دخل أول طالب أسود إلى جامعة هارفارد أعلن هو وبعض الطلبة اعتصامًا مفتوحًا حتى يتم إخراج هذا العبد على حد وصفه من هذه الجامعة العريقة التى بناها وأسسها أجداده البيض: فكيف نسمح بتلويثها الآن بهذه الأجناس الوضيعة.

كانت هذه كلماته بالضبط اثناء خطابه لزملائه فى الاعتصام، بينما كانت هلين تصفق له من كل قلبها ليس عن إيمان بما يقول فقد كانت أقل منه عنصرية بكثير، ولكن للصورة النمطية التى كان يجسدها للسياسى المفوه الذى يستطيع التأثير فى كل من حوله.. لقد آمنت به وأعدت نفسها لأن تكون زوجة السيناتور. وربما يضحك لها القدر لتسكن البيت الأبيض يومًا ما.

لذلك لم يتردد ويليام فى التقدم للزواج من هلين فورًا حتى وهو لا يزال طالبًا يدرس فى الجامعة، حيث وجد فيها شريكة الحياة التى تؤمن به وتدفعه للأمام، وفى نفس الوقت تحافظ على عرقه الأبيض النبيل وكذلك يمكن لها أن تدعّمه بثروتها وبذلك يضاعف أموال العائلة.. تلك النقطة الأخيرة هى الفاصلة فى مباركة أبيه وأمه لهذا الزواج.

وفى أحد الأيام أثناء تجوله فى الجامعة لمح شابًا نحيلًا من بعيد تغلب عليه الملامح الأيرلندية يحاول التودد لزوجته وهى ترد عليه بشيء من الإعجاب بطريقته المهذبة والساحرة مع السيدات، والتى كان

هذا الشاب يجيدها تمامًا. فما كان من ويليام إلا أن ذهب إليهما كثور هائج وقطع حديثهما وبينما همّت هلين بتقديم ديفيد لزوجها حتى فوجئت بالزوج الغيور النائر يلکم وجه ديفيد لكمة أمامية أطاحت به فوق مائدة كان يتكى عليها فتحطمت تحتہ وسقط ديفيد فاقدًا وعيه بين أنقاضها.

حاولت هلين تلطيف الأجواء وتباعد بين زوجها النائر وبين الشاب الملقى على الأرض وهى تحاول أن تؤكد له بأنه لم يحدث شىء يستدعى تصرفه الأحمق لقد كان يبدى إعجابه بأناقتها وطريقتها الساحرة فى اختيار الألوان فشكرته على ذلك ليس أكثر.

بينما كانت هلين تبالغ قليلاً فى وصفها لإطراء ديفيد لتذكر زوجها بأنه لم يفعل ذلك من قبل ولم يلفت نظره قبل ذلك فستان جديد أو قطعة مجوهرات أو تسريحة شعر، حاول بعض الطلبة إفاقة ديفيد بينما كانت هلين تحاول إبعاد زوجها الذى تلبسه وجه ثور هائج يحاول أن يفتك بماتادور ملقى على أرض حلبة ليس بها غيرهما.

نهض ديفيد بعد أن استرد وعيه بصعوبة من أثر اللكمة وحدث منه ردة فعل لم يتخيلها أحد الواقفين ولا حتى ويليام نفسه فقد ذهب ناحية ويليام الذى كان يكيل له السباب ومد يده إليه مصافحاً بعد أن نظر فى عينيه نظرة عميقة أحالت هياج ويليام إلى واحة صافية مياهها راكدة تمامًا:

- أنا أعترز لك يا سيد ويليام أننى لم أقدم نفسى إليك بالطريقة اللائقة التى تتناسب مع شاب مثقف وصاحب قضية وطنية مثلك.. لقد أعجبتنى وأثرت فى كثيرًا طريقتك فى الخطابة أثناء الاعتصام ضد دخول السود للجامعة.. أنا أكرر اعتذارى فلم يكن إطرأى على زوجتك إلا إعجابًا وتقديرًا لزوجها.

هنا هداً ويليام تماماً ومد يده فى ذهول ليصافح يد ديفيد الممدودة دون ابتسام وسط إعجاب الجميع، بمن فيهم هلين، ببراعة هذا الفتى فى الكلام.

منذ ذلك الحين غير ديفيد نظرة ويليام لفئة من الفئات التى كانت تخضع لقانون ويليام العنصرى فاستثنى اليهود من الأجناس التى لا يجب الاختلاط بها إكراماً لصديقه الجديد ديفيد جولدمان، وأصبح منذ ذلك اليوم لا يفترق لا هو ولا هلين عن ديفيد حتى عند زيارته للمعبد اليهودى أو عند زيارتهما للكنيسة أيام الأحد.

لقد أصبح الثلاثة فيما بعد مضرب الأمثال داخل أسوار هارفارد فى الصداقة والترابط مشكلين علاقة ثلاثية احتار الجميع فى تفسيرها، خصوصاً أنها بدأت بالكلمات ولكنها انتهت إلى صداقة لا يفرقها إلا ساعات النوم.

لقد أقنع ديفيد ويليام بأنه مشروع سياسى لا يقل براعة عن الرئيس روزفلت نفسه وأنه يجب أن يسلك فى دهايز السياسة بمجرد تخرجه من هارفارد، وأنه لن يدخر جهداً فى مساندته والوقوف بجانبه فى بداية الطريق بما يملكه من مهارات يشهد بها كل من حوله وأولهم ويليام وهلين، مثل ذكائه الشديد وقدراته الفذة على التواصل مع الناس ودهائه وحنكته السياسية التى اكتسبها طيلة سنوات نشأته الفقيرة فى الحى اليهودى فى بروكلين.

لقد كافح ديفيد كثيراً فى حياته حتى وصل باجتهاده وعلاقاته للحصول على منحة مجانية للدراسة بجامعة هارفارد أعرق جامعات العالم.

فكان ينبغي له بعد ذلك أن يبحث عن مؤمن له التمويل اللازم ليبدأ

مستقبله بعد هارفارد، ومن يمكنه أن يفعل ذلك أفضل من صديقه المليونير ويليام.

أما هيلين فقد حصلت من تلك العلاقة الثلاثية على كل ما كانت تحتاجه من الرجال بنظرتها السطحية للحياة كفتاة مدللة لم تعركها الحياة بالبصيرة والخبرة فكانت ترى ويليام الزوج الأرستقراطي سليل العائلة العريقة الثرية والذي يؤمن لها مستقبلًا لم تحلم بأفضل منه. أما ديفيد فكان بالنسبة لها الصديق الذي يمثل الصورة النمطية لشاب يدرك احتياجات الفتاة الأمريكية العابثة التي تريد أن تشرب وترقص في الحانات حتى تتمل وتمارس الجنس حتى الصباح. وهذا بالطبع ما كانت تفتقده في ويليام الشاب الوقور الهادئ والمحافظ على تصرفاته وأفعاله كأنه ولي عهد إنجلترا.

فكان ويليام بعد تخرجه من هارفارد والتحاقه بالعمل السياسى بالحزب الجمهورى كمرشح لمجلس المدينة.

ومن فرط مشاغله لم يكن يجد غضاضة فى أن يطلب من صديقه أن يصطحب زوجته ليراقصها فى إحدى الحانات ثم يوصلها إلى البيت آخر السهرة.

وفى إحدى هذه الليالى التى كان ويليام يحضر حفلاً كبيراً أقامه حاكم الولاية وكان الحفل يمتد للساعات الأولى من الفجر ولما كانت هيلين قد أفرطت فى الشراب كعادتها دون مراعاة لمركز زوجها الحساس. لم يتمكن ويليام من ترك الحفل لاصطحابها للبيت وطلب من صديقه أن يفعل ذلك.

عندما وصلا إلى باب البيت طلبت منه أن يصطحبها للداخل لأنها لم تعد تقوى على المشى من تأثير الإفراط فى الثمالة، فاصطحبها ديفيد

حتى غرفة النوم وعندما هم بالانصراف فوجئ بها تتعلق برقبتهم وتحاول تقبيله فما كان منه وهو تحت تأثير الشراب أيضاً إلا أن بادلها القبل وجرى الدم في عروقهما معلناً عن شهوة عارمة اجتاحت جسديهما فجأة فما كان منهما إلا أن استجابا لندائهما فانسابت قطع الملابس في السقوط على الأرض واحدة تلو الأخرى حتى استحالاً عاريين تماماً.

أفرغ ديفيد رغبته في جسد هلين حتى هدأت شهوته، عندها فقط أدرك ما أوقعه فيه شيطانه من خطيئة ارتكبها في حق صديقه الوحيد.

نظر إلى هلين فوجدها نائمة منتشية عارية لم تدرك بعد حقيقة ما فعلت.

أفاق من سكرته فجأة عندما أدرك جرم خيانتها كأنها وشم قبيح قد طبع على وجهه سوف يعيش به أمام الناس.

نهض مسرعاً محاولاً لملمة ملابسه المتناثرة على الأرض وارتماها في سرعة فائقة.

خرج من بيت ويليام كالمجنون لا يعرف ماذا سيفعل أو ماذا سيقول إذا اكتشف صديقه خيانتة.

لن يعرف أكيد أنه لن يعرف.. مستحيل أن يكون أحد رآني وأنا أخرج من بيته في هذه الحالة المزرية. هلين لا يمكن أن تقول له شيئاً كيف ستفضح نفسها أمامه وأمام عائلتها العريقة.. من المحتمل أنها لن تتذكر شيئاً لقد كانت ثملة تماماً.

سوف أقابلها غداً دون أن يظهر على شيء من الخوف أو القلق.

آه كم الساعة الآن لا بد أن أنام، الوقت متأخر جدًا.. آه أين الساعة..
ساعتي هدية ويليام لى أين ذهبت يا للمصيبة لقد نسيتها بجوار هلين لا
بد أن أهاثفها حالاً قبل أن يحضر زوجها. جرس الهاتف يدق ولا محبيب.

أرجوك يا هلين ارفعى الساعة أرجوك.

ظل التليفون يرن بجوار جسد هلين العارى الذى تحول إلى جثة بلا
حراك لا تشعر بما يدور حولها حتى أنها لا تسمع الهاتف الذى ظل يدق
بجوارها لأكثر من نصف ساعة كاملة أنهاها ويليام عندما دخل غرفة
نومه وبذل ملابسه وهم أن يلقى بجسده على سرير الزوجية.

فإذا بالهاتف يرن من جديد ألقى ويليام نظرة سريعة على الساعة
الملقاة بجوار الهاتف فإذا بها تشير إلى الرابعة صباحاً.

جاء صوت ديفيد متلجلجاً مهتزاً فوجئ بويليام يرد عليه أخبره أن
كان يريد فقط أن يطمئن على أنه عاد بسلام شكره ويليام وأغلق الخط.

عندها أدرك فقط عرى زوجته الذى لم تعتد عليه يوماً وأبصر
ملابسها الملقاة على الأرض إلى أن تسمرت عيناه على الساعة بجوار
الهاتف والتي كان يعرفها جيداً.

أغلق المصباح ثم ألقى برأسه على الوسادة طالباً نوماً عزيزاً لن
يأتيه بسهولة فى تلك الليلة.

(١٤) العزلة

عندما بدأ حازم عزلته الاجتماعية بإرادته الحرة لم أكن حزينا على فقدان صديق لكن سعادة دفيئة كانت تغمرنى لا لشيء إلا أن اعتزاله هذا معناه ببساطة ابتعاده عن أمل.

بدات مراحل اعتزاله الحياة الحديثة بعدم مشاهدة التلفزيون إلا البرامج الدينية فقط، التى كان يحفظ مواعيدها عن ظهر قلب، لا أفلام لا مسلسلات ولا أغانى.

وسبب ذلك أنه عندما كان يشاهد مسلسل ليالى الحلمية الذى كان يحبه جداً وفى إحدى الحلقات صدمه ابتذال شخصية سماسم العالمة وهى تغنى فلم يتمكن من مشاهدة باقى الأجزاء وقاطع كل المسلسلات والأفلام.

هل هذا هو معنى غض البصر.. نعم "ابعد عن الشر وغنى له" كما يقول الشيخ وحدى وهو الشيخ المفضل للمتشددين فى هذه المرحلة. أو "الباب اللى يجيئك منه الريح سده واستريح" كما تقول والدته الحاجة صفية، هذا هو معنى اتقاء الشبهات.

قلت له هذا رأيك أما أنا فساأشاهد التلفزيون والسينما وأستمع إلى الموسيقى، ولا أجد فى ذلك أى تعارض مع صلاتى وعلاقى بربى.

كان يحاول جاهداً إثنائى عن هذا الفهم المغلوط من وجهة نظره، فنحن لا نعرف شيئاً عن ديننا نحن أبعد ما نكون عن صحيح الدين وأن السبب فى ذلك أننا أهملنا ديننا وشغلنا أنفسنا بالدنيا والأغنى والسينما.

سألته: وماذا عن حلقات الدكتور مصطفى محمود التى كنا نحرص

على متابعتها كأنها صلاة أسبوعية؟!!

مصطفى محمود!! سخر قليلاً ثم أكمل: ده كان ملحد واعترف بذلك والعياذ بالله.. ثم لا تنس أنه حليق والرسول ينهانا حتى عن الصلاة خلف إمام حليق.

- يعنى أنا لو رببت ذقتى أبقى أحسن عند ربنا من مصطفى محمود؟!!

- نعم كل شعرة ترببها فى ذقتك بتأخذ عليها حسنة تصور.. وربنا يزيد ويبارك.

- طيب سيبك من الكلام ده وتعالى نلعب دورين شطرنج.

- والعياذ بالله.

- ليه؟

- التماثيل حرام.. إن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه تماثيل أو صور

- لكن الشطرنج لعبة لتنمية الذكاء وليست للعبادة كما يقصد الحديث الضعيف.. أما الصور فلم تكن موجودة أصلاً أيام الرسول!

- لا بد أن نتقى الشبهات كما أخبرتك من قبل.

- ولكنك بطل الجامعة! كيف تضيع هذه الموهبة التى حباك بها الله من أجل حديث مشكوك فى صحته أو مضمونه؟!!

-يا أخى الموهبة الحقيقية هى تجويد القرآن والتفقه فى الدين وليس

تلك الأشياء التى يمكن الاستغناء عنها لوجه الله.

عند هذا الحد كان حازم قد تجاوز الحد الأدنى من العقلانية اللازم لإكمال المناقشة الموضوعية، فكان على أن انسحب لأبحث لنفسى ليس فقط عن يشاركنى لعب الشطرنج ولكن لا بد لى من البحث عن صديق جديد يعوضنى عن حازم الذى بدأ مرحلة الاعتزال التى يبدأها كل متشدد مع بداية عملية إنبات شعيرات قليلة فى لحيته.

لم أتصور حازم أيضاً وهو يعتزل مشاهدة أفلام بروس لى التى كانت هوايته الأثيرة وإن ظل وفيّاً للعبة الكونج فو التى ظل يمارسها بانتظام. فالمؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف.

لقد فقدنا الكيمياء التى كانت تجمعنا فى مرحلة مراهقتنا المشتركة، بدأنا سوياً الصلاة بانتظام فى الجامع الكبير وفى مقراً الشيخ يوسف لترتيل القرآن فى رمضان. كان رفيق الشطرنج نلعب ونشتري كتب الشطرنج القديمة من سوق الأزبكية ندرسها ونطبقها فى أدوارنا كل بطريقته.

وبعد أن تطورت شخصيته بشكل ملحوظ متجاوزة انطوائيته المعهودة بدأنا معاً مشاهدة أفلام يوسف شاهين.. الوداع يا بونايرت.. اليوم السادس.. إسكندرية كمان وكمان.. هو من أخبرنى أن قصة ذلك الفيلم هى تجسيد لقصة شاهين نفسه مع محسن محيى الدين (الممثل الموهوب الذى بدأ يستشعر حرمانية بعض المشاهد التى يقدمها فى السينما رغم مستقبله الواعد فيها فاتجه إلى المسلسلات التلفزيونية الأكثر محافظة ثم اعتزل بعد ذلك بقليل).

حتى فى عشقه للكونج فو وأفلام بروس لى لم تكن تعنى بالنسبة له مثل باقى الشباب التباهى بالقوة أو الدفاع عن النفس، لقد كان حازم قوياً

بلا كونغ فو بل كانت نظرتة أكثر عمقًا من ذلك، كان ينظر لها كنظام حياة وحركات يتوحد فيها مع عالمه الداخلي كان يعيش تمامًا مع الحركات ينفصل عن كل ما حوله.

ماذا حدث لصديقي؟ لا أعلم. لا أفهم هذا التحول.. قد يكون تدينه هو السبب.. هل هذا ما يريده الله منا.. أن نفسر نصوصه بمنتهى الحرفية دون تفكر أو تعقل! ألم يأمرنا الله في الكثير من آياته بالتعقل وإعمال العقل؟

هل يهينا الله هذه المواهب ثم يطالبنا باجتناها.. صاحب الصوت الجميل لا يغنى والتمثيل حرام والتصوير والنحت والشعر والأدب والموسيقى والشطرنج والتليفزيون؟

هل كان فيلم صلاح الدين الذى يظهر عظمة الإسلام والأخلاق الإسلامية النبيلة.. حراماً؟

هل تمثيل عبدالله غيث أو أنتونى كوين لشخصية حمزة عم الرسول فى فيلم الرسالة.. حرام؟

هل غناء سعاد محمد فى فيلم الشيماء.. حرام؟

هل تمثال نهضة مصر.. حرام؟

هل قصيدة حسان بن ثابت شاعر "بانث سعاد" التى ألقاها فى حضرة الرسول.. حرام؟

هل لوحات صلاح طاهر الصوفية.. حرام؟

لقد أخذو منى صديقى الوحيد فى هذه الدنيا، لن أجد من يعوضنى

عن صداقتك.

مهما حدثتني عن أنك تحبني في الله وأن صداقتنا لنصرة الإسلام.

الإسلام لا يتعارض مع هذه الأنشطة التي كنا نقوم بها.. هناك حياة أخرى خارج المسجد يمكن أن نحيها دون أن يغضب الله علينا.. لقد خلقنا لكي نعيش ونتعلم.

لا يمكن أن يكون الله خلقنا لنتجهم وننسى الضحك كما كنت تقول أن هناك حديثاً يقول أن كثرة الضحك تميت القلب.

سوف أصلي وأصوم وأتقرب إلى الله كما تدعوني ولكن سوف أشاهد التليفزيون والسينما وأقرأ الأدب والشعر وأستمع لصوت فيروز وألعب الشطرنج..

هذه الحياة التي سوف أحيها دون أن أغضب الله.. فهل ستعود لرشدك يا صديقي أم سوف أفقدك بما لا أحب؟!!

(١٥) يا فلسطينية

عندما التحقت أمل بكلية الإعلام رغم عدم رضاء أبيها وأمها على السواء شعرت ولأول مرة في حياتها بأنها لم تعد تلك الفتاة الدمية التي يدللها أبوها وتثنى أمها على جمالها وأخلاقها أمام صديقاتها في جلسات النادي أو الكوافير. شعرت أنها لا تنتمي إلى هذا العالم الذي نشأت فيه: أب غير موجود في معظم أوقات العام، يتذكر عيد ميلادها بصعوبة ويرسل لها الهدية التي تطلبها عن طريق شركة الشحن.. وكان كل حديثه معها ينصبُّ على ضرورة المذاكرة الجيدة لدخول كلية الهندسة ومساعدته في إدارة شركة المقاولات.

أما الدكتورة سوسن فكانت تستدرجها معها لتعيش في الوسط الاجتماعي الذي ضمنت ثروة زوجها عدم حرمانها منه والذي يتمثل في استمرار مدحها لعلاقتها القديمة مع صديقات جاردن سيتي ذوات الثقافة الفرنسية الرفيعة واللائى دائماً ما يتقابلن في كوافير فندق الهيلتون أو في نادي الجزيرة لممارسة المشى أو النخيمة. ثم عضويتها البارزة في نادي سيدات روتاري جاردن سيتي الذي تنفق فيه أموال زوجها على التبرعات والحفلات الخيرية.

لم تكن أمل تحب هذه الأجواء، كانت تريد أن تتحرر من ذلك القيد العائلي. كانت شخصيتها أبسط من ذلك؛ لم تكن تفكر في أموال أبيها أو أرستقراطية أمها كانت على عكس ذلك تحلم بالبساطة وحب الناس، كانت تشاركني في ذلك عندما تترك سيارتها الصغيرة في أحد الشوارع الجانبية بمنطقة وسط البلد ثم نطلق أرجلنا للريح نمشى نحو إشارات البث الواردة إلينا من دروب غارقة في الأصالة تفوح منها رائحة الزمن وعراقة الماضي من العتبة للغورية للحسين.. أشترى لها إيشاربا

مزرکشاً تضعه على رأسها فتبدو كفتاة مصرية أصيلة تربت فى
حوارى باب الخلق.. نغوص فى الزحام إلى حوش آدم، هنا كان الشيخ
إمام يعزف على أشعار أحمد فؤاد نجم:

اتجمعوا العشاق فى سجن القلعه.. اتجمعوا العشاق فى باب الخلق

ومصر غنوة من الزنازين طالعہ.. ومصر غنوه مضرعه فى الحلق

اتجمعوا العشاق فى الزنزانہ.. مهما يطول السجن مهما القهر

مهما يزيد الفجر بالسجانه.. مين اللى يقدر ساعه يسجن مصر

تنطق طرقات الحارة الضيقة بألحان الشيخ الضرير.

نصعد إلى البيت لنزور الشاعر والملحن فى بيتهم الكائن أعلى سطح
المبنى القديم مع بعض الشباب المغرمين بشجاعة هؤلاء الرجال
المتمردين على الحكام الظالمين.

نوادرهم لا تنتهى وحكاياتهم لا تنقطع عن مغامرات عاشوها فى
سجون مصر كلها.. كيف كانت القصائد تعبر أسوار السجن لتصل
لشباب الجامعة دون ورق أو قلم تدون عليه.

ثم يغنى الشيخ إمام على العود:

يا فلسطينيه والبندقاني رماكو.. بالصهيونيه تقتل حمامكو فى حماكو

يا فلسطينيه وأنا بدى أسافر حداكم.. حداكم

نارى فى إيديا وإيديا تنزل معاكم.. معاكم

على راس الحيه وتموت شريعة هولاءكو.

يحمر وجه أمل عندما أشار المغنى لفلسطينيتها.. وقتها شعرت نحوها بمشاعر أخرى...

من التعاطف من المشاركة.. لا أعرف.. لكن ظلت هذه الأغنية تحكم علاقتى بأمل خصوصاً فى الأعوام التالية.

وهو ما كان يشعرنى بالمسئولية نحوها من جهة.. ومن جهة أخرى تصيبنى قلة حيلتى عن فعل شىء لها.

فمعاناة الفلسطينيين بالنسبة لنا لم تتعدَّ مرحلة مط الشفاه أو التعاطف الوقتى مع أطفال الحجارة الذين بدأوا فى هذه الفترة إذهال العالم كله إلا نحن.. فقد ظلت علاقتنا بالإسرائيليين والأمريكان كما هى التعاون والتحالف من أجل حماية أمن إسرائيل.

ثم قام صدام بتحريك جيشه لتحرير الكويت لا القدس.

حتى أن قادة منظمة التحرير كانوا قد بدأوا لقاءاتهم السرية بقيادة الدولة العبرية كمقدمة لما عرف بعد ذلك باتفاقية أوسلو.

ولكن ماذا فعلت أنا لأمل؟ لا شىء.. حتى حازم ترك حبها له واعتزل الحياة بحثاً عن الآخرة.

بعد انتهاء الأغنية بكت أمل وأصابتها حالة الاختناق المعتادة الناتجة عن حساسية الصدر التى تعانى منها منذ الصغر، حتى تناولت بخاخ الاستنشاق وسحبت شهيقاً قوياً أعاد حمرة الدماء إلى وجهها الشاحب.

اعتذرنا فى الانصراف وجلسنا على مقهى الفيشاوى نحتسى شايًا

بالنعناع هدأ من روعها.. ناولتها منديلاً لتمسح به قطرات اللؤلؤ
المناسبة على وجنتيها.

قالت: أنا نسيت أنا مين.. ثم بكت .

لم أعرف ماذا أقول لها فقد كانت هذه الأيام مثيرة للشجن مع توراد
أخبار الانتفاضة التي تحول معها قتل الفلسطينيين يومياً إلى شيء عادى.

قلت لأمل ببراءة أن مصر هى بلدها وأنها ستذهب لزيارة القدس فى
يوم ما... إلى آخر هذه الكلمات التى اعتدنا قولها من باب المجاملة
وإزاحة هذا الهم العربى المشترك الجاثم على صدورنا منذ أن أصابتنا
تقنيات هذا الاحتلال اللعين.

استمرت الجولة بحماس أقل فى منطقة خان الخليلى وشارع المعز..
صلينا المغرب بجامع الحسين.. لمحتها تتوسل له بعد الصلاة وتبكي،
لكنها تمالكت نفسها وخرجنا مسرعين فى اتجاه سيارتها بوسط البلد ثم
عدنا للبيت..

كاد قلبى يطير من السعادة هذه الأيام بالخروج مع أمل، كانت هذه
هى الميزة الوحيدة لعزلة حازم. أكيد أنها سوف تنساه بمرور الوقت.

هو الآن لا يصافح أو يتحدث إلى النساء وخصوصاً المتبرجات
منهن كأمل التى كانت متبرجة رغم حجابها الذى يبدو عصرياً أكثر منه
محافظاً.

فى ذلك اليوم البارد وفى أحد أروقة معرض الكتاب سحبت يدها
سريعاً عندما هممت بلمسها.. احمر وجهها خجلاً وأطلت النظر فى
عينيهما حتى زاغت عيناها تماماً..

لم أفهم كنه تلك النظرة، لماذا تفضل أمل أن تبقى معى فى الآونة الأخيرة أكثر من أى شخص آخر؟

هل شفيت من حازم أم تحاول أن تجعلى الدواء الذى سينسيها حبه؟
هل يمكن أن أحل محله وأفوز بقلبها العصى علىّ منذ أول مرة شهدت
ظهور حازم فى كادر حياتنا؟

هل أنا مناسب لها؟ هل تشعر معى بالسعادة والتفاهم كما كانت تشعر
معه وحتى وإن لم يكن يبادلها نفس المشاعر؟! الأکید أنها تعتبرنى
مقرباً منها، ألم تقل لى فى ذلك اليوم القريب أنى أقرب صديق لها فى
هذه الدنيا! ولم لا، أنا أشاركها نفس الميول والاهتمامات.

كان محمود درويش يقول: بين ريتا وعيونى بندقية... والذى يعرف
ريتا ينحنى ويصلى لإله فى العيون العسلية.

بعد انتهاء الندوة ذهبنا سوياً لحضور حفل تقدمه فرقة رام الله للفنون
الشعبية.. طارت أمل من السعادة بمجرد سريان نغمات الدبكة إلى
أذنيها، كانت قصيدة سميح القاسم تشعل جنابات القاعة بصوت مارسيل
خليفة. العملاق.

منتصب القامة أمشى.. مرفوع الهامة أمشى... فى كفى قذفة
زيتونى.. وعلى كتفى نعشى.

التحنا جميعاً فى رقصة دبكة مدوية جعلت أمل تعود إلى فلسطينيتها
السلبية. وأخذت تتمايل يميناً ويساراً وهى تلوح بالكوفية الفلسطينية
كغصن أسكرته الرياح. كما لو أنها تربت بالفعل فى شوارع رام الله.

كانت أمل فى هذه اللحظات تستعرض شريط ذكرياتها.. أين هويتها

الحقيقية.. هل هى ابنة المهندس حسن الزهار الذى ترك بلده هارباً من
شدة بطش العصابات الصهيونية ثم قضى بقية عمره رحالاً بين
العواصم من بيروت إلى عمان ومن الرياض إلى القاهرة.. وعمها الذى
لم يترك بلده كأخيه وما زال يعيش حتى الآن هناك فلسطينى بهوية
إسرائيلية؟

وأما المصرية سليلة ذلك الحى الراقى بوسط القاهرة.. والباسبور
الأردنى الذى تحمله فى حقبيتها.. وفترات الشتات التى عاشتها بين
القاهرة والرياض وبيروت.

كانت دائماً تعيش حالة الأغيار.. تعيش فى مصر وهى ليست
مصرية وتحمل الباسبور الأردنى وليست أردنية.

I belong to there ...

قالتها أمل ثم انطلقت تلهو وتجرى تحت أمطار ذلك اليوم من أيام
الشتاء الباردة..

داخل السيارة جففت وجهها من حبات المياه المنسدلة من بين
خصلات شعرها التى حررتها الأمطار من تحت الحجاب.. نظرت فى
عينها وطبعت قبلتى الأولى على خدها الناعم.

تغيرت ملامح وجهها قليلاً واقتحمتها تعابير جادة بعض الشيء.
ارتبكت قليلاً لكنها سرعان ما عاد وجهها للإشراق من جديد متناسية ما
حدث وانهمكت فى قيادة السيارة حتى ودعتها عند باب البيت بابتسامة
محبة تطلب السماح على هذا التهور غير المحسوب الذى بدر منى دون
وعى.

(١٦) الشيخ وجدى

كان حازم فى هذه المرحلة قد بدأ يتردد على دروس الشيخ وجدى، وهنا تكمن المفارقة الكبرى فى مرحلة اعتزال حازم وهى تتجلى فى تركه لدروس أبيه الشيخ يوسف لحضور دروس شيخ آخر لا يتحلى بربع قدر الشيخ يوسف من الثقافة والفقه الدينى، وهو ما كان مؤشراً لبداية رحلة الصعود الكبرى فى هذه المرحلة لكثير من شيوخ السلفية ومن هم على شاكلة الشيخ وجدى للاستحواذ على مساحة الدعوة الدينية وأصبح لهم مريدون.. وكان حازم نفسه يبرر ذلك بقوله أنهم بتشددهم الدينى إنما يفرضون على أنفسهم حياة صعبة تتمثل مقولة الرسول: القابض على دينه كالقابض على الجمر. وهنا يصبح الذى نسميه نحن تشدداً إنما يمثل نقطة قوة لا نقطة ضعف من وجهة نظر مريدى هذا الفكر.

هكذا كان حازم دائماً ما يحاول أن يجذبني نحو عزلته الاجتماعية بدحض الأفكار الشائعة عن الفكر السلفى وتحويل النقد السلبي إلى فكرة إيجابية ملهمة، وذلك فى حقيقة الأمر كانت طريقة الشيخ وجدى نفسه عندما كان يقول فى أحد الدروس التى حضرتها له مع حازم: إنهم يقولون علينا إرهابيون. ونحن لا ننكر ذلك نعم نحن إرهابيون. ألا تقول الآية الكريمة وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم. وبدأ الحضور يهللون ويكبرون لهذا الاكتشاف الكبير.

كانت هذه الطريقة هى أكثر ما يجذب حازم لحضور دروس الشيخ وجدى لأنه يرى فيها أسلوباً جديداً يدعو للتفكير فى الدين، منظور مختلف تماماً عن طريقة شيوخ الأزهر، ومنهم أبوه الشيخ يوسف نفسه،

الذين يغرقون فى التقليدية ويسيرون فى ركب المجتمع ولا يجروؤن على الاختلاف مع الحاكم، بينما كان الشيخ وجدى من وجهة نظره مناضلاً حقيقياً يكفى أنه، فى أحد الدروس، اضطر أن يتسلق سور المسجد حتى يتمكن من دخول قاعة الدرس حتى لا يلحظه المخبرون التابعون لأمن الدولة الذين كانوا دائماً يحيطون بالمسجد الذى يلقى فيه دروسه.

فضلاً عن أن الشيخ وجدى كان يتمتع بحس فكاهى عالٍ يضاهى فى التندر طريقة الشيخ كشك فى انتقاده للشخصيات العامة. مما كان يقدم نمطاً جديداً من الدعاة أصحاب الدم الخفيف الذين يجتذبون الناس لأحاديثهم دون إضفاء جو من الكآبة والملل كما يفعل الشيوخ التقليديون الذين جعلوا الناس يستمعون لخطبة الجمعة على مضض وينصرفون بمجرد انتهاء الصلاة.

أما الشيخ وجدى فكان مريدوه يقبلون بشوق ولهفة على دروسه؛ مما مكنه من اجتذاب أعداد كبيرة من الناس، وكذلك كان تطرقه إلى إثارة بعض الموضوعات السياسية كفيلاً بأن يكون مجلسه محفواً بالعديد من مخبرى أمن الدولة.

فكان تلقى حازم لبعض الأفكار مثل مجتمع الجاهلية الذى نعيش فيه والحكومة الكافرة.. ما يجد صدًى كبيراً وأرضية خصبة تستوعب هذه الأفكار وتنميتها وتؤمن بها كعقيدة. ساعد على ذلك شعور الناس بالظلم وعدم المساواة من جانب الحكومة. والحاشية الرئاسية التى تستحوذ على كل شىء: أراض وقصور ناهيك عن صفقات السلاح والمخدرات والتهريب. وهو ما أحدث التفاوت الفاحش فى الدخل بين عموم الناس وبين اصحاب الملايين من الحكام والحاشية، وهذا ما جعل الناس تحلم بتحقيق العدل على الأرض، وهو ما سوف تحققه الدولة الإسلامية

كان يذكرها لى محاولاً إقناعى بفكرته عن الإسلامية وإقناع بعض الأصدقاء بل وإقناع الشيخ يوسف نفسه، وهو ما كان يدغدغ مشاعر خاصة لدى الشيخ يوسف راسمة صورة دولة العدل الإسلامية فى أفغانستان.. دولة قوية لا تقهر وتعالى كلمة الحق وتتصر شرع الله، وتستدعى هذه المشاعر صراعه الداخلى من جديد. يذكر ما فعله طيلة سنوات عمره المنقضية فى محرابه واعتكافه ذكراً لله ودروسه المعتدلة فى الجامع.

هل رسالته فى خدمة هذا الدين أم يجب أن تكون تلك الرسالة فى ظل مجتمع إسلامى وحكم إسلامى وخليفة للمسلمين؟ مثلما يدعو هؤلاء الدعاة الذين لا يطبق تشددهم وفشل فى إقناعهم تماماً بأن الدين يسر وأن المبالغة فى التشدد قد تنفر الناس من الدين نفسه وأن الرسول نفسه كان يقول ساعة وساعة. ثم كيف يكون قد أدى رسالته نحو الدين وابنه الوحيد الذى أفنى عمره على تعليمه وتثقيفه لا يحضر دروسه؟ لا بد أنه قصر فى شىء ما فى رسالته جعلت الناس يبتعدون عنه.

هل المطلوب المغالاة قليلاً حتى يعود إلى سابق عهده.. هل لا بد له أن يطيل لحيته قليلاً وألا يهذبها حتى تصبح كلحية هؤلاء المتشددين؟ هل يبتعد تماماً عن حديث الأدب والثقافة والفنون ويركز حديثه على المسائل الفقهية والأحاديث؟

واضح أن هؤلاء الدعاة استطاعوا أن يقنعوا الناس بحرمة هذه الأشياء.. نعم ولماذا لا يكون عندهم حق فى ذلك؟ ألا تشاهد أفلام ومسرحيات هذه الأيام وما يرتكب فيها من معاصى؟! ألا تقرأ الروايات الأدبية وما يكتب فيها من مقاطع جنسية فاضحة؟! والغناء هل ما زال

الغناء مثلما كان أيام عبدالوهاب وأم كلثوم وفيروز؟ لا والله لقد أصبح مبتذلاً مثيراً للغرائز والعياذ بالله... نعم معهم حق لقد تنازلت كثيراً عن ثوابت الدين لذلك رحل الناس عنى. يجب أن أكون أكثر تشدداً ولكن لن أغالى كثيراً حتى أقف فى مكانة وسطى بين هؤلاء وهؤلاء.

ثم لماذا لا أتحدث فى السياسة؟ لماذا لا أقول كلمة حق فى وجه سلطان جائر؟ أيعجبك ما يحدث فى البلد يا شيخ يوسف.. كما قالها حازم فى وجهه قوية مدوية عندما لم يذكر فى خطبة الجمعة أى شىء يشير إلى اعتقال بعض شباب الإسلاميين فى ذلك الأسبوع.. وقتها لم يقوَ الشيخ يوسف على الرد ولكنه شعر بمرارة الانكسار.. لقد أصبحت مهادئاً أكثر من اللازم.

إلى أن فاجأه حازم بكلمات قطعت شروده وصراعاته الداخلية:

- يا أبى لقد قررت أن أتطوع للجهاد مع المجاهدين فى أفغانستان.

- ماذا تقول يا حازم؟ ودراستك؟!

- لا يبارك الله فيما يلهى عن ذكر الله فكيف يبارك فى شىء سيعطلنى عن فريضة الجهاد؟!

- ولكنك ما زلت صغيراً يا بنى!

- أنا عمرى ثمانية عشر وسيدنا زيد أمره الرسول على قيادة الجيش وهو فى مثل عمرى.

ثم رد عليه محتدّاً:

- أنا عارف أن حسن هو اللى طلعتها فى دماغك!

- أبدأ يا أبى إنما هى إرادة الله وأنت لا ترضى بأن نتقاعس عن حماية إخواننا المسلمين فى أفغانستان الذين يغتصب الروس الملاحدة أقواتهم ونساءهم.

لم يتمكن الشيخ يوسف من الرد، وطلب من ابنه أن يفكر قليلاً قبل أن يتخذ هذا القرار الصعب.

(١٧) الشلة

انطلقت أمل بسيارتها الكابورليه الجديدة تسابق الريح غير عابئة بالسرعات المسموح بها على طريق القاهرة/ الإسكندرية، تلتقط القلق فى عيني عندما ألمح مؤشر السرعة يتجاوز المائة.

عندما وصلنا إلى النادى اليونانى المطل على شاطئ الأنفوشى ببحر الإسكندرية الساحر كان أعضاء الشلة فى انتظارنا وخصوصاً فادى صاحب عيد الميلاد. رحب ترحيباً شديداً بأمل وقل حماسه كثيراً عندما عرفتنى عليه.. سلم على بعدم اكتراث.

ثم جاءت ماريان وأخوها حنا أو جوني كما كان يحب أن يناديه الجميع لأن اسم حنا لم يكن عصرياً بما فيه الكفاية، ناهيك عن إغراقه فى المسيحية مما يثير حفيظة بعض المسلمين، هذا غير أنه كان يهين نفسه للهجرة إلى بلاد العم سام، فكان يدرّب نفسه على اسم جوني الأقرب إلى طبيعة الأمريكان.

ماريان رغم تحرر ملابسها، بعض الشيء، كانت نموذجاً للفتاة الطيبة البريئة التى تصل إلى حد السذاجة فى بعض الأحيان، وهو ما جعلها صديقة أمل الوحيدة التى تحتفظ بكافة أسرارها.. وهو أيضاً ما جعلنى أشتعر عاطفة قوية لا أعرف كنهها تجاه ماريان، ليس حباً بقدر ما هو رغبة فى التواصل مع هذا الكائن النقى البريء.

فكانت أمل تقول لى ضاحكة:

- تحب أعرّفكوا على بعض، بس هى لا تجوز لك!

كنت أضحك مستشعراً أننى أثرت غيرتها ولو قليلاً، وأرد:

- الإسلام يبيح الزواج من المسيحية.

أما نجمة الحفل بدون منازع فقد كانت سالى. فتاة مارلينية القوام ملامحها تنضح بالجمال والأنوثة الطاغية. تمنيت لوهلة أن أكون واحدًا من الشباب الكثر الذين رقصت معهم.. كانت على النقيض تمامًا من ماريان.

فتاة عابثة، تدخن، تشرب، ترقص، لها علاقات متعددة مع الكثير من شباب الشلة.

تحدثت إلى وهى تحت تأثير الكحول ساخرة من الحب والزواج والدين والسياسة.

قالت إنها لا تبالي بهذا العالم، الحياة هى المادية البحتة، الحب هو الجنس، والدين والسياسة مجرد وسيلة لجمع المال واستغلال البشر ليس إلا.

لم أناقشها ولم أسايرها فى الرقص أو الشرب كما تمنيت، ولكن أجبتها بهدوء:

- الحرية الحقيقية ليست فى الانغماس فى الملذات بقدر ما هى إطلاق لطاقات الروح وليس لغرائز الجسد.

صمتت كثيرًا كأنها تحاول أن تتعمق فى كلماتى ولكنها أطلقت ضحكة ساخرة خليعة جعلتني أطلب من أمل أن يغادر المكان فورًا.

كان جولى شابًا هادئًا لكن عينيه لم تكن ودودة، ترى فيهما ميراث كبير من الاضطهاد الدينى الذى عانى منه طول حياته خصوصًا عندما

رفض مدرب أحد الأندية الكبرى أن يضمه لفريق الناشئين بالنادى لأنه مسيحي رغم موهبته الظاهرة.

كان يحب أمل لأنها من وجهة نظرة تمردت على أبيها القيادى الإخوانى الكبير واندمجت فى مجتمع ليبرالى متحرر لا يفرق بين الأصدقاء حسب دياناتهم.. كانت هذه بعض الأفكار التى التقطها من آلة البث التى وجهها إلى قبل أن ينفرد بامل وماريان متحدثين بالفرنسية التى لا يجيدها غيرهم وهو ما يجعلهم يشعرون بالاختلاف عن أقرانهم.

لم أتمكن من الاندماج مع هذه المجموعة فقد كان معظمهم يرقصون ويشربون البيرة وهو ما حرصت على ألا أشربها أمام أمل فهى تعطى انطباعاً سيئاً فى مجتمعنا رغم أنها مثل المياه الغازية فى بلاد الغرب.

لم تكن أمل تشاركهم الرقص أو الشرب بطبيعة الحال فقد كان تكوينها وتربيتها أقوى من السباحة مع تيار هؤلاء من الشباب المختلفين عنا.

فوجئت بأحدهم واسمه وائل يتحدث عن تجربة إلحاده ويروى لنا كيف كانت ظروف آخر خطبة جمعة حضرها فى أحد الجوامع قبل أن يعلن إلحاده الصريح. يشاركه بعض الشباب الحديث عن أن الدين خدعة كبرى هى ما يتسبب فى صراعات العالم لماذا يتصارع أصحاب الديانات مع أن الهدف الأساسى لأى دين هو المحبة.

لقد تسبب التشدد الدينى بنفورهم من الدين أصلاً، هذا ما كان الصوفيون يحذرون منه دائماً.

حال وجودى فى الحفل دون محاولات فادى فى الانفراد بأمل والحديث إليها بما يظهر فى عينيه، أما هى فقد كانت الهدية الغالية التى

أهدتها له كفيلة بأن تنبئ عما تكنه فى صدرها من إعجاب بهذا الفتى الثرى المتعجرف ابن أحد كبار المسؤولين فى الحكومة والحزب.

كانت تظهر عليه علامات الثقة والاعتداد بالنفس وحب المغامرات مع الفتيات غير الناضجات، مثل أمل تحديداً، التى حاولت ألا تظهر أمامه بخاخة الاستنشاق التى تحتاج إليها كثيراً خصوصاً من كثرة روائح العطور ودخان السجائر التى تملأ المكان.

عدنا إلى القاهرة فى نفس اليوم ولم تتصل بى أمل لأكثر من شهر حتى جاءنى صوتها عبر الهاتف فى إحدى الليالى، باكية.

كم كان حدسى صادقاً عندما توقعت سبب بكاء أمل فى ذلك اليوم.. لقد اكتفى فادى بهذه الفترة التى قضاهـا وسئم الاستمرار معها فى هذه العلاقة غير المرنة، التى حاول كثيراً فك شفرات جسدها عن طريق استخدام أنامله الحساسة، إلا أن أمل كانت دائماً تردع إشاراتـه لترتد سريعاً دون تحقيق محاولاته الدنيئة. حتى أنها تركته فى إحدى المرات التى التقيا فيها فى ذلك الفندق المطل على النيل واعتذر ووعدها بعدم تكرار ذلك مرة أخرى.

ثم جاءت صدمتها بعد ذلك عندما لم يرد على مكالماتها له طيلة أسبوعين متواصلين بالرغم من أنه كان يهاتفها أكثر من عشر مرات يومياً من قبل. وكانت صدمتها قاسية عندما رأته فى النادي بالصدفة يلهو مع إحدى صديقاته القدامى داخل حمام السباحة، وعندما رأى أمل تظاهر بعدم رؤيتها. حكـت لى أمل وأجهشت بالبكاء:

- هل كنت بلهاء إلى هذا الحد؟!

كنت أواسيها وأحاول أن أفنعها أنها كسبت كثيراً ببعدها عن هذا الشاب

المستهتر الذى لا ينتمى إلى وسطنا ولا أخلاقنا.

- معك حق أنا غلطانة.. أرجوك سامحنى.

قالتها أمل وأمسكت يدي، عندها ردت الروح فى جسدى مرة أخرى
بعد طول غياب، رقصت نبضات قلبى معلنة عن مرحلة جديدة فى حب
أمل بعد رحيل فادى غير المأسوف عليه.

لكن هل أترك نفسى هكذا لمغامراتها؟ هل ستحببنى هذه المرة ولو
بعقلها؟ لقد رحل حازم وفادى وأصبح الطريق خاليًا.

(١٨) بيت الأنصار

عندما أقلعت الطائرة تنفست الصعداء؛ فقد كنت أتوق إلى السفر كأنه الخلاص. نظرت من النافذة، المباني تتضاءل شيئاً فشيئاً، ثم صحراء جرداء. هذه أول مرة أغادر فيها مصر وأول مرة أشعر فيها أنى مصرى، نعم فى الإسلام الولاء للدين وليس للطين، لكن يبدو أن الإنسان جُبِلَ على حب بلده الذى نشأ فيه، ألم يحب الرسول الكريم مكة، وكان مستاءً وهو يغادرها عندما هاجر إلى المدينة؟

هذا الشعور يختلف بالضرورة عما يؤمن به دعاة الوطنية والقومية وضع الحدود بين الدول التى تؤجج نيران التعصب والقبلية وهو ما يجعلنا نحارب بعضنا من أجل أشبار من الرمال الجرداء.

كان معى على الطائرة عدد كبير من المصريين أغلبهم يعمل فى مجالات الطب والتدريس، تابعين للمؤسسات الخيرية فى بيشاور فى باكستان وهى تقع على الحدود مع أفغانستان.

كان يجلس إلى جوارى شاب ضخم الجسم كث اللحية يضع عمامة فوق رأسه، أدركت من هيئته أنه تبليغى. كان يقرأ القرآن طول الرحلة، وفى مطار كراتشى بادلنى التحية بالود والبشاشة المعهودة لدى رجال التبليغ وساعدنى فى ملء الاستمارة بالمطار والمكتوبة بلغة الأوردو.

كان يرتدى ملابس غاية فى البساطة، ويحمل مسبحة كبيرة ومساوگًا، والنور يشع من عينيه. ما أعظم النتائج التى يصل إليها أهل التبليغ؟ لم يكن لى عليهم مأخذ سوى ترك الجهاد والاكتفاء بالدعوة.

بتنا فى تلك الليلة فى كراتشى وبعد صلاة الفجر توجهت إلى المطار

وركبت الطائرة إلى إسلام آباد، ثم ركبت من إسلام آباد سيارة متجهة إلى بيشاور، وانطلقت تطوى الطريق الذى يحيط به اللون الأخضر من الجهتين على امتداد البصر. القرى تكاد تكون قرى مصرية؛ نفس البيوت ونفس الأطفال.

وصلنا بيشاور بعد أربع ساعات. كنت فى غاية التعب، صليت الظهر والعصر فى أحد المساجد، لاحظت أن الأنظار تتجه نحوى بسبب الزى العربى أو بسبب طريقتى فى الصلاة، فلم أكن أعرف أن المذهب الحنفى الذى يعتنقه الأفغان يختلف عن المذاهب الأخرى.

بعد الصلاة أعطيت العنوان الذى معى لسائق الركشا وهى عبارة عن فسبا بثلاث إطارات ولها مقعد أمامى ومقعدان خلفيان للزبائن وهى وسيلة الانتقال الأكثر انتشاراً هنا فى بيشاور.

ها أنا أخيراً فى بيت الأنصار.. العرب الذين جاءوا من كل فج عميق لنصرة المجاهدين الأفغان.

كان البيت خليطاً من كل الجنسيات العربية، تعرفت عليهم ولاقيت منهم منتهى الود وحسن الاستقبال.

امتد بساط الطعام ليشمل الجميع.. لاحظت بجوارى شاباً أشقر لا يتحدث الإنجليزية وكانت دهشتى عظيمة عندما عرفت أنه ألمانى فى مثل سنى لم يكمل العشرين من عمره أسلم منذ عامين وجاء ليجاهد فى سبيل الله.

كيف كان هذا الفتى الغربى أسبق منى للجهاد؟

كان بيت الأنصار يقدم الطعام والمأوى للمجاهدين الجدد ويرسلهم

إلى مراكز التدريب ثم يستقبلهم مرة أخرى ويرسلهم بعد ذلك إلى الجبهات.

البيت تحت إشراف الشيخ عبدالله عزام وهو فلسطيني ولد في جنين سنة ٤١ وتلقى تعليمه الديني في الأردن والتحق بكلية الشريعة جامعة دمشق وله تاريخ نضالي بعد نكسة ٦٧ ضد اليهود. لكنه كان مهتمًا بالدعوة فتوجه إلى مصر وانضم للإخوان المسلمين، ثم سافر للتدريس بالسعودية وهناك تعرف على الشيخ أسامة بن لادن، وبعد الغزو السوفيتي لأفغانستان كرس الشيخ حياته للجهاد.

كانت العادة هنا أن يذهب القادمون الجدد إلى معسكر صدى التابع لمكتب الخدمات وكان هذا المعسكر يرشح من يثبت كفاءة للالتحاق بالقاعدة العسكرية، وهي المنظمة التي أعلن عنها لتكون نواة لجيش إسلامي يحارب في أي مكان من أرض الله.

أنا الآن قد بلغت مبلغًا من السعادة يضاهي ما عشته منها في حياتي السابقة ويزيد.

أشعر أنني أنتمي بحق إلى هذا المكان.. لقد بدأنا بفضل الله التدريبات الحقيقية من أجل قتال الملحدين الروس.

نذهب لمعسكر تدريب في بلدة تدعى جاجي وهي قطعة من الجنة بجبالها الشاهقة المكسوة بالخضرة وأشجار الصنوبر، نصحو مبكرًا لصلاة الفجر ثم نتدرب بعض التدريبات الرياضية العنيفة لمدة ساعة أو ساعتين ثم بعدها نبدأ التدريب على استخدام الأسلحة كالرشاش الروسي الشهير الكلاشينكوف، وهو سلاح قوى ولكنه ثقيل بعض الشيء ومهلك للكتف والترقوة وقد أصبحت من البراعة في استخدامه حتى أنني لم أبرح أشعر بعظمة الكتف اليمنى مطلقًا.

وسوف يدربوننا على استخدام باقى الأسلحة تبعاً كالجريونوف والدشكا والزوكياك وهو سلاح مضاد للطائرات وهو ما كان الفتناميون يطلقونه على الطائرات الأمريكية وكانوا يغطونه بالأغصان للتمويه.

كذلك سوف نتدرب قريباً على مدفع الهاون وهو مدفع صغير عبارة عن أسطوانة أسفلها إبرة توضع القذيفة فى فوهة الإسطوانة من الأمام فتسقط لأسفل فتصطدم القذيفة بالإبرة فتنفجر عبوة البارود وتنتقل القذيفة إلى السماء بشكل مقوس لتسقط متجاوزة الجدر المحصنة أو السواتر الترابية.

وطبعاً أنت تعرف الكاتيوشا والآر بى جى.

أما المتميزون منا فسوف يتم تدريبهم على مدفع ستنجر المضاد للطائرات الهليكوبتر والذى يبلى به المجاهدون بلاءً حسناً فى إسقاط الطائرات الروسية كالفراشات.

أما الأمير الذى يشرف على تدريبنا فهو أبو حفص، وهو مجاهد عظيم فقد إحدى ذراعيه أثناء إحدى المواجهات مع الروس فى قندهار. وهو يأمرنا بالمشى ونحن حاملين السلاح لمدة لا تقل عن خمس ساعات يومياً لتقوية عزيمتنا وإيماننا. إنه يمنعنا من الأكل إلا من بعض لقيمات صغيرة تقيم صلبنا حتى نعيش أجواء القتال التى يتعذر فيها الراحة أو الحصول على الطعام الكافى.

وقد تعرفت هنا بالمعسكر على بعض الإخوة ممن تشع وجوههم بالضياء ونور الإيمان، ومنهم رفيقى منذ أن أتيت إلى هنا التونسى زياد بو يحيى. ولن تصدق أنه كان يعمل طياراً فى القوات الجوية التونسية وكان يعرف عنه إيمانه ومواظبته على الصلاة، وهو ما وضعه فى دائرة الشك من قبل سلطات الجيش رغم أنه لم يكن ينتمى لأى جماعة

وعندما قامت الطائرات الإسرائيلية باختراق الأجواء التونسية ونزلت منها فرقة كوماندوز إسرائيلية قامت بالتصفية الجسدية للمناضل الفلسطيني خليل الوزير (أبو جهاد) دون أى تحرك من السلاح الجوى التونسى، شعر زياد بالعار من كونه طياراً يخدم فى هذا الجيش وقدم طلباً بالسفر إلى أوروبا لقضاء إجازته الصيفية، ثم حصل على تأشيرة باكستان وكان الشيخ عبدالله عزام بنفسه اى إستقباله فى مطار كراتشى.

تذكرت كثيراً عندما سمعت قصة زياد.. قصة ضرب المفاعل العراقى أوزيراك عام ٨٢ الذى تم ضربه أيضاً بالطائرات الإسرائيلية التى عبرت المجال الجوى الأردنى ثم العراقى وضربت المفاعل وعادت سالمة دون أن يلحقها أحد بحجر.

ليتك تعرف الآن ما جنته هذه النظم العلمانية الفاسدة على بلادنا من ذل وهوان وهذا ما نحاول نحن هنا أن نمحو عاره...

سوف أحكى لك واقعة حدثت هنا منذ أيام، لقد زارنا صحفى فرنسى صفيق اللسان ذهل عندما وجد زياد يقاتل فى صفوفنا وسأله كيف يترك الحياة الرغدة ووظيفة طيار فى سلاح الجو التونسى ويأتى ليعيش هنا فى الكهوف مع الرعاة؟!!

رد عليه زياد:

- أنا هنا أسعد إنسان فى الدنيا لأن الله يحارب معنا قوى الشر والملحدين ولذلك نحقق انتصارات لا تصدق.

رد عليه الصحفى بمنتهى الصفاقة:

- إن ما يجعلكم تنتصرون هنا هو صواريخ ميلاف الفرنسية وستنجر الأمريكية وليس شيئاً آخر.

- ولكن ألم ترَ هذه الصواريخ والقنابل الروسية التى لا تسقط علينا أحياناً أو تسقط ولا تنفجر بينما القذائف التى تسقط بعيداً هى التى تنفجر!

- هذا يرجع لسوء جودة السلاح الروسى ليس إلا.

ثم تهكم بسخرية وهو يسأله:

- وماذا سوف تفعلون بعد إقامة الدولة الإسلامية التى تحملون بها؟!

- سوف نحارب لكى نفتح دول العالم لندخلها فى الإسلام.

هنا سقطت السيجارة من فم الصحفى وقام دون أن يرد على زياد وذهب بعيداً.

أخى الحبيب أعلم أننى قد أطلت عليك قليلاً ولن يتسع المجال لسرد كل ما أشاهده هنا فالأحداث كثيرة والناس لهم حكايات مختلفة لا تنقطع كيف لى أن أخصها فى رسالة واحدة.

كيف أحكى لك عن (أبو ربيع) اليمنى الذى هرب من النظام الشيوعى فى عدن لكى يحارب الشيوعية فى أفغانستان وفقد عيئاً فى إحدى المواجهات مع الآليات الروسية كما فقد رجله عندما اصطدمت بلغم أرضى أثناء جولة تطهير منطقة ألغام كان يقوم بها الإخوة وكان هو فى المقدمة.

وهذا أبو حنظلة الجزائرى من جبهة الإنقاذ الإسلامية فى الجزائر،

الذى كان يقاوم قوى العلمانية والتفرنس هناك وأتى إلى هنا عندما عذبتة الشرطة الجزائرية.

والسعودى طلال الراجحى الذى ثار على العائلة المالكة السعودية بسبب علاقتها الوطيدة بالأمريكان.

وأخيراً مؤذن المركز السودانى حسن أبو بلال كما يحب الإخوة أن يسموه لصوته العذب فى رفع الأذان، وكان أحد من ضحايا تعذيب الأمن السودانى أيام جعفر النميرى ففر بدينه إلى أفغانستان وكان من أوائل المجاهدين هنا.

لن أطيل عليك.. أنا هنا قد وجدت نفسى وأحسست لروحي مستقرًا بعد طول شتات.

(١٩) ستينجر

كان الطيار الروسى فلاديمير يحدث زميليه بمنتهى الاسترخاء أثناء تلك الطلعة الجوية على مدينة كابول:

- دعونا نبدأ رحلة الصيد اليوم فأنا أشعر بالملل (ثم بادلته صديقه الضحك).

ثم أكمل:

- الحياة فى أفغانستان منذ أن بدأنا هجومنا على هذه الدولة المنكوبة لا تتحلى بأى قدر من الرفاهية أو المتعة التى كنا نستمتع بها فى موسكو أو كييف. لا تليفزيونات أو بارات أو نساء لا يوجد غير الجبال لا يوجد ما يدفع أجسادنا فى هذا البرد القارس، حتى أن العبث مع النساء الأفغانيات أو حتى اغتصابهن لا يقارن بممارسة الجنس مع فتيات روسيا الجميلات بعد احتساء كميات من الفودكا الجالبة للدفع والمحركة للشهوة.

هكذا كان الجنود الروس يقضون أوقاتهم طيلة عقد الثمانينات أثناء احتلالهم لهذه الأرض الوعرة، الذين لم يفهموا قط ما هى الأهمية الإستراتيجية التى قد تفيد الاتحاد السوفيتى من احتلال بلد فقير بلا مرافق أو موارد مثل أفغانستان، فكانوا يتنافسون على صيد رؤوس الأفغان رجالاً ونساءً وأطفالاً.

لقد خرجنا فى ذلك اليوم خمسة عشر مجاهدًا تحت قيادة الملا شيرمادا وهو أفغانى قندهارى تشهد له ذراعه المقطوعة فى صد إحدى غارات الروس بالبطولة. صلينا المغرب وانطلق كل منا بسلاحه وسرنا

خارج أسوار المدينة حتى أصبحنا بالقرب من معسكر للروس حتى أننا كنا نسمع حديثهم من بعيد، كنا نمر تحت أسوار معسكر العدو والحرس يقفون فوق رؤوسنا بالأعلى ولو فتحوا علينا نيرانهم لأبادونا.

وبعد أن تجاوزنا حقل الألغام ومراكز العدو الأمامية تحصنًا خلف أحد المواقع المهجورة، وعندها تلقينا الأوامر بالضرب وبدأت صيحات الله أكبر تجلجل مدوية قبل أن تنطلق أصوات المدافع والصواريخ، حتى أطلق المجاهد أسد الله قذيفة هاون دكت المبنى الذى يجتمع فيه الجنود حتى استحال جمرة من النار خرج منه الجنود مذعورين كالحشرات اللاهثة بعد رشها بالمبيدات.

وبدأوا يردون القصف بالمدافع الرشاشة وقذائف الهاون فى اتجاه المبنى الذى نتحصن فيه حتى أصبح بقاؤنا فيه مستحيلًا، فخرجنا منه جميعًا إلى أحد الشوارع الجانبية قبل أن ينهار بثوانى وركضنا بكل قوة، تحيط بنا الرصاصات المنهمرة من كل جانب كأنها أمطار استوائية لا تتوقف حتى تمكنا بفضل الله من الاحتماء بأحد المساجد.

استمر القصف قرب ساعة حتى ظهرت فى هذه اللحظة طائرات الهليكوبتر الروسية بأزيز محركاتها المفزع، قد جاءت من خلفنا مباشرة كما فعل خالد بن الوليد فى معركة أحد. وبدأت تقصفنا بالقنابل كطيور أبابيل تقصف جيش أبرهة بحجارة من سجيل، وللأسف هرع الإخوة يحاولون الاحتماء وراء البنايات القريبة من المعسكر المحترق إلا أن الصواريخ كانت تلاحقهم أينما حلوا حتى أن بعض المباني كانت تنهدى فوق رؤوس المختبئين خلفها. وقد هلك من الإخوة الكثير حتى بدأت دماء الهزيمة تسرى فى عروقنا، وكنت عندها أحاول إسعاف بعض الإخوة الذين انفجرت الدماء من شرايينهم لتروى تراب أرض الإسلام.

كنت أشاهد قائد الطائرة كأنه يضحك فوق رؤوسنا، يلهو بطائرته كأنها لعبة الموت.. قصفنا بحمم من الذهب وكان يتلذذ وهو يراها تشوى لحومنا، حتى لمعت فى ذهنى فكرة أدركتها عندما امتد حبل الرؤية بينى وبين أخى أبو القاسم العراقى دون كلمات، فعدونا ناحية السيارة الجيب التى جئنا بها وكان بها مدفع من طراز. ستينجر قدت السيارة للخلف فى اللحظة التى قفز فيها أبو القاسم فى الخلف وهربت بالسيارة من الموقعة متجهاً إلى أحد التلال العالية التى تحيط بالمكان وتوقفنا بجوار أحد أبراج المراقبة التى كان الروس يستخدمونها لتأمين المعسكر، وعندما توقفت السيارة عند البرج كانت قد أصبحت هدفاً سهلاً لإحدى الطائرات عندها أبصرت دفعة من المقذوفات قد انطلقت فى اتجاه جسد أبو القاسم فأردته قتيلاً فى الحال.

فى هذه اللحظة لم أعرف ما كان يقودنى إلى خلف السيارة لأحمل المدفع من يد أبو القاسم وأضغط على الزناد لتتطلق القذيفة نحو ذيل الطائرة التى كانت قد عبرت من فوقى تماماً حتى تصيب القذيفة مروحة الطائرة الخلفية وتشتعل لتستحيل كتلة من النيران وسط دھول باقى الطيارين الذين ما كان منهم إلا أن داروا فى اتجاه العودة مسرعين للنجاة بجلودهم من المصير الدامى الذى لحق بزميلهم الذى نال مصيره المحتوم وسط تهليل الإخوة وتعالى تكبيراتهم تهز الأرض وترعد فى السماء حتى غطت على أصوات أزيز محركات الطائرات الهاربة التى تلاشت من المشهد واحدة تلو الأخرى.

لقد جاء ذلك اليوم الذى كان فلاديمير يضحك وهو يمارس هوايته المفضلة فى صيد الأفغان حتى كانت أول قذيفة من مدفع ستينجر تحطم طائرته المروحية وتبدأ رحلة المجاهدين الأفغان فى الصيد العكسى، ولن يكون فلاديمير وأصدقائه هم آخر ضحايا قذائف ستينجر التى بدأت تسقط الطائرات الروسية كالفراشات.

لم يفلح الروس فى السيطرة على الوضع فى أفغانستان فقد كان الموت يداهمهم من كل مكان، فقد كان المجاهدون يهاجمونهم بقذائفهم كالأشباح التى تخرج من بين الكهوف ثم تختفى فجأة. وبدأت وكالات الأنباء العالمية تحصى أعداد المئات من الجنود الروس الذين يلقون حتفهم، وعشرات الطائرات والدبابات التى يخسرها الروس يومياً.

ومع السقوط المدوى لطائرات جورباتشوف فى سماء أفغانستان كان عقد بلاده فى سبيله للانفراط وبدأ يوقع اتفاقيات الحد من التسليح النووى بعد وقوعه فى برائن العجوزين المحنكين ريجان وتاتشر التى كانت سبباً مباشراً فى سقوط الاتحاد السوفيتى فيما بعد لتأثيرها القوى على جورباتشوف، ومع خروج القوات الروسية من أفغانستان بهذه الهزيمة غير المتوقعة بالمرّة كانت الفرحة تعم شوارع انتصارهم.. انتصار الحلم الأمريكى ونهاية عصر الحرب الباردة وبداية عصر القطب الأوحده.

كان المهندس حسن من ضمن المدعويين فى بيت السيناتور، كان يريد أن يأخذ مكافأته التى وعده بها السيناتور عند هزيمة الروس وهى عقود إعادة الإعمار فى أفغانستان، وهو ما يمثل بداية إقامة أركان الدولة بسواعد المجاهدين بعد أن قاموا بجهادهم الأصغر ليكملوا المسيرة نحو البناء والتعمير وهو الجهاد الأكبر مثل مقولة النبى الكريم.

استقبلته أمريكا فى هذه الزيارة بعواصف وأعاصير تنبئ بشتاء قارص لن يحظى فيه بالدفع المنشود.

لقد رد السيناتور على مكالمته الهاتفية بعد أكثر من أسبوع قضاه فى أمريكا يحاول مقابلته دون جدوى. السيناتور فى اجتماع هام.. السيناتور سافر فجأة إلى واشنطن لمقابلة الرئيس.. السيناتور يقضى عطلة نهاية

الأسبوع فى منتجع كامب ديفيد...

حتى ظن أن ويليام يتهرب منه حتى فاجأه اليوم بزيارة منزله دون تحديد موعد فظنه الخدم أحد المدعوين لحفل السيناتور.

يتذكر آخر مقابلة له مع ويليام عندما استقبله بمكتبه بمنتهى الحفاوة وأخبره أن المستقبل القادم فى منطقة الشرق الأوسط سوف يكون للإخوان المسلمين.

تقدم من ويليام عندما كان يراقص زوجته:

- سيد ويليام!

إمتعض ويليام قليلاً عند رؤيته حسن، وابتسم له ابتسامة صفراء:

- سيد حسن أهلاً بك، آسف لأنى لم أتمكن من الرد على اتصالاتك.

ثم ترك زوجته لترقص مع جولدمان الذى جاء لتحية حسن ببرود.

- أعتقد يا سيد ويليام أن هناك ما ينبغى أن نتحدث بشأنه، خصوصاً بعد أن نفذت وعدى لك.

- عن أى وعد تتحدث يا حسن؟!

أخذه السيناتور إلى مكتبه داخل المنزل وقدم له سيجاراً كوبيّاً فاخراً، قبل أن يسأله:

- ماذا تريد يا سيد حسن؟ أنت ترى أن عندى بعض الضيوف.

- آسف.. لم أقصد أن آخذك من مدعويك يا سيد ويليام، ولكنك

وعدتني أنه بعد خروج الروس سوف تكون هناك ترتيبات لإعادة الإعمار وعقود المقاولات وبناء المدارس والمستشفيات... أليس كذلك يا سيد ويليام؟!

- نعم يا عزيزي الآن تذكرت. معك حق، ولكن هذا كما ترى ليس وقتاً مناسباً لدراسة مثل هذه الأشياء.

- إذن حدد لي موعداً آخر.

- أعطني أسبوعاً فقط وسوف أردد عليك.

أجابه حسن بشيء من الحسرة:

- أسبوع آخر.. لن أتمكن من البقاء في نيويورك لأسبوع آخر؛ عندي أعمال بكابلون ينبغي أن أنتهي منها.

- لا داعي لبقائك هنا سوف أتصل بك هناك.

- تريدني أن أعود! كيف لي أن أتصرف مع أكثر من مائة ألف مجاهد.. ولا أعرف ماذا سوف نفعل بهم؟!

- بسيطة دعهم يعودون إلى بلادهم يا سيد حسن.

- لقد وعدتني أن المجاهدين هم من سوف يعمر هذه البلاد بعد رحيل الروس عنها.

- يا عزيزي حسن أفغانستان ليست ولاية أمريكية نفعل بها ما يحلو لنا إنها دولة حرة ذات سيادة. تستطيع إن شئت أن تتفاهم مع الأفغان، هم أصحاب البلد ونحن من جهتنا سوف ندعمك عن طريق أصدقائنا

ثم اعتذر له السيناتور بأنه لن يتمكن من ترك مدعويه أكثر من ذلك، وتركه وانصرف.

سقط حسن بجثته الضخمة على المقعد الوثير في مكتب السيناتور لا يعرف ماذا سيفعل وكيف سينقل هذه الأخبار إلى مكتب القاهرة. وماذا سيفعل مع الشباب الذين ينتظرونه في قندهار وكابل بعد أن انفتحت شهيتهم للجهاد في سبيل الله!

وعلى طول الطريق من منزل السيناتور إلى الفندق الذي يقيم فيه كانت الأفكار تتزاحم وتتنافس للاستحواذ على اهتمامه: الطفولة عام ستة وثلاثين.. بداية المقاومة.. ضياع الأرض في عام ثمانية وأربعين.. تركه رام الله بعد النكسة عام سبعة وستين.. وداع هند من فوق سطح الباخرة...

هل تخلى عنها عندما تركها ورحل لا يعرف لنفسه وجهة ولا وطنًا؟ هل كان يجب عليه أن يبقى معها بعد استحواذ اليهود على المشهد؟ ألم يكن حريًا به أن يدافع عن حبه ويقاوم هذا السيناريو المفروض عليه؟!

هل سيرى هند مرة أخرى في حياته؟ أكيد أنها تزوجت وأنجبت أبناء.. هل كان يمكن أن يكونوا أبناءه هو رغم أنهم يحملون الجنسية الإسرائيلية جنبًا إلى جنب مع رفقائهم من اليهود؟

- أخى معين كيف هان عليك تسوى هيك.. الكنيست يا معين ليش ما بيكفى إنك عايش معهن.. لقد جلبت لنا العار يا أخى!
ولكن ماذا فعلت أنا هل كنت أفضل منهم؟! لا والله أنا أتعس منهم
بمراحل.

(٢٠) جلال أباد

بعد انتهاء الحرب فى أفغانستان فى نهاية عقد الثمانينات بانتصار المجاهدين الأفغان انتصاراً مدوياً، توقعت أن عودة حازم أصبحت وشيكة، إلا أنه لم يعد ولم يرسل خطاباً فبدأ القلق يستشرى فى نفسى عليه، وخصوصاً أن المهندس حسن لم يكن يعرف شيئاً عنه عندما سأله الشيخ يوسف الذى كانت صحته قد بدأت تتدهور من فرط قلقه على ابنه الوحيد.

إلا أنه وفى شهر مارس من عام ٨٩ جاءنى خطاب من حازم يخبرنى فى نهايته بقرب عودته إلى الديار ويطلب منى أن أطمئن أباه وأمه، وأن أسباب تأخره فى العودة ليست كما أشيع بسبب ملاحقة السلطات المصرية لكل من يعود من أفغانستان بمجرد وصولهم إلى مطار القاهرة وهى التى كانت تحفزهم على الجهاد فى أفغانستان فى أول الأمر، ولكن السبب فى تأخره يرجع إلى إصابته فى معركة جلال أباد الأخيرة التى تمت فى هذا الشهر وأنه يتلقى العلاج حالياً بالمستشفى الكويتى فى مدينة بيشاور الباكستانية.

ثم استرسل فى الحكى دون أن يخبرنى عن طبيعة إصابته:

مع هزيمة الروس الملحدون وخروجهم من أفغانستان تولت بنازير بوتو الحكم فى باكستان عقب اغتيال الرئيس ضياء الحق الذى أسقطت المخابرات الروسية طائرته فى شهر أغسطس من نفس العام.

وبدأت باكستان فى عهد بوتو فى انتهاج سياسة مغايرة مع المجاهدين على عكس ما كان سلفها.

فبعد خروج الروس وانتهاء خطرهم المحتمل في تهديد باكستان وكذلك نجاح الخطة الأمريكية كما رسمتها الـ CIA باقتدار والتي أسفرت عن الخروج المذل للقوات الروسية من أفغانستان، كان متوقعاً عندها أن ينفذ الأمريكان أيديهم من المجاهدين بعد سنوات من الدعم والمساندة عن طريق ربيبتهم المخابرات الباكستانية، لذا ينبغي تغيير الخطة في التعامل مع المجاهدين فبدأت باكستان في التضيق عليهم. وقررت تطبيق خطة محكمة للتخلص من هذا العبء الجسيم فأوعزت إلى قيادة المجاهدين بإعادة الهجوم على مدينة جلال آباد الفاتكة التحصين بعد مرور شهر على خروج الروس من أفغانستان وذلك لتطهير العاصمة كابول من بقايا الشيوعيين وإحكام سيطرة المجاهدين عليها.

وقد كان نتيجة ذلك مذبحة مروعة تعرضنا لها بسبب الوقوع في هذا الفخ المحكم.

لا شك يا أخى أنك تلاحظ تلك النبرة الحزينة والغصة الخائفة التي تعترض تدفق الكلمات.

فرغم انتصارنا الساحق على ثأنى أكبر قوة عسكرية فى العالم إلا أن ما كنت أخشاه قد تجلى أمامى وأبصرته بعينى.

أتذكر ما أخبرتك به من قبل عن الفتنة الوهابية وأن الأفغان لا يحبون الوهابية وأنهم سوف يتفرغون لقتال الوهابيين من زعماء الحرب بعد أن ينتهوا من الملحدين الروس؟ هذا بالضبط ما حدث.

لقد بدأ كل فصيل من المجاهدين يشكك فى الفصيل الآخر ويكفره.

وهذا ما تجلى تماماً عندما انضمنا لقوات حكمتيار لمحاربة

الشيوعيين بقيادة رشيد دوستم الموالى لحكومة نجيب الله الشيوعية.

كنت أحمل مدفعاً رشاشاً وبدأنا نشتبك مع الشيوعيين فى مدينة جلال
أباد التى يعنى سقوطها إخضاع أفغانستان كلها لسلطة المجاهدين.

إلا أنه وبينما المعركة دائرة، وبينما المجاهدون يحتشدون لاقترام
المدينة المحصنة إذا بقوات المجاهد أحمد شاه مسعود وهو الذى كان
مجاهداً مغواراً أيام مقاتلة الروس، إذا بقواته تتقدم مكتسحة مراكز
المجاهدين وأصبحت أرى ما لم أصدق أنه أو أتوقعه أبداً منذ أن وطئت
أقدامى تلك البلاد.

لقد اقتتلت طائفتان من المسلمين أمام عيني، هل كانوا يريدون
الاستيلاء على المدينة أثناء انشغال قوات حكمتيار فى القتال أم كانوا
يريدون عرقلة المجاهدين عن الوصول إلى المدينة إرضاءً للحكومة
الكافرة. وعندما أبديت ذعري واندعاشى مما يحدث، رد على أحد
الأفغان قائلاً أن أمراء الحرب لا يريدون الجهاد أو الإسلام وإنما
يريدون أن يصبحوا ملوكاً.

وبالطبع ما كنت لأشارك فى هذه الحرب القذرة وقررت الخروج
من جلال أباد إلى بلدة مهترلاب القريبة ثم العودة إلى كويته وقندهار ثم
الخروج من أفغانستان كلها، إلا أنه وفى طريقى للعودة مع صديقى بو
يحيى التونسى اصطدمت قدمه بلغم أرضى أرداه قتيلاً فى الحال بعد أن
طار بضعة أمتار فى الهواء. هرعت إليه غير مصدق لما حدث
والدموع تنهمر من مقالتى لكنه كان قد فارق الحياة بعد أن قسمه اللغم
إلى نصفين تقريباً.

كانت صدمة أفقدتنى النطق حتى شعرت بألم يعتصر فخذى الأيمن
والدماغ تنهمر منه نتيجة قطع طولى أحدثه اختراق شظية سببت تهتكاً

كاملاً لساقى.

وهذا ما كان سبباً فى تأخرى عليك فى هذا الخطاب، فقد أصابتنى غيبوبة استمرت أكثر من أسبوع بعد هذا الحادث.

المهم الحمد لله لقد أخبرنى الأطباء بإمكانية الخروج قريباً من المستشفى وعندها سوف أستقل أول طائرة للقاهرة إن شاء الله.

هل تشعر أننى قد أديت واجبى من التزامات الجهاد أم أننى أهرب من المعركة أم أنك تشمت بى لما حدث من اقتتال المجاهدين بعضهم لبعض؟

هل حققنا نصراً أم أننا أضعنا؟ هل كنا نجاهد فى سبيل الله أم كنا نريد الدنيا وملذاتها؟

إن ما يحدث الآن لهو خزى يمحو آثار كل نصر تحقق فى السنوات القادمة.

لقد لطحونا بالعار وأساءوا إلى الإسلام والجهاد أيما إساءة، لكن الله ناصر عبده ومعز جنده، وقادر على تحقيق النصر للمجاهدين فى سبيله بحق وليس هؤلاء.

(٢١) دور شطرنج

عاد حازم من أفغانستان محطماً يشعر فى داخله مشاعر مختلطة تجمع ما بين الاعتزاز بالنفس لأنه كان ترساً صغيراً فى هذه الآلة التى حققت النصر الكبير وطردت الروس الملحدين خارج أفغانستان الإسلامية. ولكنه فى نفس الوقت يشعر بنظرة شماتة لمحها فى عيون كل من قابلهم منذ عودته عندما سلمت أنا عليه كأننى أعزیه لا أعرف على ماذا.

لمحها أيضاً فى نظرة أبيه الشيخ يوسف الذى كان رافضاً سفره دون إذن، حتى ولو كان السفر للجهاد فى سبيل الله، هذه النظرة لم تكن بسبب سوء تصرف حازم بطبيعة الحال فهو يمثل روح النقاء الثورى الذى تعلمناه من جيفارا وماندیلا ولكن السبب الحقيقى لتلك النظرة الشامتة كانت بسبب ما وصل إليه حال أفغانستان من اقتتال بين المجاهدين رفض حازم المشاركة فيه بعد خروج الروس.

وهو ما جعل الجهاد يتحول إلى مصالح والمجاهدون إلى مرتزقة وهو ما يؤكد فكرة مؤامرة المخابرات الأمريكية فى استغلال الشباب المسلم لتحقيق مصالحها الخاصة وليس للجهاد من أجل فكرة عليا أو غاية دينية نبيلة، كما كان حازم وأمثاله يصدقون.

كان حازم يتوقع منا ونحن نزوره بعد عودته أن نهناه على انتصاره، لكنه كان فى حالة تحتاج إلى الرثاء لا التهئة!

بعد خروجنا من عنده لم يحدثه أبوه الشيخ يوسف فى شىء، إنما قال له أن العام الدراسى قد قارب على الانتهاء ولا بد أن يستعد للامتحان.

عاد حازم إلى غرفته لا يعلم سبباً للألم الذى يشعر به.. هل هو بسبب مكان الإصابة فى فخذه الأيمن أم فى معدته التى جفت من كثرة ازدراد الخبز الأفغانى الجاف، أم أنه الصداق الذى أصابه نتيجة سماعه المتكرر لأصوات الانفجارات أم أنه صغير أذنيه الملازم له منذ أن طار صديقه أمام عينيه فى الهواء مقتولاً من هذا اللغم الأرضى الخبيث.

إن شيئاً ما أصابه لا يدرى كنهه أو سببه لم يعد كما كان فى أول أيام الجهاد سعيداً مقبلاً على الحياة مستعداً للشهادة فى أى لحظة. لقد عاد أشلاءً ممزقة كما رأى صديقه التونسى فى الهواء أمام عينيه.

كان لسان حاله يقول ماذا لو كنت أنا سبقت بخطوة هل كنت أموت شهيداً أم أن هؤلاء المرتزقة الذين يقاتلون بعضهم بعضاً الآن طمعاً فى الدنيا سيحيلون جهادنا إلى عبث؟

ظل حازم خلال هذه الفترة على نفس الحال لا يبارح غرفته ولا يأكل طعاماً حتى جاءت أيام الامتحانات فذهبت إليه لكى أحثه على المذاكرة ومحاولة الخروج من هذه الحال التى يغوص فيها.

قابلنى بفتور وبعينين زائغتين. كنت أحمل معى قطع الشطرنج.. رصصتها على الرقعة أمامه.. لم يلتفت إلىّ حتى.

قلت له: المرة دى أنا حاغلبك.

- أنا خلاص بطلت العب.. قلت لك قبل كده ده حرام

حركت العسكرى الأبيض من أمام الملك خطوتين ثم أكملت:

- هى صحيح أصنام بس مش لازم نعبدها.. كفاية نلعب بيها.

ضحك حازم كأنه اكتشف أن الأمر لم يكن يستحق كل تلك المقاطعة للعبة التى عشقها فى طفولته وصباه، وجلس أمامى وبدأ يحرك أول قطعة.. عسكرى الوزير؛ حتى يجبرنى على الدفاع عن قطعتى التى لا يحميها شىء.

قال لى:

- هل تشعر أننى كنت مخطئاً مثلما يقول أبى؟!!

شردت قليلاً قبل أن أرد:

- لا لم تكن مخطئاً. لقد قمت بعمل بطولى لكنه لم يكن فى مكانه الصحيح هذا كل ما فى الأمر.

هنا وضعت حصانى مهدداً ملكه ووزيره فى نفس الوقت، حرك الملك محبطاً متأثراً بخسارته لوزيره وقال:

- واضح أن مهارتى فى الشطرنج قلت كثيراً.

- أبداً انت بس محتاج شوية تركيز وتفكير أعمق.

- عندك حق، أنا تسرعت شوية فى الخطوة دى.

هنا وضع فيله مهدداً وزيرى الذى من سوء حظّه أنه لن يتمكن من الحركة لأن وراءه الملك ولن أتمكن من حمايته.

- التفكير الأعمق يتطلب التعلم من الدرس وأن ما حدث ليس نهاية الكون.

لم أتمالك نفسى من الحزن على وزيرى الذى لم أتمكن من حمايته ثم أكملت حديثى:

- التجربة يمكن تكون إيجابية إذا اتعلمت واستفادت من أخطائها ومن أخطاء الآخرين أيضاً.. الإنسانية كلها وحدة واحدة، لا يجب التفريق بين تجربة وأخرى بسبب اختلاف الدين أو العرق أو الجنس.

- مش فاهم قصدك!

- يعنى لا يجب النظر إلى تجربة المجاهدين فى أفغانستان بعيداً عن تجربة جيفارا فى رحلته لتحرير أنجولا مثلاً.

- لكن جيفارا كافر وزنديق!

- التجربة النضالية واحدة لا فرق فيها بين مؤمن وكافر، فقد يكون جيفارا وماندिला كفاراً من وجهة نظرك ولكنهم مؤمنون من وجهة نظرهم ومن وجهة نظر العالم فكل المفاهيم الإنسانية للنضال واحدة ولا تتجزأ، لقد مات جيفارا وهو يناضل تماماً مثلما مات صديقك أبو يحيى.

تغير وجه حازم بلامح رافضة تماماً غير مقتنعة بما أقول:

- لقد مات أبو يحيى من أجل الشهادة والإسلام وليس من أجل وطن زائل أو حدود وهمية وضعها المستعمرون.

لم أجد ما أرد به عليه حتى لا تنتهى المناقشة بيننا بالخلاف كما هى عادتنا دائماً. وأثناء صمتى وانشغالى بكلامه كان قد وضع حصانه مهدداً ملكى.

- كش ملك.. مات يا حلو!

- طيب مش مهم.. المهم دلوقتي انك تنسى كل ده وتركز فى حاجة واحدة مذاكرتك وبعدها اعمل اللي أنت عايزه.

- أنت بقيت بتتكلم زى الشيخ يوسف.. ما تقلقش أنا فعلاً عايز انجح عشان أخلص من الشهادة دى عشان أفرغ بعد كده للشهادة الثانية.

جمعت قطع الشطرنج المتناثرة ثم ودعته ورحلت متمنياً له الهداية.

(٢٢) التوبة

فى هذه الاثناء كانت أمل تمر بمرحلة جديدة لها فى كلية الإعلام حيث بدأت علاقتها تتوطد مع شيماء الفتاة المنتقبة التى حاولت إبعادها من قبل عن الوقوف مع جونى وماريان؛ فكيف تقف معهم وهم يكفرون بآياتنا وينكرون وجود رسولنا الكريم! تقفين معهم وتتركين الأخوات فى المسجد اللائى يحبونك فى الله.. ألا تعلمين أن الكنيسة تدفع للشباب المسيحيين حتى يوقعوا بالفتيات المسلمات فى شباك الحب والعلاقات المحرمة والعياذ بالله؟! ألا تعلمين أن الدين ينهى عن كشف عورتك أمام فتاة على غير ديانتك حتى لا تذهب إلى شاب من ديانتها وتذكر له تفاصيل جسdek؟! تعالى معنا إلى المسجد حتى نصلى لكى يغفر الله لك تلك الذنوب التى طالتك من هذا الاختلاط المذموم الذى لا يحبه الله. الله ينهانا عن الوقوف مع الرجال المسلمين منعاً للاختلاط وأنت تقفين مع النصارى ده أنت مصيبتك كبيرة!

لم تكن أمل فى بادئ الأمر مقتنعة بأن جونى وماريان أصدقاء طفولتها فى مدارس الراهبات وفى نادى هليوبوليس يمكن أن تدفع لهم الكنيسة حتى يفعلوا بها شراً من أى نوع. أو لنقل أن تركيبها الثقافية والوسط الاجتماعى الذى تعيش فيه لم يتقبل فكرة أن ماريان تشاهد عورتها فى الحمام لتفصح تفاصيل جسدها بعد ذلك لجونى الذى سوف يحاول الإيقاع بها فى حبه أو يغتصبها فى يوم من الأيام لأن الكنيسة هى من تدفع له ليفعل ذلك بالفتيات المسلمات.

هذه الأفكار لم تكن لتلقى بالاً عند أمل، مثلما يمكن أن يحدث ذلك فى بعض الأحياء الشعبية والتى تبث مساجدها باستمرار التحريض على اجتناب النصارى فى الطرقات وعدم مصافتهم أو تهنتهم بأعيادهم.

أما أمل فقد تربت فى مدرسة راهبات، وماريان هى صديقتها الوحيدة وأخوها حنا أو جوى كما يحب أن يذكر اسمه، فقد تربت فى بيتهم وكانوا يأتون إلى منزلها كثيراً. لذلك لم تشغل أمل نفسها بالأفكار التى بثتها شيماء فى صدرها، ولكنها من ناحية أخرى كانت قد بدأت مرحلة من التقرب إلى الله بعد شعورها بالذنب الذى أعقب رسوبها فى العام الدراسى الأول نتيجة انشغالها بالحياة الجامعية واللهو والخروج المتكرر مع أصدقاء الشلة الجدد الذين تعرفت إليهم فى الجامعة، وكانوا يعيشون نمطاً تحررياً لم تكن أمل تعرفه من قبل بسبب الكبت الذى فرضه عليها أبوها.

كانوا يقضون أوقاتهم بمكان مخصص للرقص بأحد الفنادق بمصر الجديدة. لم تكن أمل ترقص معهم أو تشرب مثلهم البيرة أو حتى السجائر، لكن شيئاً ما بداخلها كان يدفعها لى تجرب هذه الحياة مع هذه الشلة المرحية. لكنها بدأت تشعر بالندم عندما علمت بخبر رسوبها فى السنة الدراسية الأولى بالكلية رغم تفوقها الدراسى السابق.

وخافت. ماذا سيكون رد فعل أبيها وأمها عندما يعلمان بهذا الخبر.. فلم تخبرهما ولم يسألها مما ضاعف أحزانها.. فكان رد فعلها عكسياً بترك هذه الشلة والتقرب من الأخوات حتى تعوض شعورها بالذنب.

ورغم تأثير شيماء الكبير على أمل فى تلك الفترة ونجاحها فى إبعادها عن الشلة وقضائها أوقات كثيرة مع الأخوات فى مسجد الكلية، إلا أن أمل لم تتقبل الكثير من أفكارهم المتشددة.. فكانت تصافح الشباب باليد وتحدث أحاديث مقتضبة مع ماريان، ولكنها أصبحت تبتعد تماماً عن جوى بالإيحاء النفسى حتى تعصم نفسها من احتمالية الوقوع فى حبه وتلبية رغبة الكنيسة! كما أنها -وعلى عكس باقى الأخوات- لم تكن تلتزم حرفياً بارتداء ما يعرف بالزى الإسلامى، وإنما كانت ترتدى

حجاباً زاهى الألوان يظهر بعض خصلات من شعرها البنى الناعم، كما كانت ترتدى الجينز الضيق.

بهذه المعادلة كانت أمل تحقق التوازن: ترتدى الحجاب إرضاءً للأخوات، ولكنها فى نفس الوقت تسير الموضة العصرية.

إلا أن الحاجة صفية والدّة حازم هي من وضعت نهاية هذا التوازن عندما ذهبت لزيارة الدكتورة سوسن فى إحدى الليالى، وكان محور الحديث مع الدكتورة عن أمل التى كبرت وأصبحت عروساً تُسيل لعاب الخُطاب.

ورغم الصراع الثقافى والحضارى بين السيدتين فإن الدكتورة سوسن كانت تحب الحاجة صفية جداً لتلقائيتها الشديدة ودمها الخفيف الذى كان يذكرها دائماً بالست أمينة زوجة سى السيد فى ثلاثية نجيب محفوظ. فكانت الدكتورة تسعد بزيارتها.. أما الحاجة صفية فكانت دائماً تطلب الهداية للدكتورة وتحثها على ارتداء الحجاب مثل ابنتها، وكانت تستشهد كثيراً بالشيوخ يوسف وحديثه عن المرأة السافرة التى سوف تعلق من شعرها يوم القيامة... إلى آخر هذه التهديدات التى لم تكن تلقى بالاً لدى الدكتورة سوسن بقدر ما كانت تثير ضحكاتها على صفية وسذاجتها المعهودة.

وعندما جاءت أمل لتسلم على الحاجة صفية وقامت الدكتورة لإعداد الشاي والكيك بدأت صفية تبت أفكارها فى أذن أمل بصوت منخفض، لم تعرف أمل سر انخفاضه!

قالت لها أن الحجاب الذى ترتديه غير مكتمل وأن الله لن يرضى عنها إلا إذا التزمت بالحجاب الشرعى كما أمرنا الله ويضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبيدين زينتهن.

- العرسان اليومين دول بيحبوا البنت المحجة المتدينة الملتزمة.

وفى تلك اللحظات عندما أحضرت الدكتوراة الشاى والكيك فطنت أن ابنتها هى محور هذه الزيارة.

قضت أمل ليلتها تعد قائمة طويلة من المشتريات تشمل العديد من أغطية الرأس والتتورات الفضفاضة الطويلة والبلوزات ذات الأكمام الطويلة، حتى تذهب فى اليوم التالى لشراء كل ذلك من محل سراييل القريب من بيتهم.

فى المقابل كانت الحاجة صفية تستعد لتنفيذ الجزء الثانى من خطتها بعد أن نجحت بامتياز فى الجزء الأول. فانتظرت حازم عند صعوده من صلاة العشاء وأعدت له بعض الفطائر التى يحبها وبدأت تحدثه عن أن قلبها راض عنه تمامًا وأنها تود أن تفرح به حتى يكتمل رضاها عنه.

- أنت تعلم يا حبيبى أن الزواج نصف الدين كما يقولون.

رد حازم مازحًا:

- إنت جيبا لى عروسة واللا إيه يا حاجة!

- أيوه يا حازم.. عروسة زى العسل بنت ناس وذات دين وتعرفها كويس.

استبد الفضول بحازم لكى يعرف كنه اختيار والدته لكنه لم يهتدِ إلى شىء، وحاول أن يثنى أمه عن الفكرة بأنه ليس مستعدًا بعد للزواج لأنه ما زال يدرس فى كلية الهندسة وأن الطريق لا يزال طويلًا حتى يقدم على هذه الخطوة.

ردت الحاجة صفية كمن يحل له المشكلة ويضيق عليه كل احتمال للهروب من فكرتها.

- اخطبها دلوقتى وبعدين الزواج يبقى بعد التخرج.

- طيب يا أمى مش لازم أشتغل وأحوش وأجيب شقة.

- يا ابنى أنا وأبوك ملناش غيرك وكل ده موجود.. ربنا يخلى الشيخ يوسف.

أحس حازم أنه وقع فى شرك لن يستطيع منه فكاكا.

- ومين العروسة دى يا أمى؟

- أمل... بنت عمك المهندس حسن.

- يا أمى ده برضو كلام.. أنا وأمل زى الإخوات!

- إخوات إيه يا حبيبى.. هى تجوز لك واللا لأ؟

- أيوه يا أمى بس أنا ما بتعجبنيش طريقتها فى اللبس.

- من الناحية دى اطمئن أنا كفيلة بيها.

- طيب والدكتورة سوسن اللى حتبقى حماتى؟!

- وأنت ما لك بيها؟ ليها زوج حيثحاسب عنها يوم القيامة.

- طيب يا أمى سيبينى أفكر.

- الموضوع مش عايز تفكير إحنا بكرة ناخذ الشيخ يوسف ونروح نخطبها لك.. وخير البر عاجله.

- طيب يا أمى اللى فيه الخير يعمله ربنا.

لم يتمكن حازم من النوم فى تلك الليلة وظل يفكر فى أمل بطريقة مختلفة عما كان يفكر بها من قبل، حتى شعر برغبة فى الاستغفار والاستعاذة من الشيطان الرجيم. وقام ليصلى الفجر ثم نام كما لم يفعل فى حياته من قبل.

(٢٣) زواج أمل

بمجرد أن دلف حازم مع والديه من باب شقة المهندس حسن ورأى أمل تخرج إليهم بالزى الإسلامى الكامل: تنورة فضفاضة تحف بالأرض وبلوزة داكنة اللون ذات أكمام تغطى كفيها ووجهها يغوص فى خمار أسود يغطى المنطقة العليا من جسدها بالكامل، حزم أمره على الزواج من أمل.

"اظفر بذات الدين" كما قال له الشيخ وجدى عندما أخبره أنه يهوى زميلة له فى الجامعة غاية فى الأدب والأخلاق لكنها غير ملتزمة.. قالها الشيخ وجدى ولم ينبس ببنت شفة.

هكذا بدأ حازم فى إكمال نصف دينه الثانى بالزواج بعد أن أتم النصف الأول بارتداء الجلباب الإسلامى وأداء كل الصلوات فى جماعة وتطويل اللحية حتى صارت تصل إلى صدره والمسبحة فى يد والسواك فى اليد الأخرى.

بذلك يبقى له النصف الآخر: الزواج من فتاة صالحة ذات دين ملتزمة فى طريقها لارتداء النقاب لا تختلط بالرجال لا يُسمع لها صوت لأنه عورة.

هكذا يكون قد أكمل دينه أمام الله وأمام الشيخ وجدى، ويكون قادراً على الجهاد الأصغر والأكبر من أجل إقامة الدولة الإسلامية التى يصبح أهلها جميعاً ملتحين ومنقبات ويسود فيها العدل والخير كما كان مجتمع المسلمين الأوائل.

كما شعر أنه بدأ يعانى كثيراً من مقاومة رغبته الجنسية التى تداهمه

باستمرار إذا وقعت عيناه رغباً عنه على جسد سيدة متبرجة تسير فى الشارع أو مشهد عار فى التلفزيون دون قصد منه، فبسبب له ذلك توتراً شديداً بسبب بعض الألم الذى كان يشعر به فى منطقة العانة بسبب تأخر حدوث الاحتلام الطبيعى الذى كان ينتظره بفارغ الصبر ليتخلص من أوجاعه وتوتره الجنىسى، رغم ما كان يحمله هذا الاحتلام من مشاهد مخلة مع فتاة، فكان ينهض ليتطهر كأنه قد مارس الفعل الحرام!

أخيراً سوف أرتاح من هذا العذاب سوف أمارس الممارسة الحلال بانتظام دون توتر.

ثم انقطع حبل أفكاره فجأة على وكزة من يد أبيه وهو يقول له:

- اتكلم أنت بقى يا عريس أنا خلصت كلامى.

فرد حازماً متعلثاً:

- أنا يشرفنى يا عمى انى أطلب إيد أمل وربنى يقدرنى وأسعدها.

تغيرت قليلاً ملامح المهندس حسن وأخذ يتأمل حازم قليلاً، وطالت فترة الصمت قبل أن يقول:

- على بركة الله يا ابنى أن مش حالاقى أحسن منك.

ثم وضع يده فى يد الشيخ يوسف وقرأ الفاتحة، واحتضن الرجلان بعضهما كأنهما يقولان أن صداقتهما الوطيدة سوف تكتمل بالمصاهرة.

لم يكن المهندس حسن راضياً تماماً عن هذا الزواج؛ فقد كان يرغب أن تتزوج ابنته من أحد شباب الإخوان أو أحد أبناء الأثرياء من طبقته، إلا أنه اضطر إلى ذلك عندما لمح تلك النظرة المحبة فى عين أمل تجاه

كذلك كانت موافقته نكاية في زوجته التي لم تكن ترضى عن هذا الزواج لشعورها بالفارق الطبقي الكبير بين العائلتين، لكنها هي الأخرى لم تتمكن من الصمود كثيراً أمام رغبة ابنتها الوحيدة.

نزل على الخبر كالصاعقة. لم أتمكن من النطق من الدهول وشردت ببصرى قليلاً قبل أن أهنيء حازم الذى كلمنى هاتفياً ليبلغنى بالخبر. ألف مبروك يا حازم انت إنسان كويس وتستاهل كل خير.. ثم أغلقت الخط ودخلت فى حالة من الصمت لمدة أسبوع كتائه وجد نفسه دون إرادة منه يمشى فى عمق نفق مظلم لا تظهر نهايته ولا مجال للعودة لنقطة بدايته.

ما معنى هذه الحياة التى تسلبنا الفرح والمشاعر الحميمة لتصفعنا دائماً بأخبار الحزن وفقد ما نحب ونتمنى، كيف لا تتحقق معادلة الحياة إلا من خليط عناصر غير متوافقة إلى هذا الحد! أنا أحب أمل وهى تحب حازم وحازم لا يحب أحداً.. تفاعل كيميائى محبط قد يفجر المعمل عن بكرة أبيه.

استشعرت أمدى حالة الصمت التى ألمت بى حاولت أن تخرجنى من هذا الشعور المعتاد الناتج عن الصدمات العاطفية.. أرغمتنى على ارتداء ملابسى بالقوة، ذهبنا إلى حديقة الميريلاند التى كنت أعشق التنزه بها عند الصغر. كانت متنزهاً رائعاً تتوسطه بحيرة تلهو بها بعض أسراب الطيور، كذلك كانت تتميز ببعض المركبات المائية ذات البدالات. وهو ما كان كفيلاً بإحداث حالة من النشوة والسعادة لنا، ونحن صغار كنا نجرى أنا وأمل ونختبئ هنا خلف هذه الأشجار أو نلعب الكرة فوق هذه المروج الخضراء.

بدأت أُمى الحديث عن الشاب الذى أحبته وهى تلميذة فى المرحلة الثانوية عندما كانت الرومانسية تسرى مع نسمات الهواء فى تلك الفترة التى دشنتها فى قلوبنا أغانى عبدالحليم حافظ.

كان فتى وسيمًا، طالبًا فى الكلية الحربية يأسر عقول وقلوب فتيات حتى السيدة زينب كلما غدا أو راح فى شوارعها وحواريها العريقة التى تحمل الكثير من عبق الأصالة والسحر. تعرفت عليه فى حفل ميلاد أخته التى كانت صديقتى بعدها تعلقنا ببعضنا كتوأمين.. كنت أنتظره فى الشرفة كل يوم خميس منذ الصباح، عندما يدخل إلى شارعنا بزيه العسكرى الرائع كان يشبه عبدالناصر أو هكذا كنت أظنه.

نخرج دائمًا فى إجازته الأسبوعية لنملا فراغ القاهرة سيرًا ولهواً، نغوص بين الناس نلثث وراء حلم السعادة. قضينا سنوات من الحب والمشاعر النبيلة حتى ظننا أن الشوارع تسعد بنا عندما نسير فيها.

كان أول رجل فى حياتى وكنت أنا حبه الأول والأخير..

- ماذا حدث يا أُمى؟!

- تعاهدنا على الحب واتفقنا على أن يطلب يدى بمجرد تخرجه من الكلية الحربية ثم...

- ثم ماذا؟

- أبدًا يا ولدى قامت الحرب وانتزعت الهزيمة منى الفرحة والسعادة.. تم إرساله إلى الجبهة ولم تكن ظروف النكسة تسمح بالتفكير فى الحب والزواج، وفى إحدى عمليات حرب الاستنزاف...

بكت أُمى عند هذه اللحظة كما لم أرها تبكى من قبل حتى على وفاة أبى نفسه.. مسحت دموعها وربتُ على كتفها ولم أجبرها على إكمال قصتها. شربنا رشفة من عصير البرتقال وأكملت حديثها بأحبال صوتية ترك الزمن آثاره فوقها:

- لا أريد أن أرى الحزن فى عينيك فالحياة أمامك طويلة ولا مفر لنا من الحزن والفراق فهما سنة الحياة.

ثم غابت عنى ببصرها قليلاً كأنما تتأمل شيئاً بعيداً. تحدثت عن أبى وعلاقتها به التى تطورت من الحب الهادئ لزميل عمل كان يشاركها أفكار المرحلة الاشتراكية وأحلام الفترة الناصرية إلى تجربة الزواج الملهمة إلى مشاعر عادية روتينية بعد ولادتى. ثم بدأ التوتر بينهما بعد وفاة عبدالناصر بسبب إعاره السعودية وانفتاح السادات.. حتى تبدلت تلك المشاعر تماماً فى عهد مبارك، لكنها كانت تذكر له بعض اللحظات الحميمة: كيف كانت أول قبلة بينهما، كيف كانت أحلامهما المشتركة بسيطة وغير متكلفة، كيف كان فيض سعادتهما غامراً لحظة قدومى للحياة فى بداية السبعينيات، المشقة التى كانا يعانيان منها فى تسيير احتياجات البيت لقلة دخلهما؛ مما اضطر أبى لقبول الإعارة والسفر إلى السعودية رغم احتمالية خسارته للترقية التى كانت قريبة منه جداً فسافر رغم معارضة أُمى، وهنا بدأ التوتر يدب بينهما.

- الحياة يا ابنى يوم حلو ويوم مر.. ما فيش حاجة بتبقى على حالها. لا حب بيفضل ولا حزن بيفضل. ربنا شايل لك السعادة عنده وحتلاقيها قريب إن شاء الله.

(٢٤) الخطوبة

كان حازم يزور أمل فى شقتهم كل يوم جمعة عقب الصلاة كما يفعل غالبية الخاطبين.. ترحب به الدكتورة سوسن بدون حماس عندما تلمح أكياس الفاكهة التى يحضرها معه. تتحدث لنفسها: ألم يكن فى مقدوره أن يحضر باقة ورد أو علبة شيكولاته مثل أولاد الناس، من أين سوف يتأتى لابن الشيخ يوسف والحاجة صفية أن يتحلى بهذه اللياقة وآداب الإتيكيت! اللعنة على الحب الذى جعلنى أنا وابنتى نرضى برجلين أقل فى الدرجة الاجتماعية بهذا الشكل.

- ادخل يا حازم أمل فى انتظارك فى الصالون.

كان حازم ينظر إلى الأرض، عندما أشارت له الدكتورة السافرة بالدخول، حتى يغض بصره بعيداً عن ذراعيها العاريتين وصدرها البارز، ولكنه لم يتمكن من إلقاء السلام على أمل التى كانت هى الأخرى ترتدى ملابس غير لائقة من وجهة نظره؛ أولاً لعدم وجود والدها بالبيت، وثانياً لما تتطلبه الخلوة الشرعية بينهما فى لحظات غياب الأم من عدم حدوث أى نوع من الإثارة الجسدية التى قد تستتبع تجاوزات لا يمكن تخيلها.

فأشار لأمل أن تدخل لتغيير ملابس البيت التى ترتديها وسط ذهول الأم وابنتها التى كانت رغم ذهولها سعيدة لأن حازم بهذا التصرف يحافظ عليها كزوج يتحلى بأخلاق الإسلام القويمه. علقت الدكتورة:

- يا حازم إنت متربى مع أمل من ايام ما كنتو صغيرين.. اعتبر نفسك فى بيتك.

- شكرًا يا دكتورة.. أنا بس محرج عشان المهندس حسن مش موجود.

- لا يا حبيبى لا داعى للإحراج.

ثم عادت أمل للصالون مرتدية عباءة سوداء وغطت شعرها بوشاح أبيض.. فتهلل وجهه حازم وهو يقول:

- ما شاء الله أيوه كده.

ثم بدأ يحدث أمل عن أن جمال المرأة يكمن فى احتشامها وأن ذلك هو وحده ما يصون جمالها وأخلاقها ويقربها إلى الله. ثم اخذ يحكى لها عن زوجات الرسول السيدة خديجة وعائشة وأم سلمة وكيف كان الرسول يدللهن ويحسن معاملتهن وكيف كن زوجات صالحات يحسنّ القيام بدورهن على أكمل وجه.

كانت هذه المقدمة الدينية هى ما يبدأ به حازم لقاءه الأسبوعى مع أمل التى كادت تطير من فرط السعادة بحازم، الذى ارتبطت علاقتها به برحلتها الذاتية فى التقرب إلى الله، فتحولت لقاءات الخطوبة الأسبوعية بينهما إلى حديث عن أمهات المؤمنين وفضل الحجاب ومكانة الزوجة الصالحة وهذا العالم الزاخر بالروحانية والطهارة، يقطعها حازم أحياناً بنزوله لأداء الصلاة فى الجامع عند سماعه أذان العصر ثم المغرب.

كذلك كانت الدكتورة تقطع حديثهما الدينى ببعض الأحاديث الدنيوية المعتادة عن الشقة التى بناها له الشيخ يوسف فوق شقته والتى يتم تجهيزها، وألوان ورق الحائط والموكيت والستائر وغرفة النوم البلاكار والصالون المذهب وأهمية النيش المكمل لغرفة الطعام... إلى آخر هذه الأشياء التى كانت تهتم بها الدكتورة، وقد حرص حازم إرضاءً لها على

تلبيتها تمامًا كما تريد حماة المستقبل. بينما لم تكن أمل تهتم مطلقًا بأى من ذلك.

كانت أمل مأخوذة بهذا العالم الذى يدخلها حازم فيه.. زوج مثالى ذو أخلاق ووسامة رغم إطالته للحيته.. رياضى وقوى ومتدين يجعل من عش الزوجية محرابًا للصلاة وتلاوة القرآن، بيت تحفه الملائكة كما أخبرتهم الشيخة حسناء الفنانة المعتزلة عن اختيار الزوج المتدين الملتحى، سيماء فى وجهه من أثر السجود.

لعلها الآن تستطيع أن تكفر عن الفترة المنحلة من حياتها التى عاشتها فى العام الماضى مع تلك الشلة المنحلة الذين لا يشغلهم فى الحياة غير الغرائز والرقص وشرب الخمر. عجبًا لهؤلاء كيف لا يستشعرون حب الله ورحمته فى قلوبهم ويهجعون للتطهر والصلاة والدعاء له بالمغفرة. إنهم محرومون من تلك اللذة التى لا يستشعرها إلا قلب أناره الله بحبه وطهره بالإيمان والخشوع.

لم أكن بطبيعة الحال على اتصال بأمل بعد خطبتها لحازم، حيث إنه طلب منها عدم الاختلاط بالرجال الغرباء وحتى لو كانوا أصدقاء أو زملاء دراسة تطبيقًا للأحاديث الشريفة، التى كانت تحظر على الناس الحديث لزوجات النبى إلا من وراء حجاب درءًا للفتن والمعصية. إلا أنها زارت أُمى فى أحد الأيام لتطلب منها المشاركة بمبلغ للتبرع به لأهالى غزة الذين تهدمت مدنهم وقراهم وقت الانتفاضة وهو ما دأب مشاعر القومية العربية وحلم تحرير فلسطين التى كانت أُمى لا تزال تحتفظ بها فى ذاكرة متعبة لم تنضب بعد بفعل اتفاقيات السلام وكامب ديفيد والتطبيع. وعندما ذهبت أُمى لإحضار المبلغ من الداخل كنت أنا أفتح باب الشقة بعد عودتى من الكلية، لم أصدق المفاجأة التى كانت كفيلة بتهلل عضلات وجهى من السعادة صاحبها شعور طاغ من الخجل

على وجه أمل وهى تغطى شعرها بعد أن كانت حاسرة.

رحبت بها ومددت يدي بالسلام إلا أننى لم أكن بعد قد تعودت على عدم تقديم يدي لمصافحة الفتيات كما أصبحت العادة فى مجتمعنا بعد ذلك، حتى لا تعرض نفسك لموقف أكثر إحراجاً يتجلى فى إعلان الفتاة أنها لا تصافح الرجال عملاً بحديث ضعيف يرفض لمس المرأة لأى رجل (لأن يطعن فى رأس أحدكم بمخيطة من حديد خير له من أن يمس امرأة لا تجوز له)، فنبهتني أمل بصوتها الهادئ العذب أنها لم تعد تصافح.. فسحبت يدي مأخوذاً من الحرج ثم حاولت مداراة الأمر بسؤالها عن حازم فقالت الحمد لله كله تمام.

قطعت أمتى حاجز الصمت بيننا عندما أحضرت المبلغ المتبرع به، وهى تقول:

- شوفت أمل وجمالها بتجمع فلوس للفلسطينيين فى غزة عشان أبو عمار يقدر يحارب إسرائيل.

سألتها عن الجهة المسئولة عن ذلك.

قالت بدون توضيح:

- إنهم بعض رجال من عرب سينا من معارف والدها يتولون توصيل الأموال لغزة عندما يتم فتح المعبر.

لم يكن عصياً على فهم أن هذه الأموال طالما أنها سوف تدخل غزة عن طريق والدها المهندس حسن، فإنها بالضرورة سوف تذهب لمنظمة حماس الإسلامية، وأنها لن تذهب لأبو عمار كما تمننت أمتى.

ودعناها أنا وأمي بسلام هذه المرة من جانبي ونزلت معها لتوصيلها
إلى بيتهم مودعاً أحلامي وذكريات طفولتي وصباى المنحوتة بين
وجنتي هذه الفتاة التي لم أحظ بها يوماً.

(٢٥) ليلة الدخلة

كان الحياء يسيطر تمامًا على المشهد عندما أغلق حازم باب الغرفة مهيبًا الأجواء للخلوة الأولى التي تجمعهم بزوجته على سنة الله ورسوله.

ما إن ولجت أمل من باب الغرفة حتى جلست ساهمة على طرف السرير الأيمن. حاول حازم أن يكسر الحاجز الجليدي الذي حال بينه وبين تنفيذ ما كان يتخيل فعله مع أمل في أول خلوة شرعية تجمع بينهما.. يقبلها في جبينها ثم يخلع عنها الطرحة البيضاء، كما ظل مختزنًا في عقله الباطن كما في الأفلام السينمائية التي أحجم عن رؤيتها الآن.

أخذ يتخيل وهو يجلس على الطرف الآخر من السرير ماذا يكمن تحت هذا الرداء الأبيض لعله يكشف من الخبايا ما لا أذنه سمعت ولا عينه رأت. إنها اللحظة التي ظل ينتظرها أعوامًا طويلة كان يكابد فيها نفسه الجامعة التي اعتاد السيطرة عليها بالرياضة في سنوات مراهقته الأولى ثم بالصيام منذ أن أعلن عن التزامه الديني بتربية اللحية وارتداء الجلباب.

لم يكن حازم رغم تفوقه الدراسي والعلمي بقادر على سبر أغوار هذا العالم الخفي المحير: عالم الجنس. لم يكن يحتك بالشباب أصحاب التجارب في هذا المجال لأنهم غير ملتزمين دينيًا، كما أنه لم يكن يشاهد أفلام البورنو التي تربي عليها جنسيًا معظم شباب جيلنا المحروم؛ لأنه كان يعتبرها رجسًا من عمل الشيطان وكنا نحن نحللها بأن الضرورات تبيح المحظورات.

لذلك لم يستعد حازم لهذه اللحظة التاريخية في حياته إلا ببعض

الأدعية المرتبطة بالزواج والجماع، التي يقولها الزوج قبل اللقاء الحميم حتى يتقى شر الشيطان في هذه اللحظة الأثيرة. إلا أنه قرأ كتباً في التراث الإسلامي كانت تتحدث عن الحب ككتاب طوق الحمامة لابن حزم وعودة الشيخ لصابه، وكانت هذه الكتب تتحدث عن الحب والعلاقات الزوجية، وتصف بعض الأوضاع الحميمة عند الجماع.. كان حازم يتخيلها فقط ولكنه لم يتصور قط أن تسمح له أمل بفعل ذلك معها.

في البداية حاول تهدئتها وهي تدارى عينيها عنه بخجل أنثوى معروف في مثل هذه الظروف قرأ على رأسها الفاتحة والمعوذتين حتى تماكنت نفسها وأخبرته برغبتها تغيير ملابسها في الحمام.

خلع هو ملابسها وارتدى جلباب الزواج الذي كان يفضلها عن البيجامة الحريرية التي جلبتها له حماته كهدية زواج قبلها مضطراً رغم علمه بعدم وجود أى نية لديه في ارتدائها.

انتظر عروسه وهي تخرج من الحمام مرتدية قميص النوم الذي لم يكن مكشوقاً تماماً كما كانت تريد الدكتور سوسن ولكن أمل استبدلت به قميص نوم أبيض طويل يغطي قدميها مفتوح قليلاً من جانب الرجل اليسرى، يظهر ذراعيها وصدرها تماماً إلا أنها ارتدت فوقه روباً أحمر غطى كل هذا السفرور الفاحش حتى تتمكن من أداء صلاة العشاء مع حازم قبل النوم. بعد الصلاة سألتها إن كانت تريد أن تأكل شيئاً لكنها أجابت بالنفي متحججة بالصداع والرغبة في النوم.

لم تكن إجابتها مريحة لحازم الذي كان قد هيا نفسه لأن يسبر أغوار هذا الروب الأحمر الذي ترتديه أمل، إلا أنها دخلت إلى السرير مرتدية الروب ولم تخلعه.

حاول حازم بعد أن أنهى صلاته ثم عشاءه البسيط ملاطفة الزوجة كما أمرنا الرسول الكريم، إلا أن الزوجة كانت تتمتع ببعض التسابيح التي جعلته غير قادر على محادثتها حتى فقد الأمل فأوى إلى فراشه مؤجلاً اللقاء الموعود. لعلها تشفى من صداها وخجلها في آن واحد.

إلا أن أمل لم تذوق طعم النوم في تلك الليلة وكانت تنتابها هواجس لم تكن تتصورها. فأمل كانت هذه الفتاة الخجول التي يحمر وجهها خجلاً عندما تتحدث صديقاتها في مثل هذه الموضوعات خصوصاً المتزوجات منهن، حتى أنها كانت تتسحب من مثل هذه الأحاديث. أما ذروة ثقافتها الجنسية فكانت عندما شكت لها إحدى صديقاتها المتزوجات حديثاً من زوجها العنيف الذي كان يفتخر بعنفوانه وقوته أثناء الجماع كمؤشر على فحولته الشديدة وذكوريته المبالغ فيها ليُدَارَى بها عيباً أساسياً يعاني منه وهو سرعة القذف، فكان يوهم زوجته الرقيقة بأنه لم يقذف وأنه يريد المزيد رغم أنه قد انتهى فعلياً، فكان عنفه ليشتت انتباهها عن مشكلته الأساسية وهو ما أوحى إلى أمل التي كانت تعرف هذا الزوج وتجد فيه شاباً رومانسياً رقيقاً تحولت صورته في ذاكرتها إلى النقيض تماماً بعد حكايات صديقتها عن معاناتها الجنسية معه والتي أدت لحدوث رضوض في جسدها والتهابات في فرجها حال دون شعورها الكامل باللذة طيلة زواجها القصير، أحست أمل أن كل الرجال مثل هذا الزوج العنيف وأنها تخاف من تلك اللحظة التي أسمنتها لحظة الاختراق الدموي. بالإضافة إلى أنها لم تكن تتخيل أن تصدر من حازم مثل هذه الأفعال الجنسية المحرمة فكما كانت علاقة خطوبتهما الإسلامية الممتدة لبضعة أشهر بكرة لم تعكر صفوها لا قبلة واحدة ولا حتى لمسة يد كانت أمل تتوقع أن يظل الزواج على نفس المنوال.

لم تكن أمل تبالي في حب الجنس كما بعض الفتيات اللاتي يتزوجن فقط طمعاً في الأحضان الدافئة والقبل الملتهبة، كانت نفس أمل تعف

عن مثل هذه الأشياء خصوصاً فى مرحلة التزامها الدينى، وتأكد لديها هذا اليقين عندما سألتها أمها أيام الخطبة عما إذا كان حازم قد تجرأ وقبلها أو لمس يديها.. خجلت من أمها ولم ترد وقالت:

- أنا وحازم لا نفكر بمثل هذه الطريقة!

رغم أن حازم كان يذكر لها أثناء الخطبة الأحاديث والآيات التى تتحدث عن العلاقة الزوجية والسكن إلى الزوجة وحسن المعاشرة، ثم كان يحدثها عن نشوز الزوجة وهجرها فى المضاجع وضربها إن استلزم الأمر فكانت تفهم هذه الآيات خطأ، لماذا يكون على الزوج فقط هجر زوجته فى المضاجع وضربها كلما أخطأت؟ لماذا لا تكون الزوجة هى الأخرى قادرة على هجر زوجها إن أخطأ فى حقها؟! هى نفسها لا تريد هذه العلاقة أصلاً حتى لا تعاقب بها.

كانت معاناة أمل تتم عن مجتمع مغلق لا تتم فيه مناقشة مثل هذه الموضوعات بطريقة علمية بعيداً عن الأهواء والانفعالات المرتبطة بالنشأة الشرقية التى تحابى دائماً الرجل وتحط من قدر المرأة.

سافرا فى اليوم التالى للزواج مباشرة إلى شرم الشيخ.. نزلا فى فندق يحيط شاطئه بمياه البحر الأحمر الزرقاء الصافية التى جعلت أمل أسيرة رماله متأملة أمواجه الهادئة طيلة أسبوع شهر العسل لا تغادره إلا لتناول الطعام أو لقضاء الحاجة.

بينما كان حازم يكثر البقاء فى الغرفة لقراءة القرآن أو فى الجامع النائى فى أطراف الفندق لأداء الصلاة والإكثار من التسابيح حتى يتمكن من غض البصر عن الشر والموبقات من وجهة نظره التى يضج بها شاطئ الفندق ومبنى استقباله من نساء كاسيات عاريات لا تستر أجسادهن إلا قطعتان والعياذ بالله! إنها علامات القيامة.

لم يكن حازم يرى أن هؤلاء النساء لم يفكرن قط فيما يفكر فيه أو حتى من وجهة نظر مجتمعنا الشرقي المحافظ بطبعه والذي يفسر هذا السفور بأنه مرتبط بالانحلال والعهر، هؤلاء النساء يرتدين نفس الملابس في أى مكان آخر في العالم سواء كان ذلك على شواطئ الشرق أو الغرب، لكن حازم المتحامل عليهن كان يرى أنهن يمثلن مؤامرة الغرب الكافر على الإسلام لفتنة الشباب المسلم والتغريب به ليقع في براثن الغواية والفعل الحرام.

لماذا حجز لنا المهندس حسن هذا المكان الشيطاني؟ لقد طلبت أن نذهب إلى شقتنا في المعمورة أو في مرسى مطروح بعيداً عن هذا الفحش.

كيف لهؤلاء الشباب المسلم أن يكونوا ثابتين إلى هذه الدرجة أثناء خدمتهم لهؤلاء السافرات والأزواج الديوث؟ لا بد أن كثرة ممارسة الفعل الحرام هو ما جعلهم يعتادون على هذه الحياة الفاحشة والعياذ بالله!

لم يكن يخطو خطوة واحدة إلى حمام السباحة أو الشاطئ حتى لا تقع عيناه على هذه الأجساد الحرام، فقط كان يعلم أن جسد أمل الحلال مغطى عن عيون كل الرجال، وأن هذا الجسد ينتظره لكي يغزوه قريباً عندما تتخلص أمل من خجلها الذى طال عن الحد الذى توقعه. فلا بد أن يطفئ لهيبه الذى زادت حدته بفعل هذا الوكر الداعر الذى يسمونه فندقاً! سامحك الله يا حماى العزيز (لم يكن حازم يعرف أن حماه العزيز شريك في هذا الوكر الداعر على حد وصفه).

أما أمل فلم تكن تفكر بنفس طريقة حازم رغم أن أجساد الرجال العرايا كان من المفروض أن تثير رغبتها هي الأخرى، إلا أن تأملها

فى جمال الطبيعة وبدائع خلق الرحمن كان له التأثير الأكبر عليها فى هذا الأسبوع المسمى خطأ شهر العسل.

فبينما كان أسبوع شقاء وعذاب بالنسبة لحازم كان فترة لتصفية الذهن والتأمل والتقرب من الله بالنسبة لأمل التى كانت تقضى أوقاتها على شاطئ العراة مرتدية عباءة سوداء تستر جسدها كله حاملة المصحف فى يد ومسبحة فى اليد الأخرى. وكانت كثيراً ما تنفصل عن عالمها الخاص هذا كلما لفت انتباهها بعض صخب الموسيقى ولهو السياح، إلا أنها كانت دائماً تدعو لهم بالهداية على نقيض نظرة حازم لهم باعتبارهم فجارا وكفرة يجب التخلص منهم.

أصر حازم على قطع الإجازة قبل أن تنتهى والعودة فوراً إلى القاهرة حتى يرحم نفسه من هذا العذاب المزدوج الذى يحظى به فى هذه الرحلة الملعونة، والذى تمثل فى مقاومة رغبته الجامحة وغض بصره عن رؤية السافرات على الشاطئ، من ناحية ومن ناحية أخرى رغبته فى ممارسة حلالة التى تكسرت على عدم مشاركة أمل له فى نفس الرغبة على الرغم من مرور أسبوع على زواجهما.

لكن أمل كانت تعيش حالة فريدة من التصوف ونقاء السريرة مما جعلها تهدأ قليلاً وتطرد الأفكار السيئة الشريرة التى كانت سبباً فى عدم رغبته فى ممارسة الجماع مع حازم فشعرت بأن واجبها كزوجة يحتم عليها الإقدام على هذا الفعل الطبيعى، وأكد أن حازم المتدين الذى يخاف الله لن يكون سلوكه بشعاً كزوج صديقتها.

عندما خرجت أمل مرتدية قميص نومها الشفاف الذى ارتدته ليلة الدخلة.. لم يتمكن حازم من كبح جماح نفسه اللاهثة.. احتضنها برفق وأخذ يمسح وجهها وشفتيها بوابل من القبلات حتى استسلمت له تماماً

قبل أن تنام على ظهرها تاركة له جسدها البكر لى يكتشف أسرار ه
ويخلق فى سمواته ويعبث فى أنحائه كما يحلو له حتى بدأت تشعر
بالنشوة التى تسبق ذروة الأورجازم.

إلا أن حازم فى هذه اللحظة وبعد أن خلع عنها كل ملابسها بالكامل
لم يتمكن من التحكم فى نفسه وقذف قضيبه قبل لحظات من إيلاجه فى
فرجها.. عندها شعر بالتعب وألقى جسده بجوارها وهو يعبث بيده فى
قضيبه حتى أنهى متعته بعيدًا عنها بينما كانت هى تتلوى إلى جواره فى
انتظار من يطفئ لهيبها الذى لم ينته إلا بالعبث بيدها حتى قذفت هى
الأخرى بدون متعة حقيقية.. وذهبت للحمام لتغتسل وهى ما زلت بكرًا
رشيديًا لم يطمسها إنس ولا جان.

بينما كان حازم يغط فى نوم طويل بعد تجربته الأولى الفاشلة ليس
فى الجنس فقط لكنها أول مرة يفشل فيها فى حياته الموسومة دائماً
بالنجاح والتفوق.

(٢٦) أعمال المنزل

لم تكن أمل تلك الفتاة المدللة ابنة الدكتورة سوسن والتي كانت تقضى معظم أوقاتها مع صديقاتها فى نادى الجزيرة تلعب التنس أو تركب الخيل، إنها تدرك الفارق الجوهرى بين حياتها تلك وبين حياة الزوجية بكل ما تقتضيه الثانية من التزام وواجبات ومشاركة لزوج كان همه الأساسى عند اختيارها حديث الرسول الكريم: فافظر بذات الدين.

فكيف تكون ابنة أحد القيادات البارزين لجماعة الإخوان المسلمين والداعم للمجاهدين غير ذلك، وخصوصاً أنها ترتدى الزى الإسلامى الفضفاض ولا تضع المساحيق أو تصافح الرجال، الذى كان متوقعاً من أمل التى لم تدخل المطبخ طيلة سنوات عمرها حتى ولو لإعداد كوب شاي أو طبق كورن فليكس أو حتى بيضة مسلوقة، فلماذا تهتم بمثل هذه الاشياء وداده عزيزة موجودة تعد لها ما تحتاجه فى ثوانى. وهو بالطبع ما لم تعترض عليه والدتها كما تفعل معظم الأمهات اللائى يردن أن تتعلم بناتهن فن الطهو والأعمال المنزلية قبل الزواج إلا أن الدكتورة سوسن كانت مثل ابنتها تماماً تعتمد على دادة سيده التى كانت تعد لها كل ما تحتاجه هى الأخرى حتى كوب الماء.

فكيف لها أن تغيير هذا النمط العائلى المتوارث؟!

كل ذلك انعكس بشكل طبيعى على بيت الزوجية الناشئ حديثاً بين حازم الشاب المتدين ابن الطبقة الوسطى الذى يحلم بزوجة تكون سكناً له كما ورد فى الآية القرآنية وبين أمل ابنة الذوات التى بدأت رحلتها مع الالتزام الدينى وتريد أن تصل إلى ما كانت عليه زوجات الصحابة فى مجتمع البعثة النبوية من طاعة الزوج والقيام بواجباتها الزوجية إلا أن بيت الزوجية وبعد مرور شهر واحد فقط على الزواج كان أقرب

إلى حظائر الحيوانات على حد تعبير الحاجة صفية عندما امتنعت عن زيارة ابنها بسبب عدم نظافة البيت. الفراش غير مرتب والبطاطين تختلط ببعضها بكل أنواع الملابس والأحذية مبعثرة على الأرض وكل فردة حذاء تبحث عن رفيقة دربها يصل بينهما في أغلب الأحوال بعض الجوارب المهملة التي تشتاق لملمس الماء والصابون. غرفة الجلوس لم تكن أفضل حالاً فقد كانت المقاعد محتلة بالجرائد والمجلات والأرض تملأها بقايا الطعام وقشور اللب أما منضدة الوسط فتئن من كثرة الأطباق والأكواب المتسخة منذ أيام.

فوجئ حازم بعد عودته من الخارج بمنظر المطبخ وقد ازدحمت به الأواني المتسخة التي كانت أمل ترسلها لداده عزيزة لتغسلها ثم تعيدها مملوءة بكل أنواع الطعام التي تحبها، كذلك كان الحوض ينفجر من كثرة ما يحتويه من أطباق وأكواب متسخة، حتى أن حازم لم يجد كوباً واحداً ليشرب فيه الماء، ثم لمح بعض الحشرات تعبت ببعض بقايا الطعام في أحد الأطباق المهملة. حتى فقد أعصابه تماماً وصرخ بأعلى صوته في أمل التي كانت لا تزال نائمة في غرفتها كما تعودت دائماً في بيت أبيها أن تنام حتى الظهر وتسهر طول الليل.

حاول حازم أن يتمالك نفسه طيلة الشهر الماضي وأن يلتمس الأعذار لأمل على اعتبار أن هذه هي حال العروس المدللة في هذه الأيام، فكان رآيه أن يصبر عليها لعلها تتعلم بعد ذلك واجباتها المنزلية. كما أن أمل طيلة هذا الشهر كانت مثلاً للزوجة الهادئة المطيعة ذات الدين وبشكل مبالغ فيه أحياناً، فكيف ينتقد سهرها كل ليلة وهي تسهر لكي تقوم الليل وتقرأ القرآن حتى أذان الفجر ثم تنام لتستيقظ على صلاة الظهر فتخرج للصلاة في المكان المخصص للسيدات بالمسجد المجاور للبيت! كذلك كانت تفعل في باقي الصلوات الخمس، لا تعود من كل صلاة جماعة قبل ساعة على أقل تقدير.

كما كانت تخرج بعد ذلك لحضور دروس الفئانة المعتزلة التى تابت وارتدت الحجاب وأصبحت داعية والتى كانت دائماً ما تقول لمريديها كم هن مقصرات فى حق دينهن وأنه ينبغى عليهن الإكثار من الصلاة وتلاوة القرآن حتى يغفر لهن الله الذنوب الكثيرة التى ارتكبتها أيام السفور والاختلاط.

فكان حازم لا يسكن إلى زوجته أو يراها إلا فى الفترات القليلة التى تتخلل الصلوات الخمس، وقد كان سعيداً جداً بذلك فى أول الأمر، لقد ظفر بالزوجة الصالحة ذات الدين التى كان يحلم بها.

إلا أنه ومع مرور الأيام بدأ يرى الجانب الآخر من الصورة. فعلى الرغم من أنه كان سعيداً جداً بالتزام زوجته الدينى الذى كان يفخر به وسط جماعته من الإخوة الذين يشاركونه الاعتزال أو الالتزام كما يحلو لهم دائماً وصف أحوالهم الشكلىة المغيرة لباقى الناس من جلباب ولحية ومسواك، والنقاب والخمار والعباءة للنساء، التى كانت أمل قد حققت اثنتين منها، فقد أصبحت أمل بعد الزواج ترتدى عباءة سوداء تلف جسدها دون إظهار معالمه تماماً وينسدل عليها خمار لا يظهر غير وجهها فى خطوة استباقية فى طريقها للنقاب.

وبالرغم من كل ذلك الالتزام فإن سعادة حازم بدأت تقتر شيئاً فشيئاً لأن زوجته أهملت تماماً ليس فى بيتها فقط وإنما أيضاً فى أنوثتها، فقد أصبح شعرها الناعم المنسدل على ظهرها كأنه شلال مجرد ذكرى من الماضى بعد أن تحول إلى شعيرات مجمدة مقصفة بفعل الإهمال والحرارة والعرق الناتج عن تغطيته طوال ساعات اليوم تقريباً. كذلك لم تكن أمل من نوعية المحجبات اللانى يذهبن للكوافير لكى يظل شعرهن فى أحسن حال عند نزع الحجاب فى البيت (الكثير من المحجبات فى مصر يذهبن للكوافير لتصفيف شعرهن على أيدى

مصنفين رجال).

كذلك حاول حازم أكثر من مرة خصوصاً قبل اللقاء الجسدى بينهما أن يلفت نظرها إلى أنه لا غضاضة من وضع بعض المساحيق وأحمر الشفاه له فى البيت، ولكنها كانت ترد عليه بأنها لا تحب ان تكون من المتبرجات لا فى البيت ولا خارجه. فكان يقبل كلامها دون مناقشة راضياً بحاله ناعياً رغبته إلى الله لعله ينالها فى الجنة مع الحور العين. لا بد أن الحور العين لن يكنّ منتقبات ولن يحتجن إلى وضع المساحيق أو العطور أو ارتداء العباءات، إنهن ما لا عين رأت ولا أذن سمعت.

إلا أنه قد طمح به الكيل فى ذلك اليوم عندما رأى الأوانى المتسخة والحشرات التى تتسابق على بقايا الطعام فى حوض المطبخ. فأخذ ينادى أمل بصوت غاضب محتد:

- انت فىن يا هانم؟ إزاي نايمة وسايبة البيت بالمنظر ده؟!

استيقظت أمل وهى تفرك على صوت صياحه وتعانى من رفع جفניה اللذين أثقلتها رغبة شديدة فى النوم:

- انت ليه بتزعق كده ع الصبح؟!

- صبح ايه يا حاجة إحنا بقينا العصر!

نهضت أمل من السرير مسرعة، وهى تقول:

- يا نهار.. الظهر فاتنى واللا إيه؟

- هو إنتِ يجوز لك صلاة من أصله!

- إنت إزای تقول كده؟! ربنا يسامحك.

- يا حاجة يا اللي طول النهار بتصلى لازم تعرفى أن النظافة من الإيمان وأن الزوجة الصالحة عليها واجبات تجاه بيتها.

- أنا قلت لك إنى محتاجة شغالة وأنت مش راضى، وكمان مش عايز دادة عزيزة تيجى تساعدنى.

- قلت لك قبل كده الموضوع مرفوض.. إمكانياتى لا تسمح بمرتب شغالة.

- طيب أنا أعمل إيه! أنا ما اعرفش أعمل حاجة من شغل البيت.

- اتعلمى...

- مين حيعلمنى؟ ثم أنا معنديش وقت بين الصلاة والجمعية الخيرية.

- ربنا مقالش كده.

- يعنى ربنا قال أنى أسيب ده كله وأنظف البيت!؟

- أنا مقلتش كده بس لازم تنظمى وقتك شوية.. أنا زهقت بقى.

- كمان بتقول زهقت.. الله يسامحك أنا حامشى بدل زهقت منى.

- بتقولى إيه؟

- أنا حاروح لماما.

- آه قولى كده بقى.. هى ماما السبب فى كل ده.. هى اللي دلعتك.

- أنا مش حاقدر أرد عليك أنا حاروح أصلى يمكن تهدى وربنا يهديك لما أرجع.

ارتدت ملابسها وعباءتها وخرجت.. لكنها ذهبت إلى بيت والدها بعد أن انتهت من الصلاة.

(٢٧) الصلح

ذهب حازم بعد أن كلمه المهندس حسن لكى يصلح زوجته الغاضبة فى منزل أبيها بسبب الخلاف الذى نشب بينهما. لم يكن حازم فى أول الأمر يريد أن يذهب لأنه شعر بأن كرامته قد جرحت بشكل أو بآخر؛ لأن أمل تركت بيت الزوجية دون استئذان كما يليق بزوجة مسلمة تراعى دينها وتحافظ على تقاليدھا الشرقية الأصيلة، إلا أن اللهجة التى كلمه بها المهندس حسن والتى كانت أقرب إلى التهدة منها إلى الغضب هى ما جعله يفكر قليلاً فى تسوية الموضوع قبل أن يستفحل الخلاف بلا سبب جوهري.

كان المهندس حسن يعلم تماماً أن ابنته المدللة لن تصمد طويلاً أمام أعمال البيت التى لا تجيدها مطلقاً، ولكنه من ناحية أخرى لم يكن ليغضبها أو حتى ينهرها على ترك بيت الزوجية، فهى ابنته المدللة الوحيدة التى حرمتها سنوات جهاده الطويل من حنانه وعطفه.

أما الدكتورة فقد كانت غاضبة جداً وحانقة على حازم لتسببه فى إغصاب ابنتها بنت الأصول، التى لم يكن يتخيل أن يتزوج مثلها فى أحد الأيام.. لذلك بدأت الدكتورة الهجوم على حازم بمجرد دخوله غرفة الصالون:

- أنت لازم تجيب لبنتى شغالة أنا بنتى ما تتبهلش!

رد حازم بلهجة حاول جاهداً أن تكون هادئة:

- يا دكتورة أنا قلت قبل كده أن إمكانياتى لا تسمح بوجود شغالة.

ردت الدكتورة فى عصبية:

- أنا ماليش دعوة بإمكانياتك أنا بنتى مش خدمة.

هنا لم يستطع حازم أن يكبح جماح نفسه ورد بحدة:

- هي الست لما تشتغل فى بيتها تبقى خدمة!

هنا دخل المهندس حسن وفى يده مسبحة أضفت عليه هالة من التقوى والورع خففت من لهجة حازم الحادة:

- يعنى يرضيك الكلام ده يا باشمهندس؟!

- اهدا يا حازم خلينا نتكلم بهدوء.

صاحت الدكتورة فى وجه زوجها:

- إنت كمان بتهديه؟!

- هدى نفسك إنت كمان يا دكتورة، بنتك كان لازم تتعلم شغل البيت.

- لأ يا حبيبى أنا بنتى تقعد زى الهانم والناس يخدموها.

هنا دخلت أمل إلى الصالون وسلمت على حازم كأنها تريد أن تعتذر له عما بدر منها، ولكنه لم ينظر إليها وأدار وجهه إلى الجهة المقابلة.

خاطب المهندس حسن ابنته بلهجة ناصحة بعض الشيء:

- إنت لازم تتعلمى شغل البيت يا بنتى.

صاحت الدكتورة فى وجه زوجها:

- إنت بتقول إيه يا حسن؟!

- سيبينى أعلم بنتى حاجة تنفعها للزمن بدل الدلع اللى ربتىها عليه.

غضبت الدكتورة وخرجت من الصالون وهى تقول:

- إنت كنت فين وبنتك بتكبر على إيدى؟ جاى دلوقتى عايز تعلمها.

هنا أدرك المهندس حسن خطأه التاريخى تجاه ابنته وأخذها من يدها وأجلسها بجوار زوجها وقال:

- أنا السبب فى كل ده أنا اللى تركت بيتى وبنتى.. أنا قصرت فى حقك يا أمل.

هنا بكت أمل واحتضنت والدها.. وفى الوقت الذى شعر فيه حازم بالانتصار إلا أنه تأثر تمامًا من موقف حماه الأبوى.

ربت المهندس حسن على كتف حازم وأمل وقال لهما:

- أنا عندي حل يا ولاد...

عزيزة تساعد أمل يومين بس فى الأسبوع لحد ما تتعلم، قلت إيه يا أمل؟

- أمرك يا بابا.

- وأنت يا حازم موافق يا بنى؟

- كلامك على راسى يا باشمهندس.

- خلاص يا ولاد قوموا روحوا بيتكم.

ثم أردف وهو يكلم ابنته:

- قومي يا أمل حضري الشناتى وطيبى خاطر ماما قبل ما تفلّى من هون.. وأنا الله معى بعد هيك.

ضحكت أمل وهى تبكى ثم نهضت لتجهيز حقيبتها فى حماس، وارتدت ملابسها قبل أن تذهب إلى أمها التى كانت تجلس وحيدة فى غرفتها فى منتهى العصبية والغضب من زوجها ومن حازم، إلا أنها حنت قليلاً عندما رأت دموع أمل وهى تسترضيها قبل أن تذهب مع زوجها، لكنها ودعت ابنتها فى حدة وهى تقول:

- اعملى اللى أنتِ عايزاه بس متزعزعي من اللى يحصل بعد كده أنا ماليش دعوة.

- مش يحصل حاجة يا ماما ما تخافى.

ثم طبعت قبلة حارة على خد أمها.. ورحلت.

(٢٨) وفاة أمى

بعد وفاة أبى تأثرت أمى كثيراً، ليس فقط بدافع أنها فقدت السند الذى تركز عليه فى الحياة ولكن فقدنا أنا وأمى جزءاً كبيراً من رفاهية العيش. بعد وفاة أبى الذى تقلص معاشه كثيراً عن مرتبه الحكومى الضئيل أصلاً ناهيك عن ضياع مدخرات الحقبة الخليجية كلها على علاجه الذى سبق وفاته بعدة سنوات إلا أن أمى فقدت شيئاً آخر رغم خلافاتها فى السنوات الأخيرة الدائمة معه، إنها كانت دائماً تحتفظ له بصورته القديمة فى مكان خاص فى قلبها لم تبرحها مطلقاً رغم التغييرات السياسية التى تأرجح بينها فى حياته، خصوصاً فى سنواته الأخيرة.

كنت أستمع ما تعانیه أمى فى هذه المرحلة وهى تكابد الوحدة والتغيرات الاجتماعية والاقتصادية التى حدثت فى ذلك الوقت، وجعلت طباع الناس تختلف وسلوكياتهم تتدهور بعد أن أصبح كل شىء له قيمة ما عدا الإنسان والقيم النبيلة التى تربت عليها.

لا أعلم كيف كانت تدبر مصروف البيت بمعاش أبى المتواضع، ولكن كنت أرى ما تكابده بدرجة تصل إلى حرمان نفسها من أشياء تحبها لى توفر لى أبسط أسباب العيش.

لم تكن أمى ترضى عما يحدث فى البلد، وخصوصاً هذا الاتجاه السائد فى المجتمع من إثراء سريع يحول بعض التجار إلى حيتان كبيرة تأكل باقى المجتمع. ليس هذا ما كان يريده عبدالناصر.. لقد كان يريد مجتمعاً صناعياً يغطى احتياجات الناس وزراعة تضمن قوت يومهم دون حاجة إلى استيراد كل شىء كما يحدث حالياً.

لم تحتلم أُمى تلك المشاهد التى كان ينقلها التلفزيون من فلسطين وقت انتفاضة الحجارة التى كان الأطفال والشباب الفلسطينى البواسل يواجهون فيها الدبابات الإسرائيلية بصدور عارية.

لقد نهض هذا الشعب لتحرير أرضه دون الحاجة إلى مساعدة الآخرين.. إنه معدن هذا الشعب الأصيل الذى يرنو إلى الاستقلال دون انتظار مساعدة من أحد.. كفانا مساعدات وأموالاً وأسلحة ذهبت إلى مخازن تونس فى نهاية المطاف، لا حماس ولا فتح.. هذا هو الشعب البسيط يثور ويطالب بحريته التى سلبها المحتل الغاشم الذى يندس أرضنا وسماءنا ومقدساتنا.

كانت أُمى تكتب هذه الخواطر كل يوم كيوميات لما يحدث فى أيام الانتفاضة، كما لو كان ذلك يعوضها نسبياً عن حلمها الستينى المنهار. راحت تشارك فى حملات التبرع بالدم للفلسطينيين وشاركت المهندس حسن فى جلب التبرعات والبطاطين والأدوية لكى يتم إرسالها إلى فلسطين.

لأول مرة فى حياتى كنت أجد أُمى فى هذه الحالة من النشاط والحيوية، لقد وجدت لنفسها دوراً فى حماية ما تبقى من القومية العربية.

كانت تحكى لى عن سناء محيدلى تلك الشهيدة التى ضحت بحياتها من أجل قضية بلادها وغنى لها محمد منير:

أتحدى لياليك يا غروب .. وأتوضا بنورك يا جنوب.

حتى أن أُمى اتفقت مع دكتورة سوسن ووالدة حازم على إرسال أطعمة إلى فلسطين وتبرعات أندية الروتارى، بل شاركت فى توصيل بعض الأدوية عبر الحدود إلى غزة، كنت أذهب معها مرتدياً الكوفية

الفلسطينية وأنا فخور بما تقوم به.. أستشعر دماً جديداً ينعش أوردتها
التي ترهلت عبر السنين.

كان المهندس حسن لا يترك مناسبة للحديث إلا وذكر فيها أن ما
يحدث في فلسطين من ثورة تحدث في أول مرة في تاريخنا منذ
الاحتلال سنة ٤٨ لم تكن لتحدث إلا بدعم وجهود المقاومة الإسلامية
حماس وكتائب القسام.

أُمى كانت تضحك ولا تعلق بشيء.. لم تكن اللحظة التاريخية تحتل
جدلاً سياسياً عقيماً بين الدينى والعلمانى. كنا أنا وأمل وحازم نصدق
المهندس حسن لتأثرنا الكامل بجهوده ومثابرته في خدمة الجهاد، لم نكن
ندرك في ذلك الوقت أن هناك مؤامرة دولية تحاك من بعيد سوف
تقضى تماماً على ما نقوم به وسوف تنتهك براءتنا.

كان الاتحاد السوفيتى فى طريقه إلى التفكك بعد خضوع
جورباتشوف المذل للأمريكان الذين انفردوا فجأة بإدارة العالم بعد عودة
حازم المنتصرة من أفغانستان، وفى نفس التوقيت الذى كنا نرسل فيه
المساعدات للفلسطينيين كان يتم فى الخفاء التفاوض فى أوصلو على
وقف الانتفاضة وبدأ ما يعرف بمفاوضات السلام.

وهكذا انتهت الانتفاضة المجيدة دون أن تحقق أهدافها النبيلة
وانهارت قدرة كبد أُمى على مقاومة الأمراض. وفى يوم ٢ أغسطس
من مطلع عقد التسعينيات حدث حادث الشؤم بالنسبة لأُمى... لقد انتهى
العمر الافتراضى للخيط الذى يحمل صورة الزعيم الخالد جمال
عبدالناصر التى كانت أُمى تحتفظ بصورته الكبيرة فى صدر غرفتها
وتتأثرت أشلاؤها على أرضية الغرفة إلى قطع صغيرة تستعصى على
الإصلاح أو التجميع ثانية.

وكان الخبر الأول فى جميع النشرات الإخبارية فى ذلك اليوم: لقد
احتل صدام حسين الكويت!!

(٢٩) الشيخين

كانت قاعة الاحتفالات بمعرض الكتاب تضج بمن فيها من عشاق فن الشيخ إمام الذى ألهم مشاعر الجميع عندما دخل القاعة رافعاً علامة النصر، لقد آن لهذا الشعب أن ينتصر على الظلم والدكتاتورية. بدأ الشيخ يغنى: هما مين وإحنا مين، وورد الجنابى اللى فتح فى جناين مصر، ثم طلب بعض الحضور أغنية اتجمعوا العشاق:

اتجمعوا العشاق فى سجن القلعة .. اتجمعوا العشاق فى باب الخلق

ومصر غنوة من الزنازين طالة .. ومصر غنوة مزرعة فى الحلق

اتجمعوا العشاق فى الزنزانة .. مهما يطول السجن مهما القهر

مهما يزيد الفجر بالسجانة .. مين اللى يقدر ساعة يسجن مصر

ولا حد...

كان الشيخ يختم الكوبليه بكلمة: ولا حد، وتضج القاعة معه بالتصفيق والغناء مما أفرع قوات الأمن المركزى التى كانت تحيط بالقاعة من جميع الجهات حرصاً على سلامة وأمن الشيخ إمام طبعاً! وفى آخر الحفل غنى الشيخ أغنية جيفارا مات مرتين بناءً على طلب الجماهير:

مات البطل فوق مدفعه بين الغابات.

حتى أحس كل من فى القاعة بأنه شخصياً يحمل روح جيفارا فى حنايا صدره وأنه أقوى من مدرعة الأمن المركزى الرابضة على باب

القاعة، ومن جندى الأمن المركزى المتلاشى خلف درعه الفولاذى وعصاه المؤلمة، فخرجت الجحافل من باب القاعة رافعة علامة النصر: هما مين واحنا مين.. هما العملا والسلاطين.. واحنا ولاد الفلاحين.

عندها عرفت هراوات الأمن المركزى طريقها إلى أجسادنا، تحفر الجروح وتكسر الضلوع، حتى أفاقتنا وحشية الضرب من سكرة الحرية التى سببتها لنا أغانى الشيخ إمام سامحه الله.

هرولت كثيرًا قبل أن أصل إلى باب الخروج قبل أن تأتيني ضربة قوية على رأسى أفقدتني الوعي تمامًا، بعدها وجدت نفسى مدعواً مع زملائي من رواد الحفل فى جولة داخل سيارة الترحيلات أعدتها لنا وزارة الداخلية احتفالاً بنا على شرف الشيخ إمام.

نمت طويلاً داخل غرفة الحجز القذرة المكتظة بالنزلاء قبل أن أستيقظ اضطرارياً على وخزة من قدم أحد الجنود لكى أقوم؛ حيث سوف يتم عرضنا على سعادة البيك الضابط. وبعد أن تم توبخينا وشتمنا بأبشع الألفاظ تم إخلاء سبيل كل من يحمل بطاقة شخصية وليس له أى سجل إجرامى أو تاريخ قديم بمخالفة القانون.

والحمد لله فقد كنت واحداً من هؤلاء المخلى سبيلهم.

بعد هذه الحادثة اقتنعت تماماً بالمبدأ السياسى المريح الذى انتهجته طويلاً والذى يبتعد تماماً عما يحدث على الأرض ويحل وينظر، بتشديد الظاء، للسياسات من البرج العالى البعيد عن أى مشاكل أو احتكاكات مع وزارة الداخلية.

بعد أن أتم رجال الأمن المركزى العملية الناجحة التى نفذوها ببراعة وشجاعة منقطعة النظير بعد انتهاء حفل الشيخ إمام الذى انتهى

بتسليمنا إلى قسم شرطة الزيتون. تم تكليف أفراد القوة وسيارة ترحيلاتهم بمهمة أخرى قريبة، تتمثل في محاصرة جامع العزيز بالله حيث إنه تصادف أن اليوم يوافق درس الشيخ وجدى الأسبوعى.

كان حديث الشيخ وجدى عن الحاكمية: "إن الحكم إلا لله".. عايزين الحكم يبقى لمين فيرد الحاضرون على قلب رجل واحد: لله. ثم يكررها مرة أخرى لمين؟ فيرد المصلون بأعلى صوت أربع نفس الجنود بالخارج: لله.

لأمريكا أو لروسيا ولا حسنى مبارك؟

كان حازم فى حالة من النشوة من حديث الشيخ وجدى، مثلما كنت أنا قبله بقليل فى نفس الحالة بسبب أغانى الشيخ إمام. لقد نجح الشخان فى إطلاق روح التحدى والثورة فى قلوب مريديهما على السواء رغم اختلاف الوسائل.

عندها ختم الشيخ وجدى درسه ببعض الأدعية للأمة الإسلامية بالنصر على اليهود والنصارى والدولة الكافرة، بعدها انطلقت جموع المصلين تهتف فى شارع العزيز بالله: إسلامية.. إسلامية.

فما كان من جنود الأمن المركزى إلا أن بدأوا فى تأدية عملهم المعتاد الذى تدربوا عليه فى معرض الكتاب منذ قليل عندما بدأت سيارة الترحيلات فى الامتلاء هرب باقى المصلين إلى شارع جسر السويس بينما انطلقت سيارة الترحيلات تعج بمن فيها عائدة إلى قسم الزيتون.

اندهش حازم عندما رأى داخل غرفة الحجز وسألنى:

- إنت من إمتى بتحضر دروس الشيخ وجدى؟!

لم أفهم سؤاله وهزرت رأسى دون أن أرد عليه، هل كان حازم فى حفل الشيخ إمام؟ لكنى تيقنت عمق الهوة التى نشأت ليس بيننا فقط ولكن بين الشيخين أيضاً.

عندما ذهبت فى نفس اليوم الذى خرجت فيه لكى أسأل عن حازم علمت أنه لم يكن مثلى من الذين تم إخلاء سبيلهم فى ذلك اليوم لعدم تورطهم فى مخالفات سابقة مع وزارة الداخلية، إنما تم تحويله إلى النيابة بعدها بأيام. علمت من ضابط صديق لى يعمل فى مباحث أمن الدولة أن حازم عندهم ولن يخرج بسهولة لأنه لا يحفظ لسانه.

وعندما سألته عن إمكانية زيارته، أجاب بالنفى القاطع وحذرنى بأن لا أفتح فمى بأى معلومة مما أخبرنى.. حتى لأهله.

(٣٠) المعتقل

لم أتمكن من تنفيذ نصيحة صديقي ضابط أمن الدولة بعدم ذكر شيء مما أخبرني به حازم عندما رأيت الحالة التي يرثي لها والتي ارتسمت على وجه الشيخ يوسف وعبرت عنها دموع الحاجة صفية، فقلت لهم مهدئاً:

- اطمئنوا يا جماعة حازم كويس أنا اعرف ضابط صديق لى فى أمن الدولة طمنى عليه.

- هوا فين يا ابنى؟

- اطمئن يا شيخ يوسف هوا فى أمن الدولة وإن شاء الله يطلع قريب.

صرخ الشيخ يوسف:

- يا نهار أسود أمن الدولة يا لطيف يا رب... لطفك يا رب. اللهم لا أسألك رد القضاء ولكنى أسألك اللطف فيه.

بينما بكت الحاجة صفية بحرقة وهى تسألنى بلهفة:

- أنا عايزة اشوف ابنى.. ما تقول لصاحبك يا حبيبى.

- ماتقلقيش يا حاجة أنا حاروح له بكرة وإن شاء الله أطمنكم عليه.

- والنبنى يا ابنى تطمنى ولو ممكن تاخذ معاك أكل.

لمحت أمل وهى تبكى:

- هدى نفسك يا أمل إن شاء الله حازم يطلع قريب.

- لما تشوفه أمانة عليك تسلم لى عليه.

- حاضر يا ستى.. ماتقلقيش وخلي بالك من الحاج والحاجة.. ولو احتجتوا أى حاجة كلمونى على طول.

- شكرًا ربنا يخليك.

كانت كلمات أمل الأخيرة كفيلة بإحداث حالة من السرور والراحة فى نفسى رغم مأساوية الموقف.

ودعتهم عند باب الشقة وأنا أحثهم على الاطمئنان الذى لم أكن أعرف مصدره.. وخرجت إلى الشارع لا أعرف ماذا أفعل.

كيف سوف أطمئنهم وأنا لا أعرف شيئًا عن حازم؟ لا بد أن أراه فعلاً. سوف أكلّم سعيد فى أمن الدولة، نعم لا بد أن أرى حازم حتى أطمئن أباه وأمه وأمل.

لم أدرك ماذا ينبغى علىّ أن أفعل بالتحديد إلا أنى وجدت نفسى فجأة أمام شارع الشيخ ريحان وهو ذلك الشارع المخيف الذى تقبع فيه وزارة الداخلية.. لم يكن من السهل أن يفكر أى شخص عادى بمجرد الدخول إلى هذا الشارع على قدمين ثابتتين كما فعلت أنا.

رغم رعب المشهد المحيط بهذا المكان الذى يخيم عليه الظلام الدامس تظهر أشباح جنود مسلحين خلف المتاريس.. الخوف كامن فى الصدر، إلا أننى كنت معتادًا على الذهاب إلى هناك بعد نقل صديقى سعيد إلى جهاز أمن الدولة بالوزارة. الذى حصل على هذه المكانة التى

لا تتسنى إلا لقلة ممن لهم الحظوة من ضباط الداخلية.

لم أكن أحضر إلى هذا المكان الرهيب بطبيعة الحال لزيارة صديقى فهذا المكان لا يقبل مثل هذه التفاهات سبباً للزيارة ولكن سعيد كان همزة الوصل بينى وبين المقدم عمر، وهو الضابط المسئول عن أمن الجامعات المصرية، وكان سبب الزيارة دائماً رفع أسماء بعض زملائنا فى الجامعة من الترشح لانتخابات اتحاد الطلبة بسبب الشك فى انتمائهم للتيارات الإسلامية المتطرفة، وهو ما لم يكن له أى أساس من الصحة لأنى كنت أعرف أنهم يساريون ويطلقون لحاهم لأسباب ليست دينية بطبيعة الحال.

وفعلاً اقتنع سيادة المقدم بذلك ورفع أسماءهم من المنع فى ذلك الوقت. ليس حباً فى عمل الخير أو مجاملة منه لصديقى سعيد ولكنه فعل ذلك عندما أخبره سعيد أن ترشيح هؤلاء الزملاء لاتحاد الطلبة سوف يقلل من فرص مرشحي الإخوان فى الكلية؛ حيث لن يتمكن الطلبة من التفريق بين اللهى الإخوانية واليسارية. أصبحت بعد ذلك أتمكن من زيارة سعيد كلما احتجت إلى حل أى مشكلة أمنية أتعرض لها أو يتعرض لها شخص من طرفى.

دخلت من البوابة الإلكترونية وتأكد الضابط من عدم وجود شىء مخالف فى حوزتى وطلبت منه مقابلة النقيب سعيد الكاشف فطلب منى الجلوس قليلاً حتى يتمكن من إبلاغه.

وبعد حوالى نصف ساعة قادنى أحد أفراد الأمن إلى مكتب سعيد. قابلنى بفتور وكان يدخن سيجارة بشراهة حولت المكتب لغرفة ساونا.

- أنا عارف أنك مشغول بس أنا محتاج لحاجة مهمة.

- أنا مش قلت لك على الموضوع إمبراح (قالها وهو ينظر فى أوراق على مكتبه).

- أنا محتاج أقابل حازم يمكن أقدر اقنعه.

- هو شغال شتيمة فى الحكومة والريس وأمريكا من ساعة ما جه هنا وكل ده عشان سألناه عن مكان واحد صاحبه.

- مين ده؟

- واحد اسمه أحمد الفار إرهابى لسه راجع من أفغانستان وكان بيحضر معاهم دروس الشيخ وجدى ومش عارفين نمسكه.

- وأنت متأكد أن حازم يعرفه؟

- أنت طيب قوى.. طبعًا يعرفه وكانوا مع بعض فى قندهار.

- معقول حازم يعرف إرهابيين!

- واضح أنك ما تعرفش صاحبك ده كويس.. هوا اعترف أنه يعرفه إنما رفض يدلنا عليه.

- لو تحب أنا أكلمه.

- طيب أنا حاول أشوف الموضوع ده مع الباشا.

كان حازم يجلس فى المعتقل وحيدًا مهمومًا لا يتحدث لأحد ولا يناقش أحدًا.

كانت أيام الاعتقال بالنسبة له فرصة ذهبية لمراجعة النفس واستعراض شريط ذكرياته عن الفترة السابقة. كيف لهذا الفتى الذى لم يخطئ قط فى حياته أو هكذا يظن أن يكون مآله هكذا فى نهاية المطاف سجيناً بلا قضية أو متهماً بلا ذنب اقترفه لا بد أن شيئاً ما كان خطأ.. ترى هل سارت حياته كلها دون ذنب اقترفه أو خطيئة أرقت سريره ولطخت بياض صفحته بالسواد.

لم يكن حازم يدخن وقت أن كان الفتيان فى مثل عمره يتباهون بذلك.. لم تكن له تجربة مع أى فتاة رغم وسامته وطول قامته الفارع، تلك الصفات التى كانت جديرة بأن تضمن له مواعدة أجمل الفتيات.

لم تكن تشغله مثل هذه الأشياء رغم ضالته الوحيدة وإثمه الأذى.. رغبته الجنسية التى كان يشقى بها كثيراً بكبح جماحها. لم يكن يشاهد أفلام البورنو كما كان يفعل معظم فتيان جيلنا جيل الفيديو.. إلا ذلك اليوم الذى اضطر فيه تحت كبت الرغبة التى كان يغلى منها جسده إلى مشاركة بعض الشباب مشاهدة فيلم بورنو رخيص فى منزل أحد الأصدقاء أثناء غياب أهله. لكنه لم يتمكن من إكمال بضعة مشاهد حتى ذهب إلى الحمام وسمع كل من فى البيت صوت إفراغه لمعدته من الغثيان.

وقتها ذهب للتطهر فى بيته وارتدى أبيض الثياب وصلى لله ندماً وتوبة كما لم يصل من قبل، وذهب لحضور أول درس له مع الشيخ وجدى الذى كان موضوع خطبته فى هذا اليوم وبالصدفة البحث عن ممارسة الرذيلة والعادة السرية عند الشباب وكيف أنها تذهب الصحة وتضيع الرجولة ويصبح الرجل عند زواجه غير قادر على ممارسة واجباته مع زوجته التى أحلها الله فعليكم يا شباب الأمة بالصبر والصيام كما أمرنا الحديث الشريف: من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم

يستطع فعليه بالصوم..

منذ ذلك الحين كان الشيخ وجدى بالنسبة لحازم هو الضمير الخفى الذى يحميه من الوقوع فى براثن الشيطان وممارسة الرذيلة، وظل حازم يستعين على رغبته الشديدة بالصوم والصلاة والرياضة حتى استطاع الباءة وتزوج أمل الذى كان يعتقد فى داخل نفسه أن زواجه منها سيكون حلاً لعذاباته الجنسية المهلكة التى قاومها كثيراً لسنوات كان فيها قابضاً على الجمر لقد آن الأوان الآن لكى يفرغ شحنته ويفرغ كبتة الأبدى.

هل كان ينظر لأمل بهذا الشكل؟ هل كانت بالنسبة له مجرد وعاء يفرغ فيه منيه؟ هل أخطأ عندما فكر فيها بهذا الشكل المهين؟!

لقد أخطأت من جديد أيها الشاب الصالح لم تكن صالحاً هذه المرة، ولكن أليس هذا ما نصحنى به الشيخ وجدى ألم تكن أمل فتاة محجبة وتصلى وتصوم وأبوها هو ذلك الإخوانى الصالح الذى يفعل الخير ويجاهد فى سبيل الله.. أين المشكلة إذن يا ابن الشيخ يوسف ما الذى أوصلك لهذا المصير؟

لماذا لم تنجح علاقتك بأمل، بذات الدين التى لا تقوت فرضاً ولا تنقطع عن ذكر الله وإقامة الصلاة وقيام الليل؟ هل كنت تحبها.. لا والعياذ بالله لم يذكر الشيخ وجدى شيئاً عن الحب، وأمى أيضاً قالت أن الحب يأتى بعد الزواج حتى الشيخ يوسف نفسه لم يعلق بشيء عندما سألته عن فائدة الحب بالنسبة للزواج، إنها بدعة الصوفية ومن على شاكلتهم ولكن ألم أكن محتاجاً للحب ألم يكن هو الذى سوف يدعم علاقتى بأمل التى لم أكن أراها إلا فيما ندر رغم حياتنا معاً فى بيت واحد؟ لم يكن لدى دافع للرجوع إلى بيت الزوجية لم أكن مشتاقاً إليها

كم يفعل المحبون لم أكن أشعر بالرغبة نحوها.

ترى هل ظلمتها؟ نعم لقد ظلمت يا ابن الشيخ يوسف لقد كان العمل والجهاد هو أهم شىء فى حياتك.. لم تراع زوجك ولم تسكن إليها كما أمرنا الله فى كتابه العزيز.

ولكن هل أتحمل المسؤولية وحدى ألم تكن هى أيضاً سبباً فى التباعد الذى حدث بيننا.. إهمالها فى ترتيب ونظافة البيت..

كنت أسعد لتدينها لكنى أفتقد شيئاً يشفى رغبتى كرجل.. لم تتزين لى يوماً من باب إثارة الرغبة والتجمل، لم تكن تريد أن تكون من المتبرجات لا خارج البيت ولا داخله لم ترتد لى يوماً ما يكشف عورتها ويثير رغبتى.. فكرت كثيراً أن أهجرها فى المضاجع كما أمرنا الله.. فإن خفتم نشوزهن فأهجروهن فى المضاجع.

هل كانت هذه الطريقة لتنجح مع أمل؟ هل كانت هى من يسعى للقاء الحميم حتى أتمكن من هجرها فى المضاجع؟

للأسف لم تكن هى من يسعى وراء ذلك بل كنت أنا!

أنا من يعاقب بهذا الأمر القرأنى لقد كانت هى من تهجرنى فى المضاجع.. هل لأنها لم تجد عندى ما يطفى نار الشهوة المستعرة فيها أم أنها لم تكن تعير الموضوع نفس الاهتمام أو حتى الاهتمام العادى؟

هل هى باردة.. محتمل.. وقتها لن تشعر بنقص أو إخفاق معها.. وقتها أيضاً لن يكون للحل القرأنى تأثير لديها فماذا كان ينبغى على أن أفعل حتى أقومها وأجعلها تلك الزوجة الصالحة ذات الدين التى حلمت بها؟

وأنا أيضاً أين نصيبى فى هذه الدنيا من هذه المتعة الزوجية الحلال..
هل لم يعد بإمكانى النجاح مع أى امرأة.. أمل أو غيرها.. ما هى علتى
يا ربى؟!

لقد أخبرنى زميلى طبيب أمراض الذكورة أننى سليم مائة بالمائة
ولكنه لم يخبرنى بعلتى الحقيقية.. هو لم يعرفها.. يفشل العلم عندما
يصل إلى نقاط معينة مع سدره منتهى النفس والروح.. الحد الفاصل بين
السمو والرغبة الروح والجسد.

لماذا أخفقت مع أمل إن كنت سليماً.. هل حاولت تنفيذ ما أمرنى به
الطبيب عند اللقاء الحميم كتصفية الذهن والتفكير فى شىء آخر وعدم
التركيز فى لحظة القذف والمداعبة الأولية قبل الإيلاج.. كل ذلك فعلته
يا دكتور ولكن دون جدوى!

كلما حاولت التفكير فى شىء آخر أثناء الممارسة كما نصحنى
الطبيب تتلبسنى روح بو يحيى وهو يطير من جانبنى مقطعاً إرباً فى
الهواء وشىء ما ينغرس فى فخذى ينضح عن ألم رهيب تنقلص له
عروق القضيب.. لا أحتمل ألم الخصية.. أقذف لأريح نفسى من الألم
قبل أن يحدث أى شىء.

لقد خلقنى الله للجهاد فى سبيله كما كان يقول لى الشيخ وحدى: لقد
خلق الله رجالاً للجهاد فى سبيله لا تشغلهم الدنيا وملذاتها.. فليتبؤوا
مقاعدهم فى الجنة. الجنة مليئة بحور العين يا شباب فلتظفروا بهن
سريعاً.

أين أنت يا شيخى لقد اشتقت لمجلسك وإلى كلماتك لم يعد لى رغبة
فى هذه الدنيا بملذاتها.

الحقيقة هى الآخرة فلنسع لها.. فلنسع للقاء وجه الله الكريم والحبیب المصطفى.

إننا نعيش فى بلد فاسد لأنه ابتعد عن دينه، يحكمه طاغوت لا يعرف الله يساعد الأمريكان واليهود على مخططهم للنيل من الإسلام.. لا بد من الخروج على هذا الحاكم الكافر الذى حول البلاد والعباد إلى مجتمع أكثر ضللاً وفسقاً.

سياحة داعرة وخمور تباع فى الشوارع وميسر يلعب فى القاهرة وهو محرم فى تل أبيب وفساد يركم الأنوف حتى وصل إلى بيت الرئيس نفسه.

لا بد من جهاد هذا الكفر وإحلال مجتمعنا الإسلامى الطاهر النقى الذى لا يعرف الدنس ولا يسمح بالفجور.. مجتمع يقتدى بالرسول الكريم وأصحابه فى عدالتهم وتقواهم ونسأؤه تلتمس العفة والالتزام بسيرة أمهات المؤمنين.

سيأتى اليوم الذى نصبح فيه أصحاب هذا البلد الطيب نملاً عدلاً وأخلاقاً وطهراً.

لم يتمكن النقيب سعيد من إقناع حازم من أن كل ما قاله دون أدنى مقاطعة منه طيلة ساعة كاملة لا يمكن أن يساعده بأى حال من الأحوال على الخروج من سجنه.

لا بد أن يكون حديثك على النقيض من كل هذا، لا بد أن تقنع المحققين بتوبتك عن هذا الفكر واستعدادك الكامل لاعتزاله وعدم حضور دروس الشيخ وحدى.

مرة أخرى والأفضل لك حلق هذه اللحية كعربون لصدقك قد يقتنعهم بعدم الاستمرار فى احتجازك هنا.

عندما ذكر الضابط موضوع حلق اللحية وضع حازم يده عليها كمن يخاف أن تنتزع رغباً عنه وأدار وجهه إلى الناحية الأخرى، بعد أن قذف النقيب سعيد بنظرة غير ودية ثم قام ومشى نحو الباب كمن ينهى المقابلة دون أن ينبس ببنت شفة.

فما كان من النقيب إلا أن قال له:

- براحتك أنا كده عملت اللي عليا.. ذنبك على جنبك.

جاء العسكرى وجذب حازم من يده بعنف كما لو كان يعلن له حقيقة ما سيلاقيه فى الأيام القادمة نتيجة تشبثه برأيه.

(٣١) التاكو الساخن

فى الموعد المحدد تمامًا كان جولدمان يفتح الباب الدوار وبمجرد دخوله هاجمت أنفه روائح تنم عن أكالات شهية تغص بالتوابل الحارة، كانت هذه الروائح هى سبب عشقه للطعام المكسيكى.

ناول النادل معطفه وسأل عن حجز مائدة لشخصين باسم السيد الزهار. رحب به النادل وأشار بيده إلى الداخل:

- السيد الزهار فى انتظارك سيدى.

ثم اصطحبه إلى المائدة وناولوه قائمة الطعام.

صافح ديفيد المهندس حسن بحرارة وود غير معتاد بين الرجلين.

- هل تأخرت عليك؟

- أبدأ أنت فى موعدك تمامًا يا ديفيد.

- هل طلبت شيئاً؟

- لا أنا أنتظرك لنطلب سوياً.

- سوف يعجبك الطعام المكسيكى جداً فهو أقرب إلى طعامكم الحريف فى الشرق الأوسط.

- شكرًا لك.

- إذن اسمح لى أن أختار لك طبقًا مكسيكيًا أصيلاً سوف تحبه كثيرًا.

- كما تريد.

- أه هذا هو.

ثم أشار إلى النادل وطلب منه أن يحضر طبقين من التاكو.

- على ضمانتك يا ديفيد؟

- لا تقلق أراهن أنه سوف يعجبك كثيرًا.

لمح حسن إحدى الفتيات ذات البشرة البرونزية تعزف على بيانو يحتل مكانًا قصيًا في شرق المطعم يصدر عنها لحنًا هادئًا يغلب عليه الطابع اللاتيني يتناغم مع الإضاءة الخافتة التي طبعت على المكان هالة رومانسية بعض الشيء.

- المكان جيد يا ديفيد ولكن ألا ترى أنه يصلح للمحبين بشكل أكبر.

- أه يا حسن أنت تتحلى بروح دعاية عالية.. نعم المكان رومانسي كما ترى ولكنه أنسب للحديث بينما الذى يحتاج الهدوء والتركيز.

تغيرت ملامح حسن قليلاً كأنه توجس خيفة من كلام ديفيد.

- لقد بدأت أقلق من كلامك يا ديفيد.

- لا يوجد ما يدعو للقلق أو التوتر يا سيد حسن اعتبرها جلسة بين أصدقاء.

- إذن هات ما عندك.. كلى أذان مصغية.

- شوف يا حسن أنا أعلم تمامًا فيما تفكر أنت الآن، وربما لست

وحذك، قد يشاركك كل المجاهدين الذين جندناهم طيلة هذه السنوات الماضية.

- ماذا تقصد يا ديفيد ادخل في الموضوع دخيلك.

- أنت تشعر أن أمريكا تخلت عنكم وأعطتكم ظهرها بعد أن انتفت الحاجة إليكم بعد خروج الروس المزل من أفغانستان.. أليس كذلك؟!!

أجابه حسن محتدًا:

- لو أن الإدارة الأمريكية تفكر بهذه الطريقة فعلاً يا ديفيد فأبلغهم أنهم سوف يخسرون كثيرًا.

- هدى من روعك يا سيد حسن.

- أنت لا تعرف شيئاً عن غضب المجاهدين.. إن طرد الروس من أفغانستان كان بسبب هذا الغضب، لا تنسَ ذلك.

- أنا أعلم تماماً وأتفهم ما تقصده.

- لا يا ديفيد أنت لا تعلم شيئاً.. إن كل السخط والكرهية التي كانت تحتل قلوب المجاهدين ضد الروس يمكن أن توجه سهامها ضد الأمريكان.

صمت ديفيد قليلاً، ثم نظر في حدة في عين حسن وقال له:

- هل أعتبر هذا تهديداً يا سيد حسن؟

لم يتمكن حسن من كبح جماح انفعالاته الشرقية الجياشة لأنه تأكد

مما كان يوسوس له فى صدره فعلا صوته وهو يرد:

- اعتبره مثل ما بدك يا ديفيد نحن لسنا عبيدًا رهن إشارتكم.. نحن من هزمتنا الروس.

أجابه ديفيد بنفس الحدة بعد أن نظر يمنة ويسرة خشية أن يكون أحد الجالسين فى المطعم قد لاحظ ارتفاع نبرة صوت حسن:

- لا يا سيد حسن اعذرني أنتم ما كان لكم أن تهزموا الروس بدون مساعدتنا لكم.

هم حسن أن يرد لكن النادل قطع حديثه بوضعه طبق التاكو أمامه وبدأ طوفان الروائح الحارة ينساب فى جيوبه الأنفية مما هدأ من انفعاله.

شكر ديفيد النادل ثم وجه نظره إلى حسن وقال:

- أرجوك يا صديقى لا تغضب فلنؤجل حديثنا لما بعد الانتهاء من الطعام.

رمى حسن الفوطة البيضاء على المائدة وهو يقول:

- لآ أنت سديت نفسى بحديثك الماسخ.. أنا بامشى.

نهض ديفيد من مقعده محاولاً تهدئته:

- اجلس يا رجل هل أنت بخيل مثل اليهود؟

ابتسم حسن على الطرفة قبل أن يكمل ديفيد:

- سامحنى على ما قلته وتناول طعامك أولاً ثم نكمل حديثنا.

- أمرى الله لولا أنى جائع ما كنت جلست معك أكثر من ذلك.

هجم حسن على طبق التاكو بشهية أسد لم يذق طعاماً منذ يومين.

طال الصمت بين الرجلين لم تخلو فيها المائدة من أصوات تلامس الشوك والسكاكين مع جدار الأطباق حتى فرغا من تناول طعامهما.

مسح حسن فمه بالفوطة البيضاء التى أمامه قبل أن يسأل ديفيد:

- أخبرنى الآن ما العرض الذى بحوزتك وتريد أن تعرضه علينا؟

- العرض بسيط جداً يا سيد حسن. أنت تعلم أن إدارة ريجان تختلف كثيراً عن إدارات الحزب الجمهورى السابقة، ولعلك لاحظت الغرور الذى كان يتحدث به خصوصاً فى تعامله مع حكام الشرق الأوسط، حتى مبارك نفسه شعر بذلك.

- نعم أعلم ذلك يا ديفيد ولكن ما دخلى أنا بذلك؟!

- ما اود أن أشرحه لك هو أن السيناتور ويليام وآخرين ممن هم على شاكلته وبعضهم فى الإدارة الحالية قد غرهم انتصارهم على الروس...

ثم توقف قبل أن يكمل:

- بمساعدتكم طبعاً.. أقصد أن هذه المجموعة أصبحت ترى نفسها كطاووس لا يرى إلا نفسه إنهم وبعد أكثر من أربعين عاماً استطاعوا أن يقهروا عدوهم اللدود وهو الآن كما تعلم فى طريقه للتفكك والانهييار.

- هذا كله بفضلنا..

- نعم أعرف نحن لا نبخس حقكم فى ذلك.

سأله حسن بتوجس:

- أنتم من يا ديفيد؟!

- سوف أشرح لك سيد حسن.. نحن أمريكيون نرفض تصرفات هذه المجموعة بكل من فيها، حتى تعود أمريكا التى نعرفها دولة الحريات والمبادئ.

- هل تقصد أنكم الحزب الديمقراطى؟

- ليس الموضوع موضوع أحزاب.. إنما نحن أمريكيون مخلصون لهذا البلد ولا نريد أن نخسر صورتنا أمام العالم كما يريد هؤلاء الرجال النفعيين الذين لا تهمهم صورة أمريكا أمام العالم. انظر ما فعلوه معكم على سبيل المثال انظر ماذا فعلوا بالليبيين أو فى لبنان، أليست الأسلحة الإسرائيلية التى قمعت الانتفاضة الفلسطينية هى أسلحة أمريكية! كذلك لا تنسَ تأييدهم المطلق لإسرائيل ضد أبناء بلدك.

لم يكن حسن يحتاج من محدثه أن يقنعه بازدواجية السياسة الأمريكية ومكيافيليتها التى تربى عليها منذ أن بدأت أمريكا تتدخل فى حياة الشعوب وخصوصاً النصيب الأكبر الذى عاناه شعبه بفعل الدعم المستمر من الأمريكان لإسرائيل.

- عجباً لك يا ديفيد تتحدث كأنك أصبحت عربياً مثلنا! ألسنت يهودياً وتوافق على كل ما تقوم به إسرائيل؟

- أنت يا سيد حسن تعرف الفرق جيداً بين الدين اليهودى وممارسات

اليهود. أنا أؤمن بكل الأديان وأحترم رغبة الشعوب فى تقرير مصيرها. وقد برهنت على ذلك بأشترأكى منذ عدة شهور مع أصدقائى نعم تشومسكى اليهودى وإدوارد سعيد الفلسطينى فى مسيرة داعمة لحقوق الشعب الفلسطينى وضد الممارسات الصهيونية الغاشمة ودعماً للسلام والتعايش بين الشعبين.

لم يقتنع حسن بهذه الهالة الملائكية التى حاول مضيفه إضفاءها على نفسه.. إلا أنه بدا متقبلاً لكلامه رغم الشكوك. ثم سأله بهدوء:

- وماذا تريدون منا أن نفعل فى ذلك يا ديفيد؟

- صدقنى يا حسن نحن أمة قامت على القيم والمبادئ لذلك نريد المساعدة من أصدقائنا فى العالم ممن يحترمون مثلنا هذه القيم مثلكم تماماً.

- شكراً لك.

- نريد أن تساعدونا على استعادة هذه القيم.

- كيف يا ديفيد؟ أنا لا أفهمك!

- ببساطة نريد نريد منكم أن تقفوا ضد هذه الإدارة تماماً كما وقفتم من قبل ضد الروس.

- هل تريد منا أن نحارب أمريكا؟!!

- لا يا سيد حسن كل ما نريده منكم هو حشد المجاهدين وتحفيزهم ضد السياسة الأمريكية الحالية واستثارة مشاعر المسلمين فى العالم ضد صلف هذه الإدارة وغرورها، كذلك مهاجمة كل الأنظمة والحكام

العرب الذين يتعاونون معها واتهامهم بالكفر والعمالة.

صمت حسن قليلاً قبل أن يجيب ثم سأله بدهاء:

- ولكن يا ديفيد ألا يعتبر ذلك هجوماً عليك أنت شخصياً أنت ومن يتبعك باعتبارك موظفاً في هذه الإدارة.. ألا يخدش ذلك أمريكيتك بطريقة أو بأخرى؟

هنا لجلج لسان ديفيد قليلاً قبل أن يستعيد ثقته ويجيب:

- أبداً يا حسن نحن نريد فضح هؤلاء أمام العالم حتى تأتي مجموعة أخرى صالحة من الأمريكيين لتتولى الأمور بعد ذلك وتزيل هذه الصورة المشوهة من الازدهان.

- إذا أنا وافقتك على كلامك.. إيش عم يضمن إلى أنك ما تخونى مثل صديقك ويليام؟

- عزيزى حسن.. فى هذا العالم لا توجد ضمانات، هناك مصالح أنا أحقق لك مصلحتك أمام شعبك، أنت بالمثل ترد لى الجميل أمام أنصارى.

- ما هى المصلحة التى سوف نجنيها من جراء ذلك؟

- عزيزى حسن دعنى أتحدث معك بصراحة أكبر، أنت الآن جماعة منتصرة من المجاهدين تريدون إقامة دولة إسلامية. أليس كذلك؟

ابتلع حسن ريقه قبل أن يجيب:

- نعم هذا ما نصبو إليه فى النهاية.

- إذن كيف تقيمون هذه الدولة وليس لكم عدو.. تعدون له العدة وتجيئون له البشر؟!

- ماذا تقصد؟

- أقصد أن الروس خلاص رحلوا.. كذلك الأفغان لن يحتاجوا إليكم ثانية فأنت تعلم صراعاتهم المذهبية، كذلك اختلافهم المذهبي عنكم.

- واضح أنك تعلم الكثير عن ديننا يا ديفيد!

- أنا أدرس الأديان وأحترم الدين الإسلامي على وجه الخصوص.

- ماذا تريد إذن من كل ذلك؟

- ما أريده هو أنكم الآن جيش بلا وطن ولا عدو هذا ما قصدته.

هز حسن رأسه بعد أن داعب مقدمة رأسه بأطراف أصابعه:

- إذن تريد منا أن نعود إلى بلادنا ونحارب حكامنا؟

- ليس هذا بالضبط ما قصدته يا سيد حسن.. قصدى أن يعود كل المجاهدين إلى بلادهم ويقاوموا ضد الدكتاتورية والظلم الواقع عليهم من حكامهم والذين تدعمهم الإدارة الأمريكية الحالية.

- ولكنك نسيت أن هذه الأنظمة سوف تقبض على المجاهدين بمجرد عودتهم إلى ديارهم وسوف تطاردهم في كل مكان.

- نعم أعلم ذلك ولكنكم ليس لديكم بديل آخر إلا أن تخوضوا هذه المغامرة وتحسنوا التهريب والتخفى ونحن سوف ندعمكم قدر

قالها ديفيد وهو يشير للنادل طالبًا الحساب ثم نظر إلى حسن الذى غرق فى تأملاته التى تركت لعقله الفرصة لإجراء العديد من المعادلات الرياضية التى كانت تتدافع فى رأسه.

- فكر يا سيد حسن ورد على.

التفت إليه حسن بعد أن انتبه من شروده بإيماءة من رأسه لم يتبعها بأى كلام.

قام ديفيد عن المائدة وترك فاتورة الحساب أمام حسن ومضى خارجًا من المطعم بينما كان حسن غاطسًا فى مقعده لم يلتفت حتى إلى خروج مضيفه من المطعم.

بينما كانت الفتاة الخمرية تنهى وصلتها الموسيقية بتمرير أصابع يدها مجتمعة على السلم الموسيقى ليحدث رنينًا مألوفًا معلنا نهاية المقطوعة.

(٣٢) الخروج

على طول الطريق إلى وزارة الداخلية وفي صحبة المهندس حسن تذكرت حازم عندما كان يدعوني إلى الاعتكاف في المسجد أو الخروج في سبيل الله لنشر الدعوة كما كان هو وباقي الإخوة يفعلون.. كنت أجد حرجاً بالغاً في الرد لأنني لم أكن أميل لأفكارهم التي تكرر للعزلة عن المجتمع الذي يرونه كافرًا وأراه أنا مجتمعًا عاديًا فيه من الحسن بقدر ما فيه من الغث.

فكرت كثيرًا ما الذي يدعو شابًا متفوقًا وسيماً قويًا مثل حازم إلى اعتزال المجتمع وتكفيره؟ هل يرجع ذلك إلى فساد المجتمع أو فساد الحكم؟ هل هي مظاهر الاضطهاد الذي حكى لي عنها كثيرًا أثناء دراسته في كلية الهندسة.

رسوبه في إحدى المواد لأن لحيته لم تكن لتعجب الأستاذ حتى أنه أمره بحلقها حتى يتمكن من حضور محاضراته...

دخوله في مناقشة حادة مع أحد المعيدين الذي أمر زميلة له منتقبة بأن تخلع قفازها أثناء عملها في المعمل، كان المعيد يرى أن القفاز يعوقها عن تأدية عملها كما ينبغي بينما كان حازم يرى أن من حقها عدم الكشف عن يديها كما يأمرنا الدين.. فما كان من المعيد إلا أن طردهما من المعمل ومن درجات العمل في هذا الفصل الدراسي.

ثم جاءت الحادثة التي ضاعفت من شهوة الاضطهاد عند حازم عندما رفعت إدارة الكلية اسمه وأسماء كل زملائه الملتحين من كشوف انتخابات اتحاد الطلبة بالكلية وذلك بناءً على تعليمات جهاز أمن الدولة العليا، التي رأت أن حازم له ملف لديهم زاهر بكل أنواع التجاوزات

أولها أنه عائد من أفغانستان ويشترك في مظاهرات ضد النظام، وأبسطها حضوره المتكرر لدروس الشيخ وجدى وأفكاره التصادية مع المجتمع التي يعبر عنها على الملأ ودون خوف.

فى أحد الأيام التى جلست فيه معهم بعد صلاة العصر فى الجامع الواقع فى شارعنا لم أجد بداً من الحديث إلى صديقى بعد أن نفذ يديه من درس دينى قصير يعقب الصلاة تحدث فيه عن فضل اللحية وثبوت أدلة إطلاقها. كنت أنا الحليق الوحيد فى هذا المجلس، لم أشعر مطلقاً بأهمية إطلاق اللحية من عدمه حتى تكون محور تفكير هؤلاء.

جلست بجوار حازم محاولاً إسداءه النصيحة بعدم الخوض فى هذه الأنشطة المرصودة من الأجهزة الأمنية والاكتفاء بالصلاة وممارسة الشعائر الإسلامية فقط وأنه لا بد له من التركيز فى دراسته الصعبة وأن ما يحدث معه فى الكلية حرياً بأن يجعله يعيد النظر فى وجهته وأولوياته.

ضحك حازم ساخراً من كلامى ثم أردف:

- أنت قابلت أبويا إمتى؟

- الشيخ يوسف خايف عليك وعنده حق.

ثم اعتدل فى جلسته وأكمل بشيء من السخرية:

- أنا راضى بحياتى كده سواء عجبكم أو لا.. وقل للشيخ يوسف أن الدين فى خطر وكان أولى به أن يحثنى على الدفاع عنه.

- ليه شايف أن الدين فى خطر.. مين اللى قال كده؟

رد على هازناً:

- آه قول بقى أن إحنا شعب متدين بطبعه والكلام ده.. الدين أصبح له متربصين بالمرصاد وسوف يأتى اليوم الذى نمكن فيه لدين الله ولو كره الكارهون.

- أنا مش حاجادلك لكن دراستك حتخدم الدين بدرجة أو بأخرى.

- أنا حاولت كتير إنما مش نافع.. ماحدش عايزنى أنجح كلهم ضدى.

وفى نفس الأسبوع كان حازم مع بعض الإخوة الذين تم استبعادهم من انتخابات اتحاد الطلبة ينظمون مظاهرة تخرج من مسجد الكلية للتنديد بالممارسات التى يقوم بها الجيش الإسرائيلى لقمع الانتفاضة الفلسطينية التى أطلق عليها انتفاضة الحجارة والتى كانت نشرات الأخبار لا تنفك تذيع أخبارها التى تتخلع لها الأفئدة وتغص مشاهدنا الحلوق.

كان حازم يخطب فى الطلبة بأنه لا يصح أن نسكت على هذا الفجر الذى يحدث من اليهود الكفرة أحفاد القردة والخنازير فى حق إخواننا المسلمين فى فلسطين. يجب أن تسمح لنا حكوماتنا أن نجاهد فى فلسطين لدرء هذا الظلم عن إخواننا. كيف لنا أن نتحلى بأى نخوة ورجولة ونحن نرى جندياً إسرائيلياً غاشماً يركل امرأة فلسطينية مسنة بقدمه، أو ينتهك عرض فتاة مسلمة أو يقتل طفلاً يلقي عليه حجارة صغيرة. إننا نعيش فى زمن وإسلامه أطلقتها امرأة فلسطينية وجب علينا جميعاً نصرتها كما فعلها من قبل الخليفة المعتصم عندما هب لنجدة امرأة العراق فى صدر الدولة الأموية.

وعندما حمل أحد الإخوة حازم على كتفيه ليقود المسيرة ويهتف

داخل أروقة الجامعة كان حرس الجامعة يطوقون المسيرة من كل جانب وأصدر اللواء قائد الحرس أمراً بالقبض على حازم وهو يهتف:

إسلامية.. إسلامية.. خير خير يا يهود.. جيش محمد سوف يعود.

خرج حازم معنا من مبنى وزارة الداخلية بعد أن تدخل المهندس حسن له عند بعض المسؤولين بالحكومة بعد أن أقنعهم بأنهم لن يسمعوا به مرة أخرى. سلمت عليه واحتضنته دون كلمات، كان يبدو تقيساً متعباً شبه منهار من فرط ما كان يلاقيه من تعذيب. تركته يعود مع المهندس حسن وذهبت أنا لحضور إحدى المحاضرات بالكلية ووعدته بزيارته في المساء.

على طول طريق العودة من مبنى وزارة الداخلية فى لاطوغلى إلى بيت الشيخ يوسف فى كوبرى القبة كان المهندس حسن يحاول إقناع حازم بالابتعاد عن المظاهرات والسياسة حتى يتمكن من إتمام دراسته ثم فليفعل ما يحلو له فيما بعد.

- الدين يا ابنى فى احتياج لشباب متعلمين مش جهلة... خلص أنت تعليمك بس وأنا حاساعدك.

كان كلام المهندس حسن بالنسبة لحازم كتلك الأسطوانة المسجلة التى سمعها كثيراً من قبل، خصوصاً من والده الشيخ يوسف تدور ولا يسمع إلا صوت دورانها.

حتى باغته حازم قائلاً:

- يا باشمهندس أنا عايز أسافر.

بهت المهندس حسن قليلاً قبل أن يجيب:

- تانى يا حازم؟! عايز تسافر فين المرة دى؟

- السودان إن شاء الله.

- وأبوك يا حازم ده أنت ابنه الوحيد؟

أجاب حازم بشىء من الحسم:

- أبويا المفروض يفتخر بأن ابنه واحد من المجاهدين فى سبيل الله.

- طيب وأمل بدك تتركها؟!!

- أمل تفرح لما تعرف أن زوجها بيقوم بواجب مقدس.. انت المفروض تكون أكثر واحد فاهمنى يا باشمهندس.

حك المهندس حسن جبهته ممعناً فى التفكير:

- أنا مقدرش أعمل كده من ورا ضهر الشيخ يوسف لازم موافقته.

- شوف يا باشمهندس أنا كده أو كده حاسافر سواء عن طريقك أو عن طريق أى حد تانى أنا خلاص عرفت طريقى ووهبت نفسى للجهاد فى سبيل الله.

- طيب يا ابنى ارجع بس أنت البيت واللى فيه الخير يعملهم ربنا.

أحس حازم أن المهندس حسن يستخف بكلامه إلا أنه كان عاقد العزم على اللحاق بركب المجاهدين فى سبيل الله حتى يحظى بهذه الحياة الوحيدة التى ألفها.. مجتمع المؤمنين الذى رأى مشاهدته فى أحلامه

ورؤاه متأثراً بحكايات الشيخ وجدى عن الصحابة أيام الرسول وفى الغزوات.

رجال يرتدون الملابس البيضاء يطلقون لحاهم دون تهذيب حتى تتعتمد على صدورهم ونساء يرتدين العباءات السوداء لا يظهر منهن شئ إلا أعينهن الخجلى.

كان حازم يهفو إلى هذه الحياة كما يهفو الشهيد إلى تنسم روائح الجنة.

وبعد يومين من رجوعه إلى البيت قضاها معترلاً فى غرفته لا يكلم أحداً، حتى أنه لم يتكلم مع أمل عندما طلبت منه أن يعود إلى منزل الزوجية لكنه هز رأسه بالرفض فأصابها بصدمة شديدة جعلتها تبكى بكاءً حاراً وتعود لتعيش فى منزل والديها، استقبلت معه ورقة طلاقها من حازم فى اليوم التالى.

ظل حازم هكذا حتى استيقظ الشيخ يوسف فى فجر أحد الأيام على صراخ زوجته وهى تقرأ رسالة تركها حازم على سريريه يخبر فيها والديه بأنه قد وهب نفسه للشهادة فى سبيل الله.

وأنه عند قراءتهم هذه الرسالة يكون هو فى طريقه إلى السودان لينضم لركب المجاهدين.

(٣٣) نجوى

جفناى يقاومان الجاذبية الأرضية بكل ما أوتيا من قوة، أرفع رأسى
عن الوسادة بصعوبة بالغة.. شمس الظهيرة تغرق فى فراغ الغرفة..

نهضت بصعوبة من سريرى الذى كان أشبه بالكفن.. تعثرت فى
زجاجة بيرة فارغة.

رائحة سجائر نافقة تخرج من منفضة مكتظة بأعقابها التى لوث
بعضها لون أحمر.

رائحة عرق إنسانى تفوح من حولى.. أفتح النافذة لتجديد الهواء.

تستيقظ نجوى.. تفرك عينيها اللتين أصابتهما حمرة.. تحاول لملمة
شعرها المبعثر فى الاتجاهات الأربعة. يسقط الغطاء عنها كاشفاً عريها
بالكامل. ثديان ممتلئان يتدليان كثمار المانجو وسيقان بيضاء ناعمة.

تنهض بسرعة إلى الحمام.. تسحب المنشفة وتضعها على كتفيها..
تقبلنى قبلة بلا طعم.. تستدير معلنة عن ردفين مكتنزين تم إمدادهما
بالدهون على مدى أعوام طوال.

لماذا لم تعد تثيرنى نجوى الآن بعد أن كان عريها يشعل جسدى
بالأمس؟

أنا الآن أدير وجهى وهى تقبلنى لأننى شممت رائحة فمها الكريهة.

ما سر المرأة؟ لماذا تلهب جوارحنا وتجعلنا نتوق شوقاً إلى لمسة من
جسدها ثم بعد ذلك ينطفئ كل شىء؟!

لا بد أنه الحب هو ما يحول بيننا وبين تحولات الرغبة تلك. نعم لو كانت أمل مكان نجوى لما انتهيت من لذة عشقها أبدًا وما انطفأت رغبتى فيها مطلقًا. لا بد أن الحب هو تلك الكيمياء التى تجعلنا أسرى لمن نحب دون أن نلاحظ عيوبه وأدراجه الجسدية.

قبلت نجوى مضطراً وأنا أودعها كما لو كانت لغة جسدى تخبرها ألا تاتى ثانية.

حاولت تنظيف البيت ببتاقل حتى أعلن جرس الباب عن قدوم زائر بلا موعد. فتحت الباب لأجد آخر شخص فى هذا العالم أريده أن يرانى فى مثل حالتى تلك؛ إنه حازم. لم أكن قد رأيته منذ طلاقه من أمل.

- حازم أهلاً اتفضل.

قلت لها وأنا أتمنى ألا يدخل فقد يرى من الموبقات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت.

- أين أنت يا رجل؟ لم تظهر منذ أسبوع.

دخل حازم وجلس على الأريكة بجوار باب الشقة، وحمدًا لله فقد قذفت بقدمى آخر زجاجة بيرة مهملة لم تجد من يلقيها فى سلة المهملات فاستقرت أسفل أريكة الشيخ حازم تمامًا.

- ما هذه الحالة الرثة التى أنت عليها؟! ألا تغتسل ألا تصلى يا رجل؟

- حازم.. ارحمنى وحياء أبوك أنا عندى ما يكفينى من المشاكل.

اعتدل فى جلسته وقال بهدوء:

- هل رأيت أمل؟

- نعم.. شبه منهارة بعد الطلاق.

تردد قليلاً ثم أردف:

- شعور غريب يا صديقي يتملكنى هذه الأيام لم أخبر به أحداً أنت أول من أحدثه فى هذا الموضوع.

- فيه إيه يا حازم ما لك؟

- أنا أشعر أحياناً بالاشتياق لأمل أشعر أنى أضعتها من يدى يا صديقى.

قالها ثم اغرورقت عيناه بالدموع.. ناولته منديلاً ليمسح به دموعه قبل أن يكمل.

- كان يجب على أن أوليها اهتماماً أكبر.. لم يكن الطلاق هو الحل أبداً.. أشعر أننى تسرعت.

ما الذى يحدث لحازم؟ هذه أول مرة أراه يبكى أو أرى هذه النظرة الرومانسية فى عينيه.. إنه الحب الذى لا نعرف كنهه.

سألته:

- ماذا يحدث لك يا شيخ؟

مسح دموعه وتحدث بصوت حان:

- بعد الطلاق شعرت بوحدة غريبة لم أعدها من قبل.. كيف

أصبحت وحيداً فجأة؟! طبعاً كما تعرف لم تكن حياتي مع أمل على خير
ما يرام فدانماً كانت هناك مشاكل وخلافات لا تنتهي. لم تكن هي
الزوجة التي أسكن إليها كما ورد في الذكر الحكيم رغم أنها كانت ذات
الدين التي طالما اشتقت للظفر بها.

ثم صمت قليلاً كأنما يستجمع كلماته:

- كان يجب الصبر عليها قليلاً حتى تصبح الزوجة الكاملة. التي
تحدث عنها الدين.

باغثه بسؤالى وأنا أصدق فى عينيه مباشرة:

- هل تحبها يا شيخ؟

ارتبك حازم ثم قال متسرّعاً:

- لا لا.. ليس حباً أنا لا أعرف الحب الذى تقصده أنا أعرف ما أمرنا
الله به فقط.. الحب الذى أعرفه هو السكن وطيب المعشر.

- هذه هى المشكلة يا شيخ.. الحب فقط هو ما يجعلنا نتغاضى عن
عيوب المحبوب، فعندما لا يوجد حب تصبح أمل أو نجوى سيان.

أفلتت منى العبارة دون قصد.

- من نجوى؟

- إنها أى أحد لا أقصد أحداً بعينه.

- أنت تقصد أننى لم أكن أحبها لذلك لم يدم زواجنا؟

أجبتة مؤكداً بثقة بالغة:

- نعم هذا ما أقصده تحديداً.

صمت حازم قليلاً قبل أن يلقي قذيفته في وجهي كما كان يلقي قذائف
الآر بي جي من مدفعه على الروس في أفغانستان:

- وأنت ألم تكن تحبها أيضاً؟

ارتبكت.

- أنا كيف؟

- لا تقلق يا أخي أنا أعلم أنك كنت صديقاً وفيّاً دائماً ولم تكن لتخون
صداقتي، ولكن كنتُ أعرف أنك تحبها منذ أن كنا صغاراً.

- حازم ما هذا الذي تقوله؟ أنا كنت أحب أمل كصديقة طفولة
وكأخت.

- لا تستح يا صديقي أنا أعرفك وأعرفها أكثر مما تعرفان نفسيكما..
لقد كنت ألمح نظراتك لها ونظراتها لك ونحن صغار.

لجلج لسانى وهو يقول:

- هذا كان ونحن صغار يا شيخ أما بعد ذلك فلا شك أن أمل كانت
تحبك أنت لا شك فى ذلك.

- هل تعتقد ذلك؟

- نعم بكل تأكيد، أنتما أقرب شخصين لى فى هذا الوجود وأعرف ما

يدور بخلدكما قبل أن تتقوها به.

- ولكن ما أهمية هذا الآن؟ لقد أضعتها إلى الأبد.

قالها حازم وقد زاع بصره قليلاً وقد أخذ يحدق فى موجات رؤية لا نهاية لها.

لك الله يا أمل نحن لم نحسن معاملتك ولا حافظنا عليك كما ينبغي.

نهض حازم مودعاً، وأطال فى احتضانه لى بطريقة مبالغة قليلاً قبل أن يقول:

- إنى راحل يا أخى لن أتمكن من البقاء هنا أكثر من ذلك.

- إلى أين يا حازم؟

- سوف أذهب هذه المرة إلى السودان.. الأمل هذه المرة موجود هناك..
سوف نقيم الدولة التى نحلم بها. البشير رجل قوى ويؤمن بتطبيق
الشريعة والتراعى رجل دين حقيقى بارك الله فى جهودهما لنصرة دين
الله.

لم أحب أن أجادله هذه المرة:

- فكرت كويس يا شيخ؟

- لا تقلق يا صديقى سأكون بخير، أنت تعلم أنى قد وهبت نفسى
للجهاد ولن أترك هذا الأمر أو أهلك دونه.

ودعت حازم كأننى أراه لآخر مرة، وعندما لوح لى بيده قبل أن
يغلق باب المصعد كنت قد تذكرت الخبر الذى احتل عناوين الصحف

فى اليوم السابق:

طرد أسامة بن لادن من المملكة العربية السعودية وترحيب النظام
السودانى به وبعائلته وأمواله.

(٣٤) رحيل حازم

اصطحبت حازم إلى مطار القاهرة قبل موعد طائرته المتجهة لمطار الخرطوم بأربع ساعات، كانت كفيلة من وجهة نظره للانتهاء من الإجراءات التعسفية التي سيتم اتخاذها معه من قبل ضابط الجوازات وأمن المطار، بمجرد أن يلمح أحدهم لحيته الطويلة أو تلقى لهم شاشة الكمبيوتر بيانات حازم التي يتصدرها عنوان كبير: عائد من أفغانستان.

تركته عند بوابة المطار.. لم تكن لحظات الوداع تحمل نفس المشاعر المتوقعة بين صديقٍ عمر بقدر ما كانت تعبر عن لحظة هروب صديق يسير بقدميه نحو المجهول. حازم نفسه كان كما لو أنه يؤدي عملاً ثقیلاً على قلبه.. كان ساهماً لا تنطق ملامحه بما يختلج في نفسه.

تذكر رحلته الأولى إلى بلاد الأفغان، كم كانت روحه وقتها تهفو إلى الطيران محلفة تسابق الطائرة. أما هذه المرة فهناك أمر ما لم يتمكن من سبر أغواره.. أين روح الجهاد التي تلبّسته.. أين هذا الشعور المتدفق برغبة الاستشهاد؟

لقد ترك كل ذلك في جلال أباد.. لقد كنا قاب قوسين أو أدنى من تحقيق الحلم.. لقد دانت لنا تلك اللحظة التاريخية ولم نستغلها.. لقد لطح هؤلاء المرتزقة شرف الجهاد. بصراهم المستمر طلباً للعالم بعد أن ظنوا خطأ أنهم ضمنوا الآخرة.

وأنت أيها الميجور جورج القائد الأمريكي الهمام والمسئول عن عملية المجاهدين في قندهار؟ لماذا تركتنا وحدنا هناك دون أن نكمل

هل تذكر كلامك أيها الميجور عن أفغانستان جديدة حديثة نبيها جميعاً بعد زوال العدوان؟ ألم تكن تشحذ فينا الهمة والعزيمة وتدربنا على استخدام كافة الأسلحة القتالية لكي ننتصر ثم نبني هذا الوطن؟ أين ذهبت وعودك عن بناء المستشفيات والمدارس لعلاج وتعليم هذا الشعب الفقير المنكوب؟ أين حديثك عن تعبيد الطرق بين الجبال حتى نهون على الأفغان التنقل بين المدن بسهولة؟ ألا تذكر الشاب الأفغانى الذى وجدناه فى أحد شوارع كابول بين الحياة والموت يلفظ أنفاسه الأخيرة بعد تعاطيه لجرعة زائدة من الهيرويين؟ لا ننسى قولك وقتها عن تطهير البلاد من هذه السموم، وكلامك عن إحلال زراعة القمح بدلاً من الأفيون فى كل الأراضى الأفغانية...

هل كنت تكذب علينا يا ميجور؟ هل ذقنك التى ربيتها وارتداؤك للجلباب ولغتك العربية السليمة وكنيتك الجديدة أبو عبدالرحمن... هل كان كل ذلك محض هراء؟! لقد تركتنا بهذه البساطة بمجرد خروج آخر جندي روسى.. لقد تركتنا للموت فى جلال أباد دون أن يطرف لك جفن.

أم تراك قد شاركت فى ذلك.. هل كانت رصاصة رحمة لحسان أدى مهمته ولم يعد له أهمية بعد ذلك؟ هل استغفلتنا يا ميجور وخذعتنا لكى نحارب من أجلك؟

لا يا ميجور لسنا بهذه الحماسة ولن نكون.. عما قريب ستعرف من هم المجاهدون وستدفع الثمن غالياً.. الثمن هو دمك.. الثمن هو موتك.

عندما غادرت عجلات الطائرة أرض المطار لم يشعر شعوره الأول

بالتحرر كما لو كانت الطائرة تتشبث بالأرض لا تطلب فراقها.

كانت الرحلة مختلفة هذه المرة كما لو كان مضطراً للرحيل. هذا الشعور الذى استقر فى نفسه بعد أن قضى يوماً كاملاً بالمطار حتى فوت الضباط عليه الطائرة، وسمحوا له على مضض باللاحاق بطائرة اليوم التالى..

غرفة قاتمة يتخللها ضوء خافت يفتersh الأرض الباردة حتى يحظى باهتمام ضابط المباحث الذى يستجوبه لدقائق ثم يخرج، ولا يعطيه أى انطباعات حتى يعود ويسأله من جديد.. يسأل نفس الأسئلة ويتلقى نفس الإجابات. دون أن يعرف مصيره؛ هل يلحق بطائرته ويحاول مرة أخرى تحقيق الحلم فى بلد آخر هذه المرة ويعيش فى الجنة الموعودة أم يعود إلى محبسه من جديد؟! هكذا كانت تمثل له إقامته فى القاهرة. أم أنهم سوف يستمرون فى استجوابه ويظل عالقاً بصالة المطار كأنها أعراف تأسره بين جنة متخيلة وبين جحيم معيش.

تنفس الصعداء بعد أن لمح البيوت تتضاءل فى عينيه قبل أن تستحيل سراباً لا يعلق بالذاكرة.

الرحلة هذه المرة أقصر من سابقتها.. ساعتان هذه المرة وسوف يرتقى فى أحضان مدينة الخرطوم عاصمة الخلافة المرتقبة لهذه التجربة الثانية بعد أن فشلت تجربة كابول الأولى.

فى مطار الخرطوم وهو ينتظر حقيبته وجد من يرتب على كتفه من الخلف:

- مرحباً بك فى بلاد السودان يا حازم.

استدار حازم بلهفة من يعرف صوت محدثه ليرتقى فى أحضان أبو قتادة زميل الجهاد فى قندهار والذى فقد عينه فى إحدى المواجهات مع الملحدىن الروس، حتى أصبحت تكلل وجهه بشرف الجهاد كأفضل ما يكون نوط الشهادة الذى تمنحه الجيوش الكافرة لضباطها.

أخذ أبو قتادة على طول الطريق يحكى لحازم عن الحياة فى السودان والمزرعة التى يعيشون فيها الآن فى مكان خارج الخرطوم التى اشتراها أبو عبدالله وهى كنية الشيخ أسامة بن لادن قاهر الروس.

حلت الطمأنينة فى نفسه وغمرها نور وحلاوة افتقدها حازم كثيراً من عودته من الجهاد الأول من بلاد الأفغان وأصبحت روحه تهفو للقاء الشيخ أسامة والمجاهدين.

استغرب حازم كثيراً من طول المسافة التى قطعتها السيارة الجيب التى يقودها أبو قتادة بنفسه من عدم تعرضهم للوقوف فى أحد الكمائن أو إبراز الهويات للشرطة كما كان يحدث لهم فى أفغانستان أو باكستان. إلا أن أبو قتادة قال له أن الوضع هنا فى السودان يختلف كثيراً.

رغم سخونة الهواء على طول الطريق إلا أنه كان منعشاً ومرحباً بالقادم الجديد.

وقفت السيارة أمام مدخل المزرعة. ترجل حازم وأبو قتادة من السيارة وقادهما أحد الإخوة الملتحين يحمل كلاشينكوف إلى الداخل، وسلمهما إلى خادم هندى غير ملتج ولا يتحدث العربية الذى قادهما بدوره إلى داخل الاستراحة الفاخرة التى يقيم فيها الشيخ أسامة.

قدم لهما الخادم كوبين من ألبان الماعز وصحناً كبيراً يحتوى على تمر. مد حازم يده وتناول ثمرة أتبعها بجرعة كبيرة من اللبن.

- كم كنت أشتاق إلى هذا الارتواء!

- بالهنا يا أخى.

وبعد لحظات أبصر حازم شابًا نحيلًا يرتدى جلبابًا أبيضًا وغرة بيضاء ناصعة تعلو رأسه مثبتة بعقال أسود فاحم يرنو إليهما.

ولما اقترب من حازم احتضنه وبكى:

- كم اشتقت إليك يا شيخنا!

ربت الشيخ أسامة على كتفه بحنو وقال بصوت مرحب:

- مرحبًا بك يا حازم.. كيف الحال بمصر؟

- الحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه.

- لقد كنا ننتظرك بالأمس.

- احتجزونى بالمطار.

- شنو.. شرطة مبارك ما عندهم رحمة.. الله ينصر الإسلام يا ولدى.

ثم نهض الشيخ واقفًا لينهى مكالمة تليفونية وطلب من أبو قتادة أن يصحب حازم إلى معسكر التدريب حتى يستريح من عناء السفر.

(٣٥) دكتور جلال

كانت تلك التجربة القاسية فى قسم الزيتون هى نقطة التحول فى حياتى العملية.. نعم سوف أنسى كل ما تعرضت له من مأس فى الفترة الماضية، سوف أنسى السياسة بكل ما فيها من هنات وتبعات غير مريحة، سوف أنسى حواراتى ومجادلاتى الطويلة مع حازم ومن على شاكلته ممن يفهمون الدين بشكل أحادى لا يقبل التأويل أو الاختلاف أو حتى الجدل.

لن أتمكن مهما فعلت من إقناعهم ولن يتمكنوا مهما فعلوا من تغيير قناعاتى.. إنه جدل عقيم فى النهاية ذلك الجدل الذى لا يقيم قواعد المنطق ولا أسس النقد الذاتى كأرضية رحبة للحوار. إنهم عاطفيون تحركهم الأهواء والانفعالات وليس الحكمة والعقل، إنهم متعصبون لآرائهم لا يرون غيرها.. هم أحاديو الفكر لا يعترفون بالتعدد أو الحق فى الاختلاف؛ لذلك يجب أن أعود سريعاً إلى برجى العالى، يجب أن أكون مع من يفهمنى مع من يشاركنى أفكارى وقناعاتى ويحترم رأىى.

هذا كان دافعى الأساسى فى التسجيل فى الجامعة لدراسة الماجستير فى العلوم السياسية.

يومها قابلت الدكتور جلال وحكى له ما كنت أعانى منه من حالة مزاجية سلبية سيطرت علىّ خلال العام الأخير لى بالكلية أعقبت زواج أمل وخسارتي لانتخابات اتحاد الطلبة بالجامعة أمام مرشح إسلامى قال أننى ليبرالى كافر أعارض شرع الله فى تعدد الزوجات وأقبل بزواج المسلمة من مسيحي.

لم أكن قد ذكرت ذلك فعلاً ولكنهم كانوا قد سألوا عن رأىى فى تعدد

الزوجات فى إحدى جلسات الجدل السياسى الذى تحول إلى دينى فأخبرتهم أن الأصل فى الدين ليس التعدد لأن الله شدد على مفهوم العدل فى حالة تعدد الزوجات بقوله على أن تعدلوا بين هؤلاء الزوجات ثم اختتم الآية بقوله ولن تعدلوا.. مما يعنى أن تحقيق شرط الله فى العدل ليس سهلاً.. مما يستتبع صعوبة حدوث التعدد. فثارت الدنيا على من قبل المنافس الإسلامى ولم تهدأ كما لو كانت قضية تعدد الزوجات هذه هى عماد الدين الإسلامى وركن من أركانه الخمس.

كنت أحاول أن أثبت لهم أن الليبرالية لا تتعارض مع الإسلام انطلاقاً من قوله تعالى: "من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر" حيث إن الله يخيّرنا ما بين الإيمان أو الكفر، فكيف لا يكون لنا حرية الاختيار فيما دون ذلك؟!

هذا طبعاً لا يعنى أن الليبرالية هى الحرية المطلقة غير المنضبطة التى لا تتحمل مسئولية أفعالها، كما هاجمنى أحدهم بأن الليبرالية تبيح الشذوذ الجنىسى بل ممارسة الجنس خارج إطار الزواج، وما إلى ذلك من مخالفة الشريعة.

فكنت أقول إنها تبيح الفعل الذى تريده ويكون عليك وقتها أن تتحمل تبعاته.. فإن خالفت القانون تدخل السجن وإن خالفت الأصول والعرف فسوف ينبذك المجتمع وإن خالفت الدين تدخل النار، الليبرالية تدعوك أن تتحمل مسئولية أفعالك خيراً كان أم شراً.

لم يكن كلامى يجد صدًى فى نفوسهم لأنهم تربوا على طريقة نمطية فى التفكير لا تعتمد على أعمال العقل كما أمرنا الله ولكن على النقل والهوى؛ لذلك كانت خسارتى لانتخابات اتحاد الطلبة عن اللجنة الثقافية فى السنة الأخيرة من الدراسة شيئاً طبيعياً جداً مع هذا النمط المحدود

من التفكير والعقول المغلقة التى لا تقبل الآخر وغير مستعدة للاختلاف، فكيف لهذا الليبرالى الفاسق من وجهة نظرهم الذى يقيم حفلات الغناء والرقص والشعر والمسرح ويشجع الطلاب عليها أن يفوز أمام من يتحدث عن حجاب الفتاة وشرفها ولحبة الفتى وسواكه ويقيم الندوات الدينية للشيخ وجدى ومن هم على شاكلته.

الخسارة كانت قاسية بعد ثلاث سنوات حاولت فيها تقديم شىء مغاير ومستتير لزملائى لا يخلط بين الدينى والدينوى أو بين التدين الروحى والشكلى ويُعلى من قيمة العلم والمنطق. لم أكن أتصور أن يكون الفشل بهذه الدرجة حتى أن فريق الرقص الشعبى الذى كونه لم يبقَ منه غير ثلاثة فتيان وفتاة واحدة محجبة وفريق التمثيل المسرحى تحجبت كل فتياته.. كما تم الاعتداء على عازف الكمان والعود وتكسير آلاتهما الموسيقية قبل العزف عليها فى إحدى الحفلات.

لقد اقتنعت فى النهاية أن مواجهة هذا التيار المتطرف شىء من الحماسة.. لا بد أن أبتعد عن هذا الهراء وأتفرغ لدراساتى وأبحاثى.. لذلك جئت إليك يا دكتور.

أجاب الدكتور جلال بعد فترة صمت وتأمل:

- إن ما تشعر به هو شىء طبيعى فكلنا قد تعرضنا بدرجات متفاوتة لهذا الشعور ولنفس الحالة. فأنا مثلاً تعرضت للاعتداء بالجنازير والعصى داخل الحرم الجامعى فى منتصف السبعينيات عندما أرخى السادات الحبل للجماعات الإسلامية فى الجامعة لتفعل ما يحلو لها لمواجهة المد اليسارى والناصرى الذى كان يخرج السادات فى هذا الوقت.

- ولكن ما العمل يا دكتور هل نصمت على ذلك؟

- شوف يا سيدى هذا المجتمع لن يتغير إلا إذا اختلفت طريقة تفكير الناس طبقاً لنظرية نيوتن فى رد الفعل.

- كيف يا دكتور؟ لا أفهمك!

- طالما أن الإسلاميين يعتمدون على التأثير فى الناس بعوامل غير منطقية ولا عقلانية تبتعد عن صحيح الدين وتبيح لهم فعل كل ما يحلو لهم باعتبارهم يمثلون الدين ويدافعون عنه.. فلا بد طبقاً لنيوتن أن يكون لذلك رد فعل عكسى سوف ينقلب عليهم فيما بعد مهما طال الزمن.

- لا أعتقد يا دكتور فهذا الطرح مستحيل.

- بل صحيح وعلمى جداً سوف يأتى يوم يفكر فيه الناس فى الدين بشكل مختلف، سوف يجدون من يلهمهم بشكل مختلف، حتى لو لم يكن هذا الملهم عقلانياً ولا منطقياً.. سوف يصدق الناس وينقلبون على الإسلاميين. وهنا سوف يخسرون المعركة إلى الأبد.

- ولكن من يكون هذا الملهم يا دكتور؟

- يمكن أن يكون إسلامياً آخر أكثر اعتدالاً أو أكثر تطرفاً.. يمكن أن يكون شخصية وطنية مدنية كمصطفى كامل أو شخصية عسكرية كجمال عبدالناصر. الاحتمالات كثيرة ولا تنتهى ولكن لا بد أن تعلم أن المقدمات غير المنطقية لا تؤدى أبداً إلى نهايات منطقية وهنا تكمن إشكالية الإسلام السياسى.. ليس لهم مخرج من ذلك إلا بدراسة الفلسفة والمنطق.

- أعتقد أنها ليست مشكلة الإسلاميين فقط يا دكتور، إنها مشكلة العسكريين أيضاً والنظام الحالى خير دليل على ذلك.

- نعم بطريقة أو بأخرى معك حق ولكنى أركز على الظاهرة الإسلامية لأنها محل دراستى.

- ولكن سؤالى يا دكتور عن التعليم الجيد هل يمكن أن يمثل وقاية للمجتمع من الوقوع فى براثن التطرف الدينى؟

- شوف يا سيدى أعتقد أن التعليم يمكن أن يكون حلاً ولكن بنسبة معينة فالمشكلة لا تكمن فى التعليم بقدر ما تكمن فى الإصلاح الدينى كما حدث فى أوروبا فى القرون الوسطى. فمثلاً أمريكا لديها تعليم جيد وأسهم بشكل فعال فى إقامة أسس الديمقراطية والحدثة لا شك فى ذلك، ولكن كيف تفسر لى وجود ما يقرب من ٢٥% من المجتمع الأمريكى متطرفون دينياً ويؤمنون بحرب نهاية التاريخ فى هرمجدون وعودة المسيح ليحكم العالم ألف سنة سعيدة كما يعتقدون رغم أن الإنجيل يخبرنا أن المسيح قال مقولته الشهيرة: مملكتى ليست فى هذا العالم!

- معقول يا دكتور أن هذا يحدث فى أمريكا؟

- نعم.. ألم تسمع عن تيموثى مكفاى اليمينى المتطرف الذى فجر مبنى التجارة العالمى فى أوكلاهوما العام الماضى.. كذلك ديفيد كورش الذى انتحر هو وأتباعه بحرق المبنى الذى يقيمون فيه لإيمانهم بنهاية الكون.

- أعتقد أن هذا موضوع شيق للدراسة يا دكتور.. أنا ريقى جرى.

- أنا مسافر أمريكا الشهر اللى جاى وده سيكون موضوع دراستى للدكتوراة ويمكن أجيب لك كتب تفيدك فى الموضوع ده.

- شكراً يا دكتور. أنا حافقتك جداً.

- المهم أنك تجتهد وتأخذ بالك من الدراسة؛ لأن دراسة ظاهرة الإسلام السياسى دراسة مرهقة جدًا وتحتاج لبحث طويل.

- ربنا يوفقنى يا دكتور وأكون عند حسن ظنك.

- إن شاء الله بالتوفيق.

قالها الدكتور جلال وهو يشعل السيجار الكوبى الفاخر الذى اعتاد على تدخينه قبل أن ينهمك فى متابعة أبحاثه وكتبه فى ذلك المكتب الضيق بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية والذى كان بمثابة المحراب الذى تلقيت فيه وحى الفكر والإبداع العظى الذى سوف أفقده كثيرًا عند سفره إلى بلاد العم سام.

تركت مكتب الدكتور جلال وأنا أحلم بأطروحته العلمية التى أود أن أسير على دربه فى إكمالها.. دراسة التطرف الدينى فى مصر.. فى أفغانستان وحتى فى أمريكا التى لم أكن أتصور أن بها متطرفين.

ليتنى أسافر إلى هناك يومًا ما لأكتشف ذلك المنجم الداخر بالأطروحات الثرية، نعم لا يمكن أن تكون دراسة ظاهرة التطرف الإسلامى بمعزل عن دراسة التطرف فى الديانات الأخرى فهناك تطرف مسيحى وآخر يهودى وتطرف بوذى أيضًا.

لم ينشأ الدين من أجل ذلك لقد أرسل الله رسله لتهدى الناس وتقيم الحق والعدل والرخاء للبشر، لا لكى تضع البشر فى مواجهات دموية وصراعات لا تنتهى إلا بتدمير الآخر كما يرى المتطرفون.

(٣٦) الصحيفة

استيقظت أمل فى أحد الأيام على جرس الهاتف يرن فى حدة وتتابع رتيب، لم تتمكن أمل من تجاهله لكى تكمل نومها واضطرت للقيام والرد على مكالمة زميلتها بكلية الإعلام، ريم، التى كانت صديقة أمل الأنتيم قبل اتجاه أمل إلى الأخوات ثم الزواج.

أتى صوت ريم مرحًا كعادتها:

- أمل أنتِ فين؟ وحشتينى.

أمل ترد بصعوبة وقد تركت نصف وعيها الإدراكى فى الفراش:

- مين معايا؟!

- أنت لسه نائمة واللا إيه! أنا أسفة أنى صحيتك.

- لأ ما فى شى كيفك حبيبتى.

- الحمد لله أنا كويسة أنت وحشتينى.

- وأنتِ كمان.

- عاملة إيه.

- الحمد لله.

- شوفى يا أمل أنا باكلملك عشان شغل.

- شغل إيه؟

- يا ستى فى مكتب لجريدة أخبار القدس حيفتح فى القاهرة وطالبين صحفيين حديثى التخرج، فقلت نروح نقدم.

لم ترد أمل لوهلة كأنها تفكر فى الموضوع، ثم أجابت بعد فترة صمت:

- أنا نسيت انى صحفية أصلاً.. أنا مش بافكر فى الشغل دلوقتى يا ريم.

- إيه اللي بتقوليه ده يا أمل إزاى تضيعى تعب أربع سنين دراسة.. الطلاق مش نهاية الدنيا حاولى تخرجى من الجو ده.. ومافيش حاجة حتخرجك أكثر من الشغل.

- مش عارفة يا ريم!

- طيب فكرى وردى عليا.

- حاضر حشوف.

- على العموم فكرى كويس لسه قدامنا أسبوع على المقابلة.

أغلقت أمل المكالمة وقد قلبت أفكارها رأساً على عقب.. كيف للطالبة المجتهدة الحاصلة على أعلى الدرجات فى كلية الإعلام، التى كانت أحلامها للعمل الصحفى تتجاوز السحاب، أن تترك كل ذلك لتستحيل مجرد زوجة تقضى وقتها ما بين النوم وأعمال البيت التى تعلمها لها الداده عزيزة، وكل ذلك حتى دون أن تتال إعجاب الزوج الذى يتدمر كثيراً كلما رأى شيئاً ليس فى مكانه ثم طلقها فى النهاية.

ماذا فعلتُ بنفسى أين أمل التى كانت شعلة نشاط الكلية.. اللجنة الثقافية.. ندوات الخميس.. حفلات السمر.. جريدة الكلية التى كان يشرف عليها الدكتور سامى الذى تنبأ لها بالنجاح المذهل فى عالم الصحافة لأنها تملك حساً صحفياً عالياً. تذكرت الجرائد التى تدربت بها أثناء الدراسة.. الأخبار والجمهورية ورئيس تحرير تلك الجريدة الحديثة الذى عرض عليها العمل فى الجريدة وهى لا تزال فى عامها الثالث بالكلية.

لقد حركت ريم فيها المياه الراكدة لتتدفق الدماء فى عروقها من جديد.

سوف أكلم أبى وأحاول إقناعه، هو سوف يفهم ما أفكر فيه، هو يعلم جيداً أن حلم الصحافة كان يراودنى منذ أن كنت صغيرة.

سوف يوافق على عملى وخصوصاً أن العمل الجديد فى جريدة فلسطينية اسمها أخبار القدس، جريدة تعبر عما يحدث فى بلدنا وهذا ما حلمت به طيلة حياتى والتحقت من أجله بكلية الإعلام.

سوف أكون صحفية فلسطينية تدافع عن قضيتها وقضية شعبها المناضل الرابض على جمر الاحتلال.

سوف أبدأ أول موضوع بإجراء حوار أو سلسلة حوارات تحكى قصة دادة عزيزة، تلك الحكايات التى تربيت عليها منذ نعومة أظافرى بلا ملل أو كلل هى ما جعلنى أشعر أننى ولدت ونشأت وترعرعت فى فلسطين. هى من جعلتنى أنتمنى إلى هناك.. هيدا وطنى كنت دائماً أعيشه وأتنفسه.. أشتاق للعودة إليه كما هى حال دادة عزيزة فبالرغم من عمرها الذى قارب على الستين إلا أنها لا تزال على إيمانها بالعودة.. العودة هى دينها هى إسراؤها ومعراجها هى مسيحها القادم هى مهديها

المنتظر هي أرض ميعادها.

داده عزيزة كالسمك الذى خرج من مائه ولن يعيش إلا إذا عاد إليه.

نعم سوف أبدأ الكتابة من الآن، كتابة قصتى الصحفية الأولى دادة
عزيزة حكايات العودة المؤجلة.

رفعت سماعة الهاتف واتصلت بريم وأخبرتها بأنها سوف تذهب
معها للمقابلة.

كانت داد عزيزة هي الأم الحقيقية لأمل رغم وجود أمها الدكتورة
سوسن، التى لم تكن بالنسبة لأمل أكثر من أم بروتوكولية تهتم بملابسها
وبشكلها الاجتماعى عند الزيارات أو فى نادى الجزيرة. لم يكن
يجمعهما حبلى سرى حقيقى تتسرب منه جينات الأمومة إلى عقل وقلب
الفتاة مثلما كانت الدادة عزيزة ترسى فى داخل أمل تكويناً بنوياً مؤسساً
لثقافة الفتاة وأخلاقها كما تفعل الأمهات.

داده عزيزة هي من كانت تربي وترضع أمل حنائاً وحباً، لم تكن
الدكتورة تضع فى حساباتها أداءه لابنتها الوحيدة، ليس عن كره لابنتها
بقدر ما هو عدم استعداد لمتطلبات الأمومة التى كانت تفقدها تماماً.
فليس بالضرورة أن تكون كل سيدة بقادرة على استحضار هذا الشعور
من داخل تكوينها الأنثوى فهناك بعض النساء من نوع الدكتورة سوسن
اللائى يتمسكن بكل ما يربطهن بحياتهن الاجتماعية وخصوصاً
الأرستقراطية منها على حساب مؤسسة الزواج وتربية الأطفال.

وكان أمل الفتاة كان محكوماً عليها باليتم فى وجود أب تشغله أعماله
المالية وجولاته الجهادية وأم تقضى جل وقتها بين عيادتها أو فى النادي
أو الكوافير.

لذا كانت أمل عجيبة لينة قذف بها القدر بين يدي داهية عزيزة لتشكّلها على طريقته.

فالبرغم من أنها كانت ماثار سخرية العائلة بالكامل لغرابة أطوارها المضحكة بل المثيرة للشفقة في أحوال أخرى، والتي كانت تتجلى في قضائها معظم أوقاتها بين المقامات والأسئلة تزور أولياء الله الصالحين وتحضر جلسات الزار وتقص عليهم بعض الرؤى والمنامات كأنها مكشوف عنها الحجب فأطلقوا عليها استهزاءً الشبيخة عزيزة، إلا أن أمل كانت تحبها كثيراً ولا تجد الدفء ولا الحنان إلا بين أحضانها.

فهذه السيدة الخمسينية التي حرمت الزواج والأمومة لم تكن لتجد خيراً من أمل لتعويض هذا الشعور بالنقص الذي يضرب في عروقتها عبر السنين.

فعندما كانت تحمل أمل لترضعها كانت تستشعر ما يذكرها بحياتها وتلك الطفلة التي ولدت في عام ٤٨ كما أخبرتها تلك الممرضة السويدية أنا التي كانت تعمل بمنظمة الصليب الأحمر وجاءت متطوعة لمساعدة الفلسطينيين.

كانت أنا برجهام تعمل في إحدى المستشفيات القريبة من القدس في أوج الصراع بين العرب واليهود قبل إعلان دولة إسرائيل بشهر واحد، حيث كان الإنجليز المحتلون للدولة يتأهبون لوهب دولة لا يملكونها لشعب لا يستحق. الفلسطينيون يقاومون الاحتلال المزدوج جنود الإنجليز من ناحية والوكالة اليهودية من الناحية الأخرى، وهي الجهة المسؤولة عن المستوطنين اليهود الذين كان عددهم في تلك الفترة يقارب نصف عدد السكان العرب.

كانت الوكالة اليهودية في تلك الفترة بمثابة الحكومة التي تحكم

فلسطين وتراعى حقوق المستوطنين وتحميها قوات الهاجاناه، وهى الميليشيات التى كانت النواة الأولى لتكوين جيش الدفاع الإسرائيلى.

بينما كانت هناك بعض الميليشيات الأخرى غير الشرعية مثل الأرجون والشيتيرن هى المنوطة بتنفيذ الأعمال القذرة التى لا تقرها المواثيق الدولية فى المخطط الصهيونى.

وفى أحد الأيام من شهر أبريل لعام ٤٨ تم استدعاء الممرضة أنا بصحبة فريق من الصليب الأحمر من مختلف الجنسيات للمشاركة فى إنقاذ سكان قرية دير ياسين التى كانت قوات الأرجون تنفذ فيها إحدى عملياتها القذرة.

يقول شهود العيان أن منظمة الارجون الإرهابية قد قامت فى صبيحة ذلك اليوم بدخول قرية دير ياسين المسالمة وقاموا عبر مكبرات الصوت بإذاعة بيان يدعو سكان القرية إلى مغادرتها بظرف ربع ساعة، وتسليم أنفسهم إلى جنود المنظمة، وإلا سيتم حرق منازلهم وهم فى داخلها!! وفعلاً نفذ بعض السكان العرب الأمر وهربوا من القرية أما باقى السكان وكان عددهم يزيد عن الثلاثمائة فقد تم ذبحهم بطريقة وحشية وبدم بارد، كان الجنود يستخدمون فيها الرصاص الحى والقنابل اليدوية ثم السيوف المقوسة.

لا أنسى أبداً تلك الشابة الجميلة من منظمة أرجون التى استوقفتنى جمالها الأخاذ لكنى لمست فى عينيها نظرات المجرمين لأشاهد سيفها الذى ما زال يقطر دمًا وهى تحمله أثناء سيرها كأنه كأس الانتصار.

ما الذى يجعل إنسانًا يقتل آخر بهذه الوحشية؟! هل هذا ما ذكره الكتاب المقدس هل أمرنا الله بقتل الضعفاء العزل من السلاح لمجرد أنهم على غير ديننا أم هذا الصراع ليس له علاقة بالدين، إنه صراع

على الوجود؟!

كانت أنا فى حالة يرثى لها عندما وصلت إلى قرية دير ياسين المنكوبة بعد أن مرت سيارة الفريق الطبى بمغامرات مهلكة غير آمنة على طول الطريق من القدس إلى القرية.

عبر العديد من الكمائن المنصوبة من قوات إنجليزية تستعد للرحيل وترك العرب لقمة سائغة لليهود وبين كمائن نصبتها منظمة الأرجون ولا تسمح لغير اليهود بالمرور حتى عندما تخرج لهم تصاريح منظمة الصليب الأحمر. حتى أننا تعرضنا للأسر على أيدي بعض جنود المنظمة الذين بدأوا فى احتجاجنا ومضايقتنا لمجرد علمهم بوجهتنا إلى دير ياسين. حتى ظهر وسطهم ذلك الشاب الذى يتحدث الألمانية ووجد أحد الأطباء فى فريقنا ليتحدث معه ويخبره عن الجميل الذى يكنه لرجال الصليب الأحمر عندما أنقذوه من قوات النازى وهو يحاول الفرار من أفران هتلر عبر الحدود البولندية.

ومن حسن الحظ لقد خلصنا هذا الشاب من قبضة رجال الأرجون وصحبنا فى السيارة لقرية دير ياسين.

عندما نزلنا القرية وجدنا جنود المنظمة يسيطرون على القرية بالكامل والطرق مفروشة بالجنث، والدماء فى كل مكان والذباب يحوم فوقها طالبًا وجبة للعشاء تكفيه شهرًا كاملاً.

وفى داخل أحد البيوت المهدمة وبعد أن فقدنا الأمل فى أن نجد أى أحياء فى القرية من السكان العرب، دخلت إلى البيت بعد أن اشتبكت مع أحد الجنود الذى منعنى حتى سمح لى مضطراً بعد أن هددته بأن الصليب الأحمر سوف يفصح تلك الممارسات التى تقوم بها منظماتهم الإرهابية فى فلسطين.

وما إن ولجت قدمي إلى إحدى الغرف التي يعلن عدد الجثث فيها عن أسرة مكونة من ٥ أفراد: أب وأم وثلاثة أطفال، أجسادهم مقطعة ومتفحمة تماماً نتيجة احتراق المنزل الناتج عن اختراق قنبلة ألقيت من النافذة عبر زجاج المنزل كضيف ثقيل لم يراوح مكانه إلا بعد أن نفذ مهمته على أكمل وجه.

كانوا يغرقون في دمائهم بعد أن مثلت قوات الأرجون بأجسادهم وبقرت بطن الأم خشية أن تكون حاملاً وقطعت رؤوس الأطفال وشوهت الأب.. لم أتمالك نفسي من المنظر وأفرغت ما في جوفي.

وسط الركام والجثث ورائحة الموت تسد أنفي سمعت صوتاً يشبه الأنين خلف إحدى قطع الأثاث المحطمة. أزحت قطعة الأثاث بصعوبة لأجد رضيعاً صغيراً لم يبلغ فطاماً بعد ينن مما حدث لأسرته غير قادر حتى على البكاء.

حملت الرضيع وهرولت مسرعة إلى السيارة التي كان باقي الطاقم يتشوقون لرؤية ولو ناج واحد نعود به للمستشفى بالقدس يشهد على نجاح مهمتنا.

هذا الرضيع الذي تبين لنا فيما بعد أنه أنثى مسكينة فقدت أسرته لاذنب لم تقتطفه وسوف تدفع عمرها كله تكفر عن هذا الذنب.

أخذت أنا الطفلة وسلمتها إلى إحدى دور الأيتام بالقدس لتحرم الطفلة من حنان أسرتها مدى الحياة، إلا أن القدر ابتسم لها بعد ذلك وهي لم تكمل العام عندما أَرْضَعْتَهَا المتطوعات في الدار وهي السيدة نبيلة أبو رعد، وأحسست نحوها بمشاعر الأمومة والرغبة في تبنيها لأنها كانت تشاق إلى أنثى بعد أن رزقها الله بولدين هما حسن ومعين أبناء الحاج أحمد الزهار زوجها وأسموها عزيزة.

وهكذا نشأت الطفلة الوحيدة الناجية من مذبحة دير ياسين، عزيزة،
فى بيت الزهار برام الله التى لم تشهد اقتحاماً إسرائيلياً حتى عام ٦٧.

(٣٧) المقابلة

ذهبت أمل وصديقتها ريم إلى مقر الجريدة حيث تعقد المقابلة الشخصية لاختيار مراسلين صحفيين ومحررين لمكتب جريدة أخبار القدس بالقاهرة كما نص الإعلان.

عندما دخلا من باب تلك العمارة العتيقة التي تحمل رائحة الزمن والكائنة بمنطقة وسط البلد، لم تجد أمل غضاضة مثل صديقتها في صعود السلم بعد أن أشار لها البواب قبل أن تسأله عن مكان المكتب:

- الدور الثالث شقة ٩.. والأسانسير عطلان يا أنسة.

وتبعتهما ريم على مضض.

كانت روح أمل تحلق في سماءات رحبية مع خطواتها الرشيقة على سلم العمارة العتيقة تتطاير من عينيها سعادة بالغة لا تتناسب مع طلاقها القريب. ولكن رغبتها في العمل كصحفية وفي هذه الجريدة الفلسطينية بالذات هو ما جعلها تخرج من قيد الزواج وتفكر في حياتها خارج الأطر التي طالما ظلت حبيسة بين قوائمها.. الأب المحافظ والأم الأرستقراطية والزوج السلفي.. ثنائية المصري والفلسطيني.

هذه الأطر هي ما خلق منها دمية البيت بتعبير إبسن التي لا تعرف ماذا تريد وماذا تحب وما هي كينونتها الحقيقية في هذا العالم.

عندما قدمتا سيرتهما الذاتية إلى السكرتيرة السمراء المحجبة أصاب المشهد ريم بالإحباط بعد أن شاهدت جموع الشباب الذين يتقدمون للعمل، بينما كانت أمل واثقة تماماً رغم الأعداد الغفيرة من أنها في المكان الصحيح.

ظلت الفتاتان تتبادلان خيط الحديث عن حياتهما بعد التخرج والزواج والصحف التي تدربتا فيها دون الحصول على أى مقابل مادي يتمثل فى مرتب أو حتى مكافأة أو معنوى يتمثل فى وضع اسمهما على أى موضوع أو تحقيق صحفى نشر لهما فى هذه الجرائد.

ثم بدأت أمل تتجاذب الحديث مع إحدى الفتيات الأكبر سنًا والتي تعمل بجريدة قومية كبيرة منذ أكثر من عشر سنوات إلا أنها لم تحصل على كارنيه النقابة بعد، رغم أنها كانت تنشر خبرًا صحفيًا مرة كل شهر على الأقل. وذلك لكثرة العاملين بقسم الأخبار فى هذه الجريدة القومية. فكانت تنظر إلى هذا المكتب كمتنفس لها لعلها تتمكن من النشر بشكل أوسع.

قطع نداء السكرتيرة حديث الفتاة وهى تنادى اسم أمل التى قامت وتوجهت لها بمنتهى الثقة فى النفس قبل أن تخبرها السكرتيرة بأنها سوف تقابل الأستاذ معاذ النابلسى رئيس التحرير فوراً.

دخلت أمل المكتب بخطوات واثقة لتلتقط يدها يد معاذ الذى كان يقبع خلف مكتبه الأبنوسى الفخم يرتدى عوينات طبية رفيعة أضفت عليه نوعًا من الوقار والحكمة.

كان رجلاً فى منتصف الأربعينيات، ممتلئ الوجه، أبيض البشرة، يعتنى بشارب مدبب أسفل أنفه كما هى الشخصية النمطية لرجل من الشوام، لا ينقصه إلا ارتداء القمباز الفلسطينى الشهير.

جلست أمل بعد أن أصابها شىء من الخجل لتأثرها من طلة معاذ وأناقته الساحرة التى تنبئ عن شخصية قوية ذات كاريزما.

- إنتى فلسطينية.

- إى إستاذ نحنا من رام الله.

- وأنا من نابلس.. أهلين.

- أهلاً بحضرتك.

- إنتى بنت المهندس حسن الزهار ولا مجرد تشابه بالاسم.

- إى.. فى مشكلة.

- لا أبداً المهم أن المهندس حسن ما يكون عنده مشكلة فى عملك هون.

ردت أمل باستغراب:

- ليش يكون عنده مشكلة أستاذ؟

- لا أبداً ما فى شىء.. على فكرة أنتى لهجتك الفلسطينية منيحة رغم أنك بالأکید مولودة هون.

- فعلاً أستاذ عمتى عزيزة علمتنى اللهجة..

توقف معاذ قليلاً عندما أكمل قراءة السيرة الذاتية كأن شيئاً فاجأه بغتة:

- إنتى متزوجة؟؟

- كنت متزوجة.

بدا عليه الارتياح لهذه الإجابة ووجه نظرة حادة إلى أمل التى

ارتبكت قليلاً قبل أن تطمئنه أنه لا يوجد مشكلة عائلية يمكن أن تعوق عملها بالجريدة.

أجاب معاذ وهو يستعد لإنهاء المقابلة:

- Ok أمل بنشوف شو بدنا نسوى وإن شا الله بتلفن إلك قريب.

- شكراً أستاذ معاذ.

صافحها معاذ بعد أن قام من خلف مكتبه ليودعها بنفسه إلى الباب، ومضى وقت طويل قبل أن تفلت أمل يدها من يده بعد أن تذكرت أنها لا تصافح الرجال، ولكنها بررت ذلك التلامس بأنه رجل كبير فى مثل سن والدها أو أصغر قليلاً ولا مشكلة من مصافحته.

إلا أنها استغربت إطالة فترة إمساك يده الكبيرة يدها والتي لم تكن تعتادها.

(٣٨) هل تعبرين النهر

"أنا لحبيبي وحبيبي إلى"

كان صوت فيروز يغمر الأوردة فيحيل القلب نوراً تملأه السكينة والحب، هكذا هي فيروز دائماً تأخذني إلى عوالم رحبة فسيحة تطلق عنان الروح مهرولة بين الربى الخضراء.

صورة أمل لا تفارق المشهد كأنها الخلفية الدائمة لكل ما يدور في شريط الذاكرة.

هي أمل التي ابتعدت حين ظهر حازم ثم تعود بعد أن فارقه بسلام.

كم كانت سعادتي تتهمر كأمطار استوائية عندما خرجنا سوياً في ذلك اليوم الشتوى ذى النسيمات المنعشه نجوب الدروب ونحفر بصمة لقائنا فى فراغ الأماكن.. نسجل شريط ذكريات عابرة لتحتل ركنها الأبدى بين دروب الذاكرة المتعبة.

هل كنت أعلم.. هل أعرف أن أيامى مع أمل معدودة.. هي قصة عصية على الاكتمال هل هي لحظات أسرقها من الزمن؟

لماذا لا أرى انعكاسات ملامحى فى مرايا عينيك الشاردة.

يهفو قلبى مغرداً عندما تضحك.. تشرق شمسى عندما تتحدث.. أشعر أن الكون يتوقف من حولى، تقف ساعات الزمن حتى تنتهى موسيقى صوتك من العزف على أوتار مسامعى.

"يستهوئ الورق تأوّهه.. ويذيب الصخر تنهده"

هل ما زالت تحبه رغم طلاقهما؟ هل يحبها؟ هل يعود؟ ما هذه
المعضلة التى تركتنا فيها يا حازم؟ هل مقدر لى أن أتألم فى وجودك
وفى غيابك بنفس الدرجة؟!

أکید أنه لا يحبها وإلا لماذا تركها ومضى بحثاً عن المجهول؟

نعم سوف أتعامل مع قدرى، لن يشغلنى وجود حازم أو رحيله،
سوف أقتنص الفرصة التى انتظرتها سنوات عكر صفوها وجود حازم
فى طريقى كأنه صخرة تكسرت فوقها أحلامى فى ارتياد شواطئ
الروح.

لا بد أن أكون أكثر سعادة الآن، لماذا لا تكتمل سعادتى؟ لماذا أشعر
بهذه الغصة فى حلقى؟!

سأرى أمل اليوم ونخرج معاً سوف أخبرها بحبى وسوف تخبرنى
بحبها.

آه من الحب عندما يعتصر قلوب المحبين.. أمل التى كانت منى ملء
السمع والبصر فى طفولتنا.. أصبحت لا أقوى حتى على لمس يديها.

ما هذه الرعشة التى تحاصرني؟ لماذا الخوف؟ لا تقلق لا بد أنها
أيضاً تبادلك الحب.. ألم تطلب هى أن نخرج معاً؟! لأول مرة تتحدث
فيها إلى منذ طلاقها ورحيل حازم.

دار بنا القارب الشراعى الصغير فى مسارات تقطع خيوطها
موجات بطيئة تحدث صوتاً يتناغم مع هفيف النسيمات العلية التى تدفع
شراع القارب نحو أحضان النهر.

أنظر فى عيني أمل دون كلمات، تبتسم ابتسامتها الساحرة نسبح معاً فى ملكوت الطبيعة.. هل أصارحها الآن أم أنتظر قليلاً.. لم أتمكن ثانية من التقاط يديها عندما انزلت قدمها قليلاً وهى تحاول الوقوف بعد أن رسا القارب على شاطئه. جلسنا على ذلك المقهى الذى تحبه أمل فى وسط البلد.. فيروز ثانية:

"لا أنت حبيبى.. ولا ربينا سوا"

كان المكان هادئاً.. مقاعد خشبية بلون الأشجار.. الإضاءة خافتة.. ورواد المكان أقرب إلى طبيعة الفنانين.

جاءنا النادل بقائمة المشروبات، اخترت قهوة فرنسية وأمل اختارت مشروب الشيكولا الذى تحبه.

كنت قد بدأت أعد مقدمة مطولة عن حياتنا معاً منذ الطفولة حتى دخلنا الجامعة والعلاقة التى تشكلت بيننا ورسمتها الأعوام غائرة فى ملامحنا.

كانت أمل تبتسم كما لو كانت تعلم نيتى من وراء هذه المقدمة الطويلة التى تعرف وقائعها التاريخية دون الحاجة لتكرارها مرة أخرى، ولكنى لا أقوى على مصارحتها بحبى هكذا دون مقدمات.

وبينما بدأت ترتشف مشروبها بشفتيها الرقيقتين كنت قد بدأت أستطرد فى سرد الأشياء المشتركة التى نحبها معاً واهتماماتنا التى تكاد تعبر عن نفس الميول.

حتى وصلت إلى أن كل ذلك هو ما شجعنى على أن أعبر لك عما أشعر به من عاطفة وأحاسيس تجاهك لم أتمكن من البوح بها من قبل

بسبب خجلي فى بداية الأمر ثم زواجك ولكن آن الأوان لكى أخبرك بكل ما يجول فى نفسى حتى لو لم تبادلينى نفس المشاعر.

هنا سادت فترة من الصمت لم يقطعها سوى صوت الفناجين عند احتكاكها بأطباقها الصغيرة مع تبادل الرشقات.

كنت أشعر أننى قد أدت مهمتى المطلوبة بنجاح مهما كانت النتيجة، همٌّ ثقيل انزاح كان جائئاً على صدرى لسنوات. كانت المفاجأة قد ارتسمت على ملامح أمل، وهو ما جعلنى أستشعر الخوف قليلاً. لم تقل نعم كما أنها لم تقل لا..

عيناها الشاردتان كانتا تقولان الكثير عن ارتباط أرواحنا منذ كنا صغاراً نلهو فى ذلك العالم البرىء.

لا مفر من الارتباط لكن...

لكن هذه هى المشكلة يا أمل.. لكن ماذا؟!

لم تكن حجة خروجها للتو من تجربة حازم وعدم استعدادها لتجربة جديدة وتركيزها فى الوقت الحالى على مستقبلها الصحفى لتنتطلى على.

فهل يكون ارتباطى بك صخرة تتكسر عليها أمواج نجاحك ومستقبلك؟ كيف هذا وقد كنت دائماً دافعاً ومعضداً لك على التقدم فى دراستك؟! ألم أكن أنا من شجعتك على دراسة الإعلام؟ ألم أكن أنا من يحضر لك الكتب والمراجع التى تحتاجها لمباحث دراستك فى أى موضوع كان يطلب منك إعداده فى الكلية، وقبلها فى دراستك الثانوية؟ من عرفك على روايات نجيب محفوظ ويوسف إدريس؟ من شرح لك توفيق الحكيم؟ من كان يجيبك على تساؤلاتك السياسية دائماً.. تاريخ

القضية الفلسطينية بلدك الذى لم يقدر لك يوماً زيارته؟

كنت أشعر دائماً بنظرة الإكبار فى عينيك الناعستين فما الفرق بين تلك النظرة وبين نظرة الحب والهيام؟!

قالت أمل عندما ودعتها عند حديقة بيتهم فى تلك الليلة:

- وين بدى روح منك.. أنا معك لا تخاف.

تذكرت عندما كنت أشاهد من فوق سطح بيتنا هذا الجار الذى يشير إلى الحمام بعلم أبيض كأنه لا يطلب منه الرجوع إلى غيته بقدر ما أنه يرفع راية الاستسلام.

لقد طارت الحمامات بعيداً عنه فهل تعود ثانية بعد أن أبصرت لها أجواءً أرحب وأوسع من غيته الضيقة! هل تدعن لإشارته بالراية البيضاء أو لصافرته التى تبعث لها نداءات العودة؟

(٣٩) معاذ

كم كان شعورًا غامضًا ذلك الشعور والأحاسيس المختلطة التي تشبثت بى كما لو كنت قشة فى بحر هائج عندما دعتنى أمل إلى الغداء فى إحدى فنادق القاهرة العائمة على النهر لكى تعرفنى على الأستاذ معاذ، مدير مكتب جريدة أخبار القدس فى القاهرة. وسبب الغموض يكمن فى أننى أحببت هذا الرجل بمجرد رؤيته يجلس إلى المائدة بملابسه الأنيقة وعدساته الذهبية التى تنحدر من علامة تجارية عالمية شهيرة، ومن طريقته الأنيقة فى احتساء حساء الكريمة.

ولكنى لأول وهلة قد لاحظت سهام نظراته لأمل التى اخترقت دروعًا هشة وضعتها أمل محصنة بها قلبها الغض.

جلست إلى المائدة بعد أن استشعرت نظرة على وجه معاذ تنم عن أننى تسببت فى قطع خيوط كان قد بدأ ينسجها ببراعة حول فريسته لم يكن مقدرًا لها أن تفلتها إلا بسبب حضورى المفاجئ. إلا أن معاذ قد غير من ملامح وجهه على الفور وأخذ ينهال على عبارات الترحيب والمدح لشخصى وثقاقتى التى أخبرته أمل عنها وخصوصًا ما يخص القضية الفلسطينية. وبدأ يحدثنى عن الانتفاضة وما أحدثته بالشعب الفلسطينى، ثم مباحثات أوسلو التى شارك فيها شخصيًا كأحد أبرز القيادات فى منظمة فتح وتحذيره الدائم لأبو عمار من بعض الأمور التى لم يأخذ بها الخيار فى ذلك الوقت.

كانت أمل منبهرة بشخصية معاذ رغم أن أباها ينتسب نظرًا إلى الجهة المقابلة من وجهة النظر النضالية، إلا أنها لم تتمكن من كبح جماح مشاعرهما المنطلقة نحو شخصية معاذ التى بدأت شعيرات بيضاء ناصعة تهاجم فوديه لتحيل وجهه وشاربه الكبير نسبيًا إلى حكيم يشع

حكمة ولباقة تحوطه دائرة من المريدين الذين يؤمنون بكل كلمة تخرج من فيه.

حتى أنا وقعت تحت تأثير معاذ بثقافته الراقية وعشقه لموسيقى موتسارت التى تحدث عنها كمايسترو يقود إحدى مقطوعاته. كما تحدث بطريقة الفنانين عن لوحات بيكاسو وأشعار لوركا ورامبو وروايات ألبير كامى.

وكنا نحن الاثنين أنا وأمل كما راقصين فى حفلة زار نتمايل ذكرًا فى حضرته.. نفوص فى كلماته العميقة التى لا تنفذ ولا يحد مداها بحر.

عندما يتحدث فى السياسة يخبرك بحقائق الغرف المغلقة التى لا يعلمها عتاة التحليل السياسى.

يخبرك عن نواذر الحكام العرب عند مقابلاتهم مع أبو عمار وعن همساته التى اقترب بها من أذن ذلك الملك أو ذاك الرئيس يحذره من كيد أو مؤامرة أحدهما على الآخر:

القذافى أخرج سيجاره واستهزأ بالسادات ووصفه بكذا وكذا.

ثم أخبرهم بأن ملك السعودية صديق للأمريكان وأن الكعبة لا يجب أن تظل فى السعودية للأبد وإنما يجب أن تنتقل الفريضة بالتساوى بين الدول العربية، وأن الجماهيرية العظمى على استعداد لاستقبال الحجاج عند نقل الكعبة إليها.

ثم أحرق فى وجهه فى بلاهة وإحمر وجه أمل خجلاً عندما يتحدث عن الحاكم العربى المولع بالغلمان، والآخر الذى لا يجيد القراءة

والكتابة، والثالث الذى يزور إسرائيل سرّاً.

ثم يتوقف قليلاً عن الحديث كأنه اكتشف فكرة عبقرية:

ألا تعلم أن موضوع الشغف بالغللمان هذا ليس محصوراً على ذلك الحاكم العربى فقط إنما هناك حرب شعواء دارت بين اثنين من أمراء الحرب فى أفغانستان بسبب صراعهما على غلام!

ثم يكمل:

نعم إنهم ليسوا مجاهدين إنهم مرتزقة.. الأمريكان يدفعون لهم ويساعدهم السعوديون، الجهاد الحقيقى هو ما فعله فى فلسطين. أثناء وجودنا فى الأردن كنا نعيش فى الخيام على الحدود نتسلل داخل إسرائيل ننفذ عمليات تفجير داخل إسرائيل ونعود بعدد لا بأس به من الأسرى. كان هذا قبل أن يطردنا الخائن ابن الملكة زين من الأردن بعد مذبة أيلول الأسود.

طبعاً كان هذا العرض الذى عرضه معاذ عن أيلول الأسود مغايراً تماماً مع ما ذكره لى أبى عن المذبحة وأنا صغير، إلا أننى صدقت معاذ فقد ثملت تماماً من احتساء كلماته المعتقد.

سألته أمل على استحياء عن حماس ونضال أبطالها أمام الاحتلال.

ضحك ضحكة سافرة ثم أردف:

طبعاً والدك يقول لك حكايات عن جهاد حماس فى غزة ولكن صدقنى كل هذا عبث ليس أكثر من الضحك على بعض الشباب المتحمس وخداعه وإقناعه بأن أسرع طريقة للوصول إلى جنة الحور

العين هي تفجير النفس في بعض الضحايا من الإسرائيلية. هيدا ما نضال ولا جهاد هيدى خسة وعدم نخوة. المناضل الحقيقي هو من يواجه فإذا أراد أن يفجر نفسه فليفعل ذلك في معسكر للجنود أو في مدرعة أو دبابة وليس تفجير نفسه وسط مجموعة من المدنيين والأطفال. ثم ما هو مردود ذلك على القضية؟ هل سنخرجهم من أرضنا بهذه التفجيرات المحدودة الأثر أم بصواريخ الكاتيوشا (الفشك)؟ إن كل هذا عبث، ثم انظرى بعد ذلك إلى رد إسرائيل على هذه العمليات الذي يكون موجعاً جداً في كل مرة.. تدمير للقري واعتقال لمئات الشباب. إن حماس ما هي إلا ذراع تحركه إيران في فلسطين لتضايق به إسرائيل أو بمعنى أدق لتضغط به على أمريكا التي كانت تساند صدام حسين في حربه معها طيلة حقبة الثمانينيات.

تغير وجه أمل عندما سمعت هذا الكلام وتذكرت مشاركتها مع أباهما وحازم في توزيع المعونات وإرسالها لغزة، إلا أن شيئاً ما دخلها كان يدفعها للاقتناع بكل ما يقوله معاذ.

- وفي بيروت كنا نقاتل أعوان الإسرائيلية من العرب الخونة ياللى كان بدهم القضاء على الفلسطينية بالمخيمات وطردهم من لبنان، كانت حرب شوارع وسموها حرب أهلية لكنها كانت حرب كرامة بين العربيين والخونة. وكل الدول العربية الشريفة كانت بتدعمنا بالمال والسلاح لكن الخونة ما كان بدهم القضية تعيش كان بدهم يطردونا نحنا والسوريين من لبنان. كانوا عم يتعاونوا مع الشيطان حق ما ندشر بيروت.. الشيطان نفسه إرييل شارون.. ذبحونا في صبرا وشاتيلا وبلشنا ندشر بيروت ب ٨٢ وضاعت القضية بتونس.

كانت خيوط دمعية قد بدأت تفارق جفنيه عندما أنهى هذه الكلمات، جعلت أمل تدمع هي الأخرى وتتاوله منديلاً أخرجه من حقيبتها.

لم أقوَ على تذكرته بمذبحة تل الزعتر التى نفذها السوريون بالمخيم
إبان الحرب الأهلية قبل أن تتبدل التحالفات.. فقد كان الموقف عاطفياً
يجيش بالمشاعر الوطنية النادرة لا ينبغى تكثير صفوها بحديثى التفاهة.

عندما انتهينا من تناول طبقنا الرئيسى العامر بما لذ وطاب من
الأسماك والمأكولات البحرية التى يشتهر بها هذا المطعم الفاخر، طلب
لنا المزيد من أطباق التحلية كما لو كنا أطفالاً يتعلقون برداء والدهم
طلباً للحلوى.

كان كريماً لدرجة حاتمية أضفت عليه هالة أخرى من التبجيل
والتقديس، لم أدرك وأنا أكنها له أننى أتناول طعنة خنجره فى قلبى وأنا
أبتسم له كما يفعل الساموراي الشجاع عندما يقترف ذنباً يلطخه بالعار.

لقد ضاعت أمل مرة أخرى. قرأت ذلك فى عينيها التى عكست قراءة
تخرج من شاشات قلبها المولع بحب هذا الرجل الملهم الذى سقاها
جرعة من الأبوة حرمها منها أبوها الحقيقى لسنوات.

كيف أننى أتقبل ذلك بمنتهى البرود؟ لا أعرف إلا أننى قد وقعت
أسيراً فى شرك نصبه لى معاذ بمنتهى الدهاء.

لقد عرف أننى أقرب شخص يهدد علاقته بأمل فبدلاً من أن يكرهنى
ويتنافس معى على حبها فعل ما لم أتوقعه أو يخطر على قلب بشر، لقد
جعلنى أحبه وأنظر إليه نظرة المريد إلى شيخه والتلميذ إلى معلمه. بعد
ذلك أتى على كل أسلحة المقاومة التى كدت أشرعها فى مواجهته عندما
جاء النادل يحمل لنا ورقة الحساب التى تثقل يده من فرط ضخامة
قيمتها.

دفع الحساب دون أن تطرف له عين، ثم عرض علىّ أن أكتب مقالاً

ثابتاً فى جريدته الأسبوعية عن الانتفاضة وبعض الموضوعات الأخرى التى تحدثنا فيها على العشاء.

كيف شعرت بالغيرة الحمقاء قبل أن أتعرف على هذا الرجل؟ كيف كنت أكن له مشاعر البغضاء والكراهية عندما كنت أسمع أمل وهى تتحدث عنه وعيناها تلمعان بلمعة الهوى وإن كانت دائماً تخبرنى أنها تنتظر نحوه نظرة الابنة التى تفتقد أباً حرمت من أبوته.

كنت أعرف أنها تحبه وأن ما يفعله معها من دعوات للخروج وتناول الطعام الفاخر وزيارة المزارات السياحية والحديث عن فلسطين همهما المشترك وتفضيله لها عن باقى زملائها رغم أن موهبتها عادية بالنسبة إليهن... كل ذلك لم يكن ينم عن تصرفات أب نحو ابنته.

حاولت تحذيرها من كبر سنه وكلام الناس ورد فعل والديها إذا علما شيئاً عن الموضوع، إلا أنها كانت مطمئنة إلى أنه يعاملها تماماً كابنته، وقد دعتنى للتعرف عليه لهذا العشاء حتى أطمئن وتهداً مخاوفى.

لقد ضاعى أمل من بين يدي مرة أخرى كما ضاعى طيور جارى فى لحظة نادرة من توحيد الكائنات البشرية وتوقها المشترك نحو التحرر.

ما ظننت أنه وهم تأكدت أنه الحقيقة الجلية التى تغمر بأشعتها قلب أمل ووجدانها.

أمل لا تحبنى، لا بد أن أعترف بذلك.. لقد جاءت فرصتى لأهتم بمستقبلى.. سوف أكتب فى جريدة معاذ.. سوف أدخل باختيارى الكامل فى هذا النفق المظلم الذى لا أعرف له نهاية..

سوف أقع في مصيدته بإرادتي الحرة رغم علمي المسبق بأنني لن
أحصل أبدًا على قطعة الجبن الشهية التي أبصرها من بعيد وقد كنت
أحسبها في يدي.

(٤١) رام الله ٦٧

عدنان كان بطلاً طوله الفارع و عيونه الملونة وشعره الفاحم الناعم،
كان حلم كل الصبايا برام الله،

ورغم عمله المتواضع فقد كان يطوف المدينة بكاملها من شمالها
لجنوبها ومن شرقها لغربها.

كان عم يبيع جرائد ومجلات وكان جدك يحب جريدة الجهاد
وفلسطين.

عندما كان يلقي بلفة الجرائد وهو يقود دراجته بمنتهى السرعة
والمهارة كأنه فارس يمتطى حصاناً عربياً أصيلاً كنت ألتقط الجرائد
التي يلقيها على شرفتنا كأننى أتلقي سهمه ينفذ فى قلبى مباشرة.

لم يكن يرانى أو حتى يفكر فىّ، فكيف لهذا الفتى الوسيم أن ينظر
إلى عزيزة الخادمة أو الخادمة التي يعاملها أهل البيت كفرد من الأسرة؟

كان يلقي قذائفه إلى شرفات الجيران: دار رعد ودار اللفتاوى،
يخترق شوارع رام الله الجميلة؛ سينما الوليد، منتزه رام الله، مدينة
البيرة، دير غسانة، بير زيت، وجرش النبی صالح.

كان يصل حتى إلى مستوطنات الإسرائيلية يصادقهم يعرف الحراس
والمستوطنين ملامحه الغربية.. يبدو مثلهم خصوصاً عندما يتحدث
باللغات الأجنبية التي يجيدها.

فى المساء كنت أراه من بعيد يجلس على مقهى ركب يستنشق هواء
أرجيلته التي يصدر عنها صوت خرير مزعج.

كان محبًا للحياة رغم أنه بلا عائلة ولا بيت؛ لقد نزع إلى رام الله
قادمًا من حيفا المحتلة بعد أن فقد أسرته بالكامل.

ما هذا المصير المشترك الذى يجمع بيننا.. نفس الظروف.. نفس
الهم.. نفس اليتيم!

ما قصة هذا الشاب الذى خطف قلبى مع أول استدارة لوحات بها
عيناه لى فى نظرة جمدها الزمن بين حبال الرؤية الممتدة بيننا وهو
يرانى وأنا أقفز فى الهواء لألتقط جرائده المقدوفة فى قلبى؟

يتساءل الناس هنا فى رام الله عن مكان سكنه الذى لا يعرفه أحد،
هل يعيش وحيدًا هل ينام فى الخلاء؟ ماذا يأكل؟ لا أحد يعرف.. إنه
كشهاب محترق ينطفئ بعد رؤيته بلحظات.

حاولت أن أمشى وراءه ألاحقه أينما ذهب لكن هيهات.. يختفى فى
لحظة.

قال لى فى ذلك اليوم الممطر من شهر آذار: لماذا تراقبيني من
أرسلك خلفي؟

- لا أحد.

- لا تحاولى ذلك مرة أخرى.

- أريد أن أعرفك.

- يكفيك ما عرفت.

- لكننى أريد المزيد.

- من يقترب من النار يكتوى بلهبها.

- لكن أنا مثلك.. أنا أنت، كلانا احترق بنفس اللهب.. أرجوك لا تذهب.

نهضت من النوم مرتاعة أبحت عن يدثرنى لعلى أشفى من هذه
العرشة التى أصابت قلبى.

كنت أنتظر جرائده كل صباح أصحو فى الفجر، أستحم، أجدل
شعرى، أترين لعله يرانى ويرمى بنظرة من نظراته القاتلة، لكنه كان
يدير وجهه بسرعة. هل هو الخجل أو عدم الاكتراث؟! ترى هل يرانى
جميلة أم أن ملامحى لا تثير انتباهه؟ من أنا حتى يعيرنى انتباهًا وصبايا
رام الله يهيمون به حبًا؟

ليتنى امرأة العزيز فأهب له نفسى دون تردد وأجمع نساء المدينة
كلهن ليقطعن أيديهن أمام سحر طلته.

- ليش عم بتقل من غير كلمة؟!

فى أحد الأيام قرأت فى جريدة فلسطين أن ثلاثة من المستوطنين
اليهود يقيمون فى الكيبوتز الذى يقع على أطراف رام الله قد ضايقوا فتاة
كانت تعبر الجسر مع خطيبها فضربوه وحاولوا اغتصابها إلا أن رام
الله استيقظت فى ذلك اليوم على صورة لثلاثة جثث ملقاة بالقرب من
الجسر بعد أن أصابتهم رصاصات مجهولة أنقذت الفتاة من بين أيديهم.

حدثت بعد ذلك بعض المناوشات بين بعض المستوطنين فى الكيبوتز
وبين بعض العرب حالت بينها قوات الأمن الإنجليزية التى لم تعثر على
الجانى وقيدت القضية ضد مجهول.

هلل لذلك الخبر أهالى رام الله والبيرة حتى وصل الخبر إلى أهالينا
فى القدس، فقد أتى لزيارتنا فى ذلك اليوم زلمة مقدسى يرتدى قمبازاً
وكوفية، وظل يحكى لنا عن حكايات صياد الليل التى تملأ القدس.

لا بد أنه شبّح يظهر ليلاً ثم يختفى ليصون شرف فلسطين.

يقتل كل من توسوس له نفسه من اليهود بالتحرش بالفتيات العربيات
كأنه يحميهن، يسير خلفهن ليلاً كملاك حارس يؤمن وصولهن فى سلام
إلى بيوتهن.

لم يصدق جدك هذه المقولة كان يقول أن عناية الله فقط هى من ينقذ
شرفنا ونساءنا من هؤلاء الذئاب.

فى إحدى الليالى التالية تعمدت أن أخرج إلى أطراف المدينة ليلاً
حتى أكون لقمة سائغة لأحد الذئاب لعلّى أحظى برؤية ملاكى الحارس
وفارسى النبيل ينفذ شرفى ويحفظ دماء عفتى.

ذهبت فى اتجاه الكيبوتز، أبصرت بعض اليهود هناك لم يلتفت
أحدهم ناحيتى.. انتظرت كثيراً لم يلتفت أحدهم ناحيتى... عدت بعد أن
خاب ظنى فى ظهور نذل يتحرش بى أو فارس ينقذنى حتى سمعت ذلك
الصوت الذى لن أنساه ما حييت.

أنتنى كلماته التى يغلفها ظلام دامس اقشعر لها بدنى فتدثرت بردائى
من برودة احتلت عروق جسدى حتى استحالت جليداً.

- الصبية من وين؟

التفت إليه وأجبت به بلسان يرتعد خوفاً:

- من دار الزهار.

- ربت على كتفى بحنان أشعل الدفء فى عروقى المتجمدة.

- ليش تخرجى من الدار بهالساعة؟

لم أستطع أن أرد وتجمد لسانى فى فمى تمامًا قبل أن يكمل:

- باوصلك معى لدار الزهار.. تعالى.

- شكرًا لك.

- هل تقرئين الجرائد.

- نعم.

- لماذا تصرين على التقاطها كل صباح بالشرفة.

ارتعدت فرائصى من الخجل.. لقد رآنى لقد كان يرانى.. احمر وجهى ولم أتمكن من الرد.

مد يده ليصافحنى معرفًا نفسه:

- أنا عدنان.

- عزيزة.. قتلها بلسان يتعلم.

باغتنى وهو يصوب نظرة اخترقت مقلتى:

- لماذا كنتِ تسيرين خلفى فى ذلك اليوم الممطر؟

ارتبكت وحاولت أن يخرج صوتى واضحاً بصعوبة:

- كان بدى أحكيك.

- ليش؟

- ما باعرف.

- شو عمرك؟

- تمنناش؟

- أنا ستة وثلاثين.

- فرق السن ما هو مشكلة.

- على شو.

- أنا باشوفك بالحلم.

- هيدا شى غريب!

دلفنا إلى شارعنا واقتربت دار الزهار من مدى رؤيتنا فطلبت منه
أن يتركنى وينصرف حتى لا يرانا أحد الجيران.

- أشوفك مرة ثانية؟

- إن شاء الله؟

- حد الجبل؟

- ميتى؟

- لما باشوفك بالحلم.. سلام.

صمت متأملاً ثم ردَّ على:

- سلام.

سألته أين يعيش، وهل فعلاً كما يقولون أنك تعيش فى الخلاء لا بيت لك؟

نعم لا بيت لى لماذا أسكن بيتاً؟ لكى يأتى اليهود ويقصفونه بالقنابل كما فعلوا ببيتنا فى قرية الياجور؟!

ماذا سيفعلون ببيتى إذا عرفوا سرى.

أنا كما يقول عبدالوهاب زى الطير ما اتعود عشه.

أستمع بهذه الحياة أطوف وأتجول فى ربوع الوطن كسائح لا تنتهى رحلته يحط فى أى مكان ثم يعود للتخليق من جديد.

هذا لا يعنى بالطبع أنى أنام فى الخلاء كما تظنين، ولكننى أجد دائماً بحمد الله فراشاً أوى إليه وسقفاً أستظل تحته ساعات الليل القليلة حتى ينبلع الفجر.

فتارة أنصب خيمتى على أحد شواطئ حيفا الساحرة وتارة أبيت فى عش بسيط أقامه أحد الفلاحين ليستظل به فى إحدى المروج الخضراء

فى جنين.

وتارة أنعس حتى الفجر فى أحد مساجد القدس العامرة بالمصلين.

كما قضيت ليال عدة نائماً فى المستشفيات أداوى الجرحى والمصابين؛ فقد عملت كمرضى لبعض الوقت.

دائماً ما أجد المأوى الذى أحتفى به من سويغات الليل الحالكة، وعندما يبرز فجر يكون الفضاء كله بيتى أصول وأجول فى كل مكان، أبيع الجرائد فى رام الله أو الخضراوات فى عكا أو الأدوات المنزلية فى نابلس أو زيت الزيتون فى غزة.

أنا كل هؤلاء، أعشق هذا الترحال الأبدى لا أمل ولا أكل، ولا أرغب فى البقاء فى مكان واحد لأكثر من عام على الأكثر، لقد وهبت نفسى لهذه الحياة منذ أن قصف اليهود منزلنا وقتلوا أهلى وشرردونى بين البلاد.

وعندما سألته عن سر علاقته باليهود بالنهار رغم أنه يصطادهم بالليل بل ويتكلم لغتهم.

قال: من عرف لغة قوم أمن شرهم.

لقد نشأت فى قرية الياجور فى حيفا فى بداية الثلاثينيات وعندما بلغت أربع سنوات أرسلنى أبى لكى أحفظ القرآن فى المعهد الدينى بقريتنا، كنت أرى المستوطنين اليهود وهم يعيشون فساداً فى قريتنا.. يرقصون وترتدى نساؤهم ملابس قصيرة ضيقة.

لقد كانوا يمثلون بالنسبة لطفل مثلى كائنات فضائية غريبة حلت على

كوكبنا بعد أن ضاقت بهم المجرة كلها.

أحببتهم وتمنيت أن أكون مثلهم، أن أرقص مثلهم على صوت الموسيقى المرحلة التي كانت تنبعث دوماً من ناحية تلك المستعمرة الجاثمة على ذلك الجبل الذى يحيط بقريتنا الصغيرة.

كان أبى مجرد تاجر أقمشة، يأتى بها من مصر ليبيعهما فى متجره الذى يحتل واجهة السوق الكبير بالقرية. كانت هذه هى الصورة التى يعرفها الناس عن أبى إلا أنه وبعد عدة زيارات متعددة كان يقوم بها بعض القادة الإنجليز كان يقوم بإعطائهم معلومات خاطئة عن الفدائيين.

إلا أن بعض أهل القرية كانوا يظنون أن أبى خائن يتعاون مع الاحتلال. فلحق بنا العار وكدنا نغادر القرية لولا أن أحد شيوخ القرية كانوا يقنعون الأهالى بأن أبى ليس خائناً كما يظنون، وإنما يخدع الإنجليز حتى يثقوا به ولا يشكوا فيه أبداً.

كنت وأنا صغير أشاهد أبى يرتدى قمبازه ويجلس فى مضيفة البيت مع بعض الرجال يوزع عليهم البنادق والسلاح التى كان يخبئها داخل صناديق الأقمشة التى كان يهربها من مصر.

كان أبى يعلمهم كيف يقوصوا على الصهاينة.

لم يكن أبى يخشى المستر ريد القائد الإنجليزى الذى كان يفتش عن الأسلحة فى كل مكان ويعرف أن السلاح يتم تهريبه إلى المقاومة التى يقودها البطل عز الدين القسام فى ذلك الوقت، وهو البطل الذى ولد فى اللاذقية وقاوم الاحتلال الفرنسى فى بلده قبل أن يلجأ إلى قريتنا فى حيفا فى مطلع العشرينات.

أذكره بزيه الأزهرى عندما كان يأتى لزيارة جدى ليطمئن على وصول الأسلحة من مصر.

كان الشيخ خطيباً مفوهاً، كان يحث سكان حيفا على النضال ضد الاحتلال الإنجليزي وضد الصهاينة وكان يحثهم على اقتناء السلاح بدلاً من شراء السلع الفاخرة.

كون القسمات مجموعات سرية من المقاتلين الأبطال الذين قاوموا الاحتلال حتى وصل عددهم إلى ثمانمائة مقاتل مسلحين بالبنادق وتمكن من إشعال الثورة فى فلسطين كلها.

وقتها استوعبت الدرس.. الحرب خدعة لا يمكن أن تكسبى حرباً دون خداع.

لكن عندما عرف الإنجليز دور أبى مع المقاومة وأنه ظل يخونهم كل تلك الأعوام قرروا أن ينتقموا منه أشد الانتقام..

لم يشك الإنجليز أو الصهاينة فى أن الثورة التى أشعلت حركة المقاومة ضدهم انطلقت من دارنا وأن هذا الشيخ الأزهرى الذى كان يزور أبى فى مساء كل يوم جمعة إنما هو القائد الحقيقى للثورة الفلسطينية التى انتقلت من قريتنا إلى باقى قرى فلسطين.

وفعلاً دمروا بيتنا بالقنابل ومات أبى واستشهد الشيخ القسم، وهربت أمى من بين النيران وهى تحملنى بين ذراعيها حتى تمكنت رغم اشتعال النيران فى ملابسها من الجرى خارج المنزل المحترق وتركتنى أمام أحد المنازل قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة بلحظات.

وجدنى صاحب البيت وأنا أبكى فى الصباح، فأخذنى وأودعنى داراً

للأيتام، نشأت وترعرعت فيها حتى أكملت عامى السادس عشر، وقتها خرجت إلى الحياة وصممت على الانتقام ممن حرقوا بيتنا وحرمونى من أهلى.

وقتها شعرت أننى ملك هذا الوطن.. أسافر هنا وهناك.. أرحل إلى أى مدينة أصادق أهلها عربًا كانوا أم يهودًا، لا أبالى بمضايقاتهم عند المعابر.. أتسلل إن أصروا على منعى من الدخول، أتحايل على أى عقبة تواجهنى.

وقتها أصبحت فلسطين كلها بيتى فما حاجتى إلى بيت أقيم فيه وأنا أعيش فى أى مكان أرغب فى العيش فيه، لماذا أبنى بيتًا يدمره اليهود مثلما دمروا منزلنا فى حيفا؟

عند ذلك الحد كانت قطرات الدمع قد بدأت تقاوم جاذبية السقوط حتى لا تغادر مقلتى وأنا أقف أمام رجل أسطورى يخرج علىّ من أساطير الماضى.

هذا ما كنت أحلم به طيلة حياتى، أن أعيش مثله بين ربوع وضيعات بلدنا المغتصب أمرغ وجهى فى طينها وأستلقى على عشبها البكر تدثرنى سماؤها اللالزوردية، أستحم بأمطارها وأنفَس نسيم أزهارها.

هذه هى الجنة بالنسبة لى.

كان يضحك عندما أقول له ذلك ويربت على كتفى ويقول:

ما زلت صغيرة على ذلك لا بد أن تعودى إلى دار الزهار الآن.

ثم يصطحبنى إلى الدار، وتظل نظرات عيوننا معلقة حتى ألمحه من

بعيد يختفى أو يتلاشى كشبح يغيب عن مجال البصر، لكنه يظل محفوراً
في مكان أثير في الوجدان لا ينمحي بزوال وجوده الجسدي.

(٤٢) الخيار

كنتُ فى هذه المرحلة قد بدأت فى الإعداد الفعلى لرسالة الماجستير، التى كنت قد اخترت لها موضوعاً محدداً وهو تاريخ المقاومة الإسلامية، بداية من مشاركة الإخوان المسلمين لحرب عام ٤٨ وحتى نشأة منظمة حماس فى حقبة الثمانينيات وجماعات الجهاد والتكفير والهجرة والمجاهدين فى أفغانستان.

وقد تمنيت أن يشرف الدكتور جلال على رسالتى إلا أنه كان فى ذلك الوقت يجهز نفسه للسفر للتدريس فى جامعة كولومبيا فى نيويورك، ورشح لى أحد زملائه المهتمين بدراسة الجماعات الإسلامية ليشرف على الرسالة.

ورغم سفر الدكتور جلال إلا أننى كنت سعيداً جداً تلك الفترة أقضى يومى كله بين المكتبات: دار الكتب.. مكتبة الجامعة.. مركز الدراسات السياسية بالأهرام.

قرأت كتب هيكى وأحمد صدقى الدجانى والسيد ياسين ونعوم تشومسكى ومقال صامويل هنتنجتون عن صدام الحضارات.

كما قرأت أدبيات الإخوان ورسائل حسن البنا والفريضة الغائبة لعبد السلام فرج وكتاب معالم على الطريق لسيد قطب.

كانت مرحلة ثرية أثرت بالإيجاب على المكون الثقافى والفكر السياسى الذى بدأ يتشكل بعقلى ويكون وجهة نظر علمية خاصة، بدأت بالمقالات التى كنت أكتبها أسبوعياً لمكتب جريدة أخبار القدس وكنت أتأكد من عدم حذف أى من محتواها كذلك كتابة اسمى عليها فى مكان

واضح.

كان معاذ سعيداً أو هكذا كان يحاول أن يظهر لى فى كل مرة يقابلنى فيها بمكتبه عندما أذهب لتسليم المقال.

وكان ذلك التصرف من جانبه مثيراً للتساؤلات كانت قد بدأت تغزو رأسى.. لماذا يصر على مقابلتى فى مكتبه شخصياً ولا يفعل ذلك مع باقى الزملاء الذين يسلمون موضوعاتهم لسكرتير التحرير؟

ليس هذا فحسب لقد كان يتعمد إذلالى أو هكذا شعرت عندما كان يعطينى مظروفاً صغيراً يحتوى على مائة جنيه فى كل زيارة كمقابل مادى للمقال الذى أكتبه على غير ما يحدث مع باقى المحررين الذين يحصلون على مبلغ أقل من مكتب الحسابات.

لم أعر ذلك الوسواس الذى ظل جاثماً على رأسى لعدة أيام، وفسرت الأمر على أنه مجاملة خاصة منه تقديرًا للقيمة العلمية لما أكتبه.

سعدت جدًا بهذا التفسير إلى أن حدث ما لم أتوقعه فى أحد الأيام التى لم أجد فيها معاذ فى مكتبه، وأخبرنى سكرتير التحرير أن المقال لم ينشر لأن به بعض الجمل التى تحتاج إلى تصحيح، كانت هذه هى المرة الأولى التى أسمع فيها هذا الكلام، وعندما راجع معى سكرتير التحرير المقال والتعديلات المطلوبة فهمت سبب عدم نشر المقال.

لقد كنت أتحدث فى هذا المقال عن اتفاقية أو سلو التى قرأتها كاملة باللغة الإنجليزية فى إحدى الجرائد العالمية وكذلك بعض المقالات الناقدة لها كتبها الدكتور الفلسطينى إدوارد سعيد الأستاذ بجامعة كولومبيا فى نيويورك، أرسلها لى دكتور جلال زميله فى نفس الجامعة.

كانت مقالتي تميل إلى نقد سياسة منظمة التحرير وأن اتفاقية غزة - أريحا ما هي إلا اتفاقية تنازل عن الحقوق الفلسطينية التي كان من المفروض استردادها بشكل أفضل خصوصاً بعد انتفاضة باسلة قدمت النموذج الأروع للنضال لم يتم استغلالها كما ينبغي.

ثم عدت بعض النقاط التي تهاون فيها المفاوض الفلسطيني الذي لم يكن جديرًا أو مؤهلاً للجلوس على مقعد التفاوض.

لقد كان الاحتفال بالتوقيع على إعلان مبادئ أوسلو في حديقة البيت الأبيض تحت رعاية من يصفه أبو عمار بصديقي بيل كلينتون استمرارًا لمسلسل التنازلات، فقد تنازلت القيادة الفلسطينية لأول مرة في تاريخ القضية عن حق تقرير المصير وعن القدس وحق العودة حيث أرجأت كل ذلك إلى مفاوضات المرحلة النهائية غير المحددة أو المشروطة.

لقد اعترف ياسر عرفات بإسرائيل وباحتلالها للأراضي الفلسطينية دون أن يحصل على شيء.

سيجلس في محل إقامته في رام الله تحت سيطرة إسرائيلية كاملة واستحوذ على القدس الشرقية والمستوطنات والسيادة والاقتصاد ولن يستطيع الذهاب إلى أريحا إلا إذا حصل على تصريح من السلطات الإسرائيلية.

هنا أدركت أن معاذ موجود بمكتبه ولا يريد أن يقابلني. وأن كل ما أخبرني به في السابق من حرية الرأي وعدم وجود أي خطوط حمراء على كتاباتي أصبحت هباءً منثورًا تذرؤه الرياح.

عدت إلى بيتي محبطًا أجز ساقى التي لا تقوى على حملي ليس عن عدم قدرة بقدر ما هي خيبة أمل في رجل قد وثقت به واحترمت عقله

وثقافته رغم علمى برغبته فى غزو قلب أمل وامتلاكه.

لقد أدركت الآن خطته الخبيثة التى رمت لى فيها بجزرة داعبت بها خيالى كلاهث عطش يرنو نحو سراب فى صحراء قاحلة.

كلمت أمل.. لم تكن موجودة بالمنزل.

حاولت أن أتمالك حواسى وأقنع نفسى بأن الأمر شىء عادى يحدث دائماً.. لم تعجبهم المقال لأننى هاجمت منظمة التحرير بطريقة مبالغة مستفزة بعض الشىء، قد يعبر ذلك عن رعونة أو تهور فكرى أو حماسة شباب لا أعرف. لقد أخطأت لم يكن لى أن أهاجم أحداً بقدر ما كان ينبغى على أن أرسد وأحلل دون إبداء رأى شخصى يميل نحو طرف أو يناصر فكرة أو يكون قناعة مسلماً بها.

يجب ألا أفعل ذلك فى المقال القادم سوف أرسد الأخطاء التى شابته اتفاق أو سولو دون تجريح أو هجوم على أحد. وفعلاً بدأت فى الكتابة وكان الموضوع عن الترتيبات الأمنية فى غزة حيث يقول الاتفاق أن الجنود الإسرائيليين لن ينسحبوا من غزة وإنما سوف يعاد نشر قواتهم، وهو ما سوف يؤدى إلى أن تتحمل قوات الشرطة الفلسطينية مسئولية الأمن فى غزة ومنها ضبط أمن بعض الفصائل الفلسطينية الأخرى كمنظمة حماس مثلاً التى سوف تواجهها قوات الشرطة الفلسطينية فى حالة قيامها بأى عمليات ضد إسرائيل.

وماذا إذا ما فشلت هذه القوات فى كبح جماح حماس.. لا يوجد فى الاتفاقية ما يمنع القوات الإسرائيلية من دخول القطاع مرة أخرى والتعامل بشكل مباشر لردع حماس.

كما أشرت فى المقال إلى الحسابات الخاطئة التى رسدها الدكتور

إدوارد سعيد للمنظمة فى تعاطيها مع أوصلو وهى فكرة أن حزب العمل قد تغير وأصبح فجأة يريد التعامل بل والصلح مع الفلسطينيين بعد تاريخ حافل بالدم الفلسطينى.

أما الفكرة الثانية فهى أن المزيد من المرونة والتنازل الفلسطينى قد يؤدى إلى كسب صداقة أمريكا وهو ما أثبت التاريخ الطويل مع الأمريكان كذب هذه الفكرة.

ذهبت فى موعدى المحدد لأسلم الموضوع لسكرتير التحرير بعد أن أخبرتنى سكرتيرة معاذ أنه غير موجود فى مكتبه.

وعندى الرجل بنشر المقال على أن أحضر بعد يومين لتسلم المبلغ المالى الخاص بى.

وفعلاً ذهبت بعد يومين لأجد الرجل يخبرنى بأن هناك صعوبات أدت لعدم نشر المقال كسابقه وأن معاذ ترك لى شيفاً بخمسمائة دولار وسافر إلى لندن فى رحلة عمل.

هنا أدركت أن معاذ نسج لى شرگاً لن أبرح شباهه ما حىيت.

تركت مكتب سكرتير التحرير وعبرت غرفة السكرتيرة حتى نهضت محاولة إثئائى عن اقتحام مكتب معاذ. دفعته جانباً وهى تردد بإصرار تحاول به أن تسمع شخصاً آخر:

- قلت لك الأستاذ معاذ مش موجود.

دفعت الباب بقوة ودخلت لأجد معاذ يتحدث فى الهاتف بصوت هامس.

ولما رانى هم واقفاً، علت نبرة صوته وهو ينهى المكالمة:

- كيف تدخل مكتبى بهالطريقة أنا عم بلغ الشرطة.

رددت عليه بصوت عالٍ:

- أنا من سوف يبلغ الشرطة عنك يا منافق.

ثم ألقيت الخمسمائة دولار فى وجهه وأنا أردد:

- نقودك لا تعينى ماذا تريد مقابلها؟ سوف أخبر أمل بحقيقتك.. لقد
بعث نفسك مقابل المال أنت ممن يهللون للسلام مع إسرائيل وسوف
يأتى اليوم الذى تدفع فيه أنت وأمثالك ثمن هذه الخيانة.
ثم تركته ومضيت.

وجدت قدماى تحمالننى إلى منزل أمل التى فتحت الباب وهى تطير
من السعادة.. رحبت بى وأدخلتنى إلى الصالون.

- ماذا بك ليش هالعبوس؟

- عايز أكلّمك فى موضوع.

ردت على مباغتة:

- أنا عندى موضوع أهم.. معاذ طلب إيدى وبدنا نقضى شهر العسل
برام الله غداً.

لم أستطع أن أوقف تدفق الكلمات وهى تكمل:

- أخيراً سوف أعيش فى بلدى مثل أى إنسان، لن يعاملنى أحد بعد الآن على أننى غريبة. هذا الشعور لن تفهمه أنت ولا أمى التى تبكى بالداخل معترضة على زواجى بهذه الطريقة. أنتم لا تفهمون. حتى أبى الذى رفض أن يعود إلى رام الله بعد تحريرها رفض. أنا أشعر شعور الأسماك المهاجرة التى تعود إلى مياهها الدافئة.. أنا أولد من جديد.

أقبلت دكتورة سوسن ترحب بى، وتطلب منى أن أقنعها بالألا تفعل ما تنتوى القيام به.

- ماذا سوف يفعل أبوك عندما يعود؟

استهانت أمل بلفتة من رأسها وقالت:

- عندما يعود أبى يحلها الحلال.. أما الآن فلن أتمكن من عدم تحقيق رغبتى التى حلمت بها عمرى كله. وعلى كل حال اطمئنوا دادة عزيزة سوف تأتى معى.

- دادة عزيزة هى سبب كل هذه المصايب.

قالت الأم قبل أن تغادرنا إلى المطبخ بينما كانت دادة عزيزة تساعد أمل فى ترتيب حقيبتها.

لم أجد سبباً لبقائى فى المنزل، ومع شعور أمل الطاغى بفرحة السفر والعودة إلى الوطن لم أجد شجاعة كافية لأخبرها عن حقيقة معاذ الذى كان قد استحوذ على كيانها بالكامل.

ها أنا أيضاً أفرط فيك يا أمل! لست وحدك يا حازم من تركها ومضى أنا أيضاً لم أستطع أن أكون الصديق الوفى الذى يحميها من

معاذ، لقد استسلمت تماماً وألقيت المنشقة البيضاء تحت تأثير قبضته
الخطافية المهلكة التى أصابت روحى.

ذهبت إلى البيت خرجت من ملابسى واسلمت نفسى لحمام بارد غمرت
جسدى فى مياه الحوض حتى أننى كدت أغرق .

بعد الحمام خرجت إلى الشرفة لعلى احظى بنسمات عليلة تنعش خلايا
الرئة اللاهثة من ندرة الهواء اكاد اشعر بالإختناق.

السماء تبدو كلوحة سيريالية تحتلها ألوان قاتمة .. الغيوم الكثيفة تلتهم
شمس المغيب .

جارى صاحب غية الحمام ذقنه نابثة يرتى بجثته فوق السور وفى يده
راية ممزقة إشتاقت للتخليق .

هل يعود الحمام .. يطير الحمام .. يحط الحمام.

صوت ماكينة لا يحتمل يأتى من بعيد .. سيارة الرش من جديد
تحاصرنى بالمبيدات .

صوت المؤذن الأجهش .. صفير مكبرات الصوت يفيض بكارة غشاء
أذنى

هربت من الشرفة عندما بدأ ذلك البائع ينشد جملته اللحنية التى تعبر
بالضرورة عن سلعة ما لم افهم ماهيتها.

كان هذا الصوت هو آخر ما عكر صوت فيروز بيقولوا صغير بلدى

ثلاثة أطفال يتشبثون بحبال طائراتهم الورقية كأنها تحملهم لبضع سنتيمترات فوق الارض . الطائرات تغوص فى الهواء يمينا ويسارا ثم تهبط فجأة بعد ان عزت النسمات فتتهاولى فوق أسلاك الكهرباء سارقة فرحة الأطفال.

ماذا يبقى لى فى هذه المدينة الحزينة غير الهم والحزن

هاتفنى الدكتور جلال من نيويورك إستشف حالتى النفسية التى عكستها نبرات صوتى المضطربة أخبرنى أنه سوف يساعدنى فى الحصول على منحة لدراسة الماجستير فى جامعة كولومبيا تحت إشرافه وطلب منى إرسال الأوراق المطلوبة .

هل يتحقق الحلم هل أسافر أم اهرب .

أمريكا هى الحلم هى بلد التناقضات التى لم اتمكن من فهمها أو معرفة أسباب تناقضاتها بلد الغنى والفقر بلد الفرص والفشل العلم والجهل الإنحلال والاخلاق الدين والإلحاد الجنس والعفة .. التعدد العرقى والأديان والجنسيات .. أمريكا السالب والموجب معاً دعم مصر ودعم إسرائيل فى نفس الوقت . إن فكرة الثنائيات المتناقضة تلك هى ما يصلح منهجاً لدراسة الماجستير .

لقد آن الأوان كى أحقق حلمى وأغزو تلك القارة وأكتشفها من جديد .

(٤٣) رافى

كان رافى جدعون نموذجًا لهذا الجيل من شباب اليهود الذين ولدوا فى إسرائيل (جيل الصابرا) قبل إقامة الدولة ببضع سنوات، ينحدر من أسرة يهودية مهاجرة من العراق.

نشأ رافى نشأة فقيرة فى أحد الكيبوتز اليهودية قرب نابلس. تعلم فى المدارس التلمودية بإصرار من والده المتدين.. استطاع أن يكمل دراسته بصعوبة حتى التحق بجيش الدفاع وأظهر بلاءً حسنًا فى التدريب والمناورة وحفظ الأسرار بالإضافة إلى إجادته اللغة العربية التى تعلمها من والديه اللذين ظلا يتحدثان بها رغم انتظامهما فى دروس العبرية.. كما عرف عنه أنه من أفضل الجنود نقلاً لأخبار زملائه دون أن يشك فيه أحد.

حتى التقطته عين الجنرال شاؤول أليعازر وضمه للموساد.. تم تعيينه فى إحدى الوظائف الإدارية فى البداية والتى لم تحظ باهتمامه الكامل ولم ترض طموحه، مما أصابه بالهم والكرب حتى أنه فكر فى ترك الموساد والعودة للجيش مرة أخرى.

إلا أن القدر ابتسم له بالصدفة البحتة.

كان رافى يعشق رام الله ويتمنى اليوم الذى يحرر فيه جيش الدفاع تلك المدينة الساحرة من قبضة العرب الهمجيين.

لذا كانت لغته العربية وملامحه الشرقية بمثابة جواز سفر للتجول فى المدينة كما يشاء، حتى أنه أصبح وجهًا مألوفًا لدى أبناء المدينة من العرب الذين أصبحوا يطلقون عليه أبو حسين العراقى الذى فتح محلاً

ناحية السوق القديمة لتجارة العطارة والغلال.

وكان ذلك مما أتاح له فرصة ذهبية لكتابة التقارير وجنى المعلومات عن المقاومة الفلسطينية في رام الله وضواحيها. دقة هذه التقارير هي ما أقنعت رؤسائه في الموساد بتكليفه بالكشف عن سر صياد رام الله الذي أصبح لغزاً محيراً ليس فقط للحكومة الإسرائيلية بل ولجهاز الأمن الإسرائيلي بكامله.

وبعد أن زادت أعداد القتلى من اليهود في تلك المنطقة خصوصاً الذين يتحرشون بالأهالي من العرب، استعانت الحكومة الإسرائيلية بالموساد لحل هذا اللغز.

وهكذا كانت فرصة رافي لكي يظهر مهاراته وإمكانياته المدفونة. ومن هنا بدأ أبو حسين العراقي تاجر العطارة رحلته للبحث عن الصياد في شوارع رام الله، وبدأ يتقرب من أهالي البلدة ويبيع لهم البضاعة بأسعار رخيصة، بل وينتظر عليهم في السداد. كما كان يواظب على الصلاة مع الأهالي في المسجد ويساعد المحتاجين ويتبرع بأمواله للخير.

وقد اقترب بفضل هذه العلاقات المتعددة مع الأهالي من تحقيق هدفه، حتى أن عدنان كان يعبر بجوار دكانه كل صباح ويبيع له جريدة فلسطين ولا يتركه رافي إلا بعد أن يحاول الإيقاع به لمعرفة أخبار أهل المدينة وآخر ما يحدث فيها من حكايات وأسرار يتناقلها الناس بالشوارع والأسواق.

وكانت حكايات عدنان لرافي مادة خصبة يومية، كان عدنان يحكيها بعناية فائقة بأكثر مما يغزل الصحفي البارع قصته الصحفية دون أن يعلم أن حكاياته تلك عن أهل المدينة سوف تأخذ حقها من النشر

والتوزيع على أوراق وتسجيلات الموساد.

ولو عرف عدنان ذلك لكان أفاض وأسهب وكب المزيد من محبوبك القصص فى أذنى رافى إلا أنه لم يسترح للطريقة التى كان أبو حسين يسأله بها عن أخبار الناس، فقد كانت تتم عن شخصيته الحقيقية شخصية النمام الذى يحب الخوض فى سيرة الناس والإيقاع فيما بينهم.

إلا أن عدنان قرأه من البداية، فطريقة رافى فى إغداق المال عليه لم تكن لتتطلى على من هو فى ذكاء عدنان وخبرته فى قراءة البشر، والتى اكتسبها من حياته التى قضاها فى الشوارع بين الناس.

فبدأ يتعامل مع أبو حسين بشىء من الريبة فى بداية الأمر ثم تحول الأمر من الريبة إلى الحيطة والحذر فكان يجاربه فيما يطلبه منه حتى يحصل منه على النقود. يقص عليه الأخبار الشائعة فى الأسواق والتى يعرفها معظم الناس ثم يجملها بأشياء يستمدّها من خياله الخصب، يستعرض بها قدراته السردية وموهبته الخلاقة فى القص والحكى حتى يشعر رافى نفسه بالاكتماء.

وعندما سأله رافى عن شباب المقاومة البواسل الذين يحاربون اليهود وأنه يود أن يعينه الله على الانضمام إليهم للدفاع عن الأراضى العربية وعن دين الإسلام. حتى بدأ الشك يتسرب إلى نفس عدنان تجاهه وبدأ يلقي له الطعم.

- هل كنت تقاوم الإنجليز فى العراق يا بو حسين؟

- نعم كنا بنقاوم مع الفدائية ونقوص على الجنود الإنجليز والهنود والإستراليين الذين يذخر بهم الجيش البريطانى. وأنت يا عدنان شو علاقتك بالمقاومة؟

- أبدأ يا بو حسين أنا آخر شخص ممكن يكون إلو علاقة بها الإشيأ.
أنا صاحب كيف يا بو حسين متعتى الوحيدة هى كاسة العرقى مع شلة
الأنس فى بار رشيد كل ليلة.. تحب تيجى معنا.

أحس رافى برغبة دفينة فى احتساء الخمر، لكنه قاوم هذه الرغبة
غير المسموح له بها كضابط مخابرات أثناء تادية مهمته، فاعتذر
لعدنان وتمنى أن يهديه الله ويبعده عن هذه الحياة.

استشف عدنان الكذب فى عينيه وألقى له بالطعم:

- على العموم يا بو حسين شرب العرقى ما هو قاصر على الشباب
اللاهى من وجهة نظرك.. أنا كان بدى أطمئن إلك بالأول. لو بدك تقابل
شباب مناضلين ضد الإسرائيلىة فيك تتعرف فيهم الليلة فى بار رشيد
وأنا باعرفك عليهن.

رد رافى بلهفة لم يتمكن من كتمانها:

- صحيح يا عدنان شكراً كثير لـ إلك.

ثم تركه عدنان ومضى بعد أن لمح السعادة المبالغ فيها التى ارتسمت
على وجهه.

وفى أحد الأيام كان الصياد قد كتب مقولته المعتادة على صدر أحد
ضحايه وانتقلت الرياح تجوب شوارع المدينة محملة بالخبر:

جثة جديدة لجندى إسرائيلى كان يلاحق فتاة فلسطينية قاصر
ويتحرش بها بأحد البقاع النائبة. حاول الإمساك بها فعضت يده
وصرخت بكل ما أوتيت من قوة، أفلتت جسدها من بين ذراعيه كما

عصفور يقلت من يد صياده إلا أن الذنب البشرى جذبها من تنورتها
فانخلعت فى يده كاشفة عن بياض فخذيه وملابس داخلية حمراء أسالت
لعابه فقفز فوقها بكل جثته فلم تستطع المسكينة حراكًا.

وأخذ يمطر وجهها ورقبتها بقبلاته المقرزة ولعابه القذر.. وعندما
هم أن يعبث بيده الثقيلة فى أنحاء جسدها الغض استجمعت قواها
وصرخت صرخة مدوية كصرخة وا معتصماه التى صرختها إحدى
جداتها المغتصابات فى مكان ليس ببعيد من مكانها منذ أكثر من ألف
عام.

وهنا كانت رصاصة الصياد التى استقرت فى رقبة الجندى فلفظ
أنفاسه الأخيرة قبل أن يقضى وطره من الفتاة.

وما إن علم رافى بالخبر حتى أغلق دكانه وهرع إلى بيته وارتدى
ملابسه وغادر المدينة متجهاً إلى القدس متحججاً بشراء بضاعة.

وبمجرد وصوله إلى مبنى الوكالة اليهودية القديم صب عليه الجنرال
جام غضبه:

- إنت لم يعد لك أى فائدة يا رافى.

- أرجوك يا جنرال أنا اقتربت كثيراً وفعلت بدأت أشك فى بعض
المشتبه بهم وأراقبهم. وهذه قائمة ببعض أسماء شباب المقاومة
وعناوينهم.

- كل ذلك ليس مهماً على الإطلاق أنا أريد الصياد فوراً.. الحكومة
مقلوبة فى تل أبيب.. لو لم تتمكن من معرفة معلومات عن الصياد
بظرف أسبوع أنا بشرفى بألغى العملية وقتها يبقى انتهى مستقبلك

بالموساد.

- أمرك يا جنرال.. بعد إذنك.

مضى رافى عائداً إلى رام الله غير مدرك كيف سينفذ مستقبله
بالموساد من الضياع.. لا بد من عمل شيء حتى لا ينفذ هذا الجنرال
الغبي تهديده.

(٤٤) بار رشيد

عندما لمح رافى عزيزة لأول مرة وهى تقترب من دكانه تنهذى بخفة ودلال مرتدية عباءتها التى أحكمت لفها على جسدها حتى بانث ثناياه، وخمار يحيط وجهها الأبيض الذى يشع جمالاً خلب لبه وسلب منه عقله.

- كيفك يا بو حسين؟

- أهلين بالصبية.

- بدى زعتر وحبق.

- قديش تكرم عينك.

- كيلة زعتر وكيلة حبق.

ذهب رافى إلى داخل الدكان ليجهز طلب عزيزة التى شعرت بالثقة فى جمالها من الإطراء الذى لمحتة فى عينى أبو حسين الذى كان يكيل لها معيار الزعتر ويختلس النظر إلى جسدها البض من خلف الباب..

ثم خرج حاملاً لفافة كبيرة تبدو أكبر حجماً مما طلبته.

- شو هيدا يا بو حسين.

- هيدى هدية إلك لإنك أول مرة بتشرفى دكانى.. شو اسم الصبية؟

- عزيزة. ما بيصير يا بو حسين لازم تاخذ مصارى.

- أبدأ والله ما بدى مصارى يا ست عزيزة هيدى هدية من عندى..
بتشرفى.

قالها أبو حسين وهو يصوب نظرة هائمة إلى عيني عزيزة، التى لم
تعتد مثل هذه النظرات من أحد من قبل حتى عدنان نفسه.

ظلت عين رافى تتابع عزيزة بعد مغادرتها حتى ابتعدت مسافة كافية
فأغلق دكانه وبدأ يتلصص عليها ويراقبها من بعيد حتى أبصرها تدخل
دار الزهار وعرف أنها تنتمى إلى تلك العائلة. ثم مضى بعد ذلك إلى
موعه المحدد فى بار رشيد حتى يقابل عدنان ويعرفه على الشاب،
وكان قد أخذ قراراً فى نفسه أن يخالف تعليمات الجنرال ويشرب ويلهو
منتشياً بهذه الحالة الرومانسية الحاملة التى ألمت به بعد لقائه بعزيزة.

لم يكن يجول بخاطره مجرد احتمال أن تتحرك مشاعره ويقع فى
الحب من أول نظرة بفتاة عربية من الأعداء بعد أن كان معروفاً بين
أقرانه بأنه آلة لا تشعر ولا تحس.

كيف خبأ له القدر ذلك؟ إنه يعلم علم اليقين أنه الآن يخالف تعليمات
الجنرال، تباً للجنرال إنه أحمق مغرور لم يفهم أهمية ما أفعله. إنه ينتمى
لجيل المؤسسين للدولة الذين نضبت أفكارهم وبارت عقولهم، إننى
أستطيع سبر أغوار هذه المجتمعات العربية ومعرفة أدق أسرارهم وهذا
لن يتأتى أيها الجنرال الحقير إلا بالاندماج الكامل فى مجتمعاتهم، وربما
الزواج من إحدى بناتهم حتى يطمئنوا لى تماماً، حتى يأتى اليوم الذى
نتمكن فيه من الاستيلاء على أراضيهم بكل بساطة.

بمجرد أن وصل رافى إلى بار رشيد ودلف من بوابته حتى وجد
عدنان فى انتظاره.

- أهلين يا بو حسين كيفك؟

- أهلين عدنان.. منيح.

كانت أجهزة الاستشعار والتصوير عند رافى قد بدأت تعمل بمجرد دخوله البار بتصويب نظرة فاحصة على المكان كأى ضابط مخابرات محترف:

مكان فسيح، حوائطه بيضاء اللون، ليس به مقاعد أو موائد لجلوس الزبائن، بل يجلسون على الأرض على وسائد صفت بعناية، تحيط بهم موائد صغيرة، توضع عليها زجاجات وكؤوس الشراب وأطباق المرات العربية الأصيلة. إنه مكان أسطورى يذكره بالحانات القديمة فى بلاده فى الموصل والبصرة.. حتى اسم رشيد هذا يبدو عراقياً تماماً.

وهذا العواد وتلك الألحان.. إنها ليلة من ليالى البصرة الساحرة التى حكى لى أبى عنها كثيراً.

قدم عدنان كاسة عرقى لأبو حسين وأجلسه إلى جواره وقدمه للجالسين فى الحلقة:

- يا شباب هيدا أبو حسين اللى حكيت إلكو عنه.. تاجر كبير من العراق.

- أهلين أبو حسين.

- هادول اصحابى.. محمود وإسماعيل من هون من رام الله وناصر من البيرة وصادق من نابلس.

ثم غمز له بعينه اليسرى قبل أن يكمل:

- نحنا بنسهر هون كل ليلة.. فيك تشاركنا لو بتحب.. بعد شوية
بتشوف مفاجأة الليلة صاروخ الرقص الشرقى شمس.. لو بتحب
الرقص.

- ومين ما يحبه.

- هيك بتكون رفيقنا على طول يا بو حسين.

بدأ الحديث يدور فى الجلسة وفى ركن بعيد يجلس رجل يعزف على
العود أَلحَانًا تبدو تركيبة الإيقاع.

واندمج أبو حسين مع الشباب فى أحاديث طريفة عن العراق والشام،
والغريب أن الحديث لم يتطرق من قريب أو بعيد عن السياسة أو
المقاومة حتى دخلت الراقصة وبدأ التصفيق والتهليل يتناغم مع إيماءات
وحركات جسدها العارى.

أخذت روائح الدخان الممزوج بالحشيش تدور برؤوس الجالسين
الذين أسكرتهم الموسيقى والرقص أكثر من تأثير كاسات العرقى الذى
كان قد استقر فى عروقهم.

حكى لهم أبو حسين عن نشأته الفقيرة فى شوارع البصرة، وعند
وفاة والده اضطر للعمل فى أحد محلات الغلال حتى يتمكن من إعالة
أمه وإخوته.. أحبه صاحب الدكان لخلقه وأمانته وحرصه الدائم على
الصلاة فى المسجد. وعندما كبر زوجه ابنته، وعندما مات الرجل ورث
هو دكانه وبدأت رحلته فى توسعة تجارتها حتى وصل إلى رام الله.

علق إسماعيل ساخرًا:

- يجب أن تلحق بصلاة العشاء يا بو حسين.

رد رافى بنبرة تملأها الحكمة:

- الحياة ساعة وساعة يا ابو إسماعيل، أحياناً يحتاج الرجل منا إلى الخمر حتى ينسى همومه.. على العموم فليغفر الله لنا جميعاً.

سأله ناصر:

- ولكن شو اللي جابك لهون يا بو حسين؟ وليس تترك بلدك وتقلع بلد محتل كيف بلدنا.. ما فيك تخاف من الإسرائيلية؟!

هنا أفاق رافى من سكرته وأجاب:

- خى ناصر كل بلادنا محتلة.. الاستعمار بكل مكان.

رد عدنان:

- معك حق يا بو حسين كل الدول العربية محتلة حتى وإن كانت ظاهرياً طردت المحتل.. لكن الأجنبي ما يتركك لحالك.

تدخل محمود:

- شو يا شباب مين اللي بلش يحكى بالسياسة ما بدنا نفوق.

وجدها رافى فرصة ذهبية ليوقع بهم فى شركه:

- لكن يا شباب المحتل ما بيخرج من بلادنا إذا ضلينا نسكر ونسمع أغاني هيك.

ضحك الشباب على الطريقة التى نطق بها أبو حسين جملته الخطابية وأخذ ناصر، وكان أكثرهم فكاهاة، فى تقليده بطريقة هزلية حتى أن رافى استشعر الحرج وتغيرت ملامح وجهه.

إلا أن عدنان نهر صديقه وطلب منه أن يكف عن هذا المزاح.

- شوف يا بو حسين ما فى فايده من المقاومة، خلاص كل شىء راح لو أنت بدك تقاوم الإسرائلية فيك تروح لحالك.

ثم ضحك عدنان ضحكة عميقة لم يتمكن من كبح جماحها رغم علمه أن ملامح أبو حسين قد تحولت إلى الغضب، حتى نهض فجأة وهو يقول:

- هيدا بيكفى أنا غلطان أنى جيت على هون.

نهض عدنان وأخذ يعتذر لأبو حسين دون جدوى فقد أصر على الرحيل.

عند هذا الحد كان الشك قد بدأ يتسرب إلى صدر عدنان فى أبو حسين وأخذ ينبه أصدقاءه إلى خطة الترمويه التى سوف يسيرون عليها حتى يصلوا إلى حقيقة هذا الرجل، وما إذا كان يتجسس عليهم ولصالح من وهل هو عراقي فعلاً كما يدعى أم أنه مجرد متطفل يحب جمع المعلومات ليس إلا.

وكانت خطة عدنان تتحصر فى أنه إذا كان أبو حسين جاسوساً يعمل لصالح الإسرائلية فإنه سوف يبلع الطعم ويبدأ فى مراقبة هؤلاء الشباب عن كثب وهم يعملون فى تهريب البضائع من غزة إلى القدس ويقضون النهار بطوله بين الطرق والمعابر وليس لهم أى علاقة من قريب أو من

بعيد بالفدائيين.

وبذلك يكون عدنان قد شنت جهوده تمامًا على مراقبة مجموعة من شباب المهربين بالنهار والسكري بالليل.

إلا أن رافى بقدر ما ابتلع الطعم وبدأ فعلاً فى جمع المعلومات عن هؤلاء الشباب إلا أنه بدأ يشك فى عدنان ليس بسبب سهرة بار رشيد فحسب ولكن لأنه رآه فى أحد الأيام مع عزيزة عندما كان يراقبها من بعيد.

آه لا بد أن هذا العدنان يعرف الكثير، ما علاقته بهذه الفتاة هل يحبها؟ هل هى تحبه؟ لقد وثقت به أكثر من اللازم ويجب أن أراقبه هو شخصياً.

فى تلك الأيام كان رافى يراقب عزيزة من بعيد رغم علمه أن هذا العمل الذى يقدم عليه منافٍ لتعليمات الجنرال وأنه قد يكون سبباً فى خسارته لوظيفته، إلا أن هيامه بعيون عزيزة كان مبرره الدائم لرحلاته اليومية لملاحقتها واختلاس النظر إلى سمانة ساقها أسفل فستانها المزرکش.

جمال هذه السيقان التى تتحاكى بهما بنات الحى حسداً على عزيزة كانت سبباً مباشراً فى وقوع رافى فى غرام عزيزة ومخالفته لتعليمات الجنرال.

وفى عصر أحد الأيام حاول رافى أن يقترب قليلاً من عزيزة مستغلاً خلو الطريق من المارة وحاول أن يهمس فى أذنيها بشيء مما يجول فى صدره، إلا أن عزيزة صدته تمامًا عن محاولة التودد إليها. حاول رافى أن يبوَح لها بحبه وهيامه بها منذ أول لقاء جمع بينهما فى دكانه بالسوق

وأنه يملك الكثير من الأموال التى تكفل له أن يشتري لها أى شىء تحلم به.

إلا أن عزيزة التى كانت فى طريقها للقاء عدنان، كانت فى قمة التوتر؛ فهذه هى المرة الأولى التى تتعرض فيها لموقف كهذا، كما أنها توجست خيفة من أن يلحق عدنان أبو حسين وهو يحدثها فيسىء فهم الموقف وينكل بأبو حسين كما يفعل بالجنود الإسرائيلية، فوقفت فجأة وصرخت فى وجه أبو حسين محاولة ردعه.

- هذا لا يليق بك يا بو حسين أن تطاردنى هكذا فى شوارع البلدة.. أهلى لو عرفوا ببصير إلهم تصرف قاسى معك.

هنا فوجئ رافى بردة فعلها الغاضبة غير المتوقعة، فقد كان متخيلاً أن تهيم عزيزة به حباً لوسامته الظاهرة وأمواله التى يمكن أن تجعلها أميرة.

إلا أنه تدارك ذلك الموقف واعتذر لها عن هذه الطريقة التى لم يجد غيرها ليعبر لها بها عن مشاعره النبيلة، وأنه لم يقصد الإساءة مطلقاً. وعندما أحس بردة فعل إيجابية على كلامه طلب منها أن تنصرف فمن غير اللائق فعلاً أن يحدثها فى أمور كهذه فى الطريق وقال:

- إنما نحن العرب نراعى الأصول وندخل البيوت من أبوابها، لذلك سوف أزورك فى البيت وأقابل والدك وإخوتك للتعرف عليهم فى دار الزهار قريباً إن شاء الله.

هنا فقدت عزيزة أعصابها وصرخت فى وجهه:

- لا داعى لهذه الزيارة يا بو حسين، أنا لا أريد الزواج منك أو من

غيرك أنا لا زلت صغيرة على ذلك.. أتفهم؟

- آه أنا فهمت الآن سر هذه العصبية! هل يوجد شخص آخر؟

ردت عزيزة باقتضاب:

- لا لا يوجد أحد آخر.

ثم ضحك رافى ضحكة خبيثة وسألها:

- هل يعرف الحاج الزهار وإخوتك الرجال أنك تقابلين بائع الجرائد من ورائهم؟!

ارتسمت الصدمة على وجه عزيزة التي لم تتخيل مطلقاً أن هناك من يعرف سرها مع عدنان غير الله، وردت بتعلثم واضح:

- من تقصد؟ أنا لا أعرف أى بائع جرائد!

جذبها رافى من يدها بقوة وأخبرها أنه رآها وهى تقابل عدنان من قبل عند الجبل وأنه سوف يفضح أمرها إن لم تستجب له.

هنا لم تتمكن عزيزة من كبح جماح دموعها التى سألت خوفاً من المصير الذى سيلحقها إذا ما علم الشيخ الزهار أو إخوتها الذكور بعلاقتها بعدنان فحاولت استعطاف أبو حسين:

- أرجوك لا داعى لأن تخبر أهلى بهالموضوع سوف يقتلنى أبى لو علم شيئاً. إنك شخص متدين وشهم وسوف تجد ألف فتاة تتمناك.

- أنا لا أريد الألف أنا أريدك أنتى.

- كيف تتزوج فتاة تعرف أنها تحب شخصاً آخر؟!

رد عليها رافى بنبرة مستسلمة:

- هل تحببته إلى هذا الحد؟

- نعم هو كل ما لدى فى هذه الدنيا نحن زائران لنا نفس الظروف
ويجمعنا نفس المصير.

أبدى رافى تأثره بهذا الحديث وقال:

- أمام هذا الحب لا أستطيع أن أقف عقبة أمام قلبين جمع الله بينهما.

- شكراً إلك يا بو حسين كنت متأكدة من حسن أخلاقك وشهامتك.

- أنا مستعد أن أنسى ما حدث لن أخبر أهلك بموضوع عدنان
ولكن...

- ولكن ماذا يا بو حسين.. أنا فتاة شريفة لا تحاول أن تهددنى أو
تعبت معى.

- لا لم أقصد حاشا لله أنا رجل متدين وأعرف ربنا. كل ما قصده
أنك يمكن أن تسدى لى خدمة فى المقابل.

- تقصد أن أشرح لك بعض فتيات المدينة للزواج؟

- لا ليس هذا ما قصده أنا أقصد عدنان.

- ماذا عنه.

- عدنان فتى طيب ومهذب ويكافح فى عمله من أجل لقمة العيش.
- شكرًا لك يا بو حسين هيدا من أصلك.
- ما أريده منك أن لا تبغى عدنان بما دار بيننا.
- لا تقلق لن أبلغه.
- هكذا استرحت الآن، لذلك سوف أخبرك عن موضوع سوف أساعد فيه عدنان.
- ماذا تقصد يا بو حسين لقد أثرت فى نفسى قلقًا على عدنان.
- لا تقلقى يا عزيزة أنا سوف أساعده إن لزم الأمر وهذا لن يحدث إلا إذا أبلغتني بمن يقابلهم دون أن تخبريه.
- لماذا أخبرك بذلك يا ابو حسين؟
- هناك بعض الشباب المطلوبين من الأمن يقابلون عدنان وهذا خطر كبير عليه.
- هل تعنى أن الشرطة سوف تلقى القبض عليه؟
- لا تقلقى يا عزيزة أنا من خلال علاقاتى مع الجهات الأمنية أستطيع أن أنقذه فى الوقت المناسب المهم أن تخبرينى بكل من يقابلهم.
- استبد التجسس بعزيزة قبل أن تودع أبو حسين، ومن فرط توترها نسيت موعدا مع عدنان وهرعت إلى دار الزهار ولم تخاطب أحدًا فى تلك الليلة.

هاتفتم عزيزة عدنان فى مقهى ركب بصوت متهدج بنهنهات بكائها
المتقطعة والتي تتم عن الانهيار الكامل فجاءها صوت عدنان قلقاً
متوجساً:

- إيش فى يا عزيزة وينك؟

- أنا بالببيت ما فى أرفع صوتى أكثر من هيك.

- شو اللى جرى قفقتينى؟

- أنا بدى اشوفك الحين.

- لازم الحين؟

- إى.

- وين تحبى؟

- دار الإذاعة.

- منيح باشوفك بعد ساعة.

بعد أن انقضت الساعة كان عدنان فى المكان المتفق عليه وبمجرد
أن رأى عزيزة قادمة إليه مهرولة باكية تقدم نحوها وخبأها فى صدره
فأجهشت بالبكاء حتى كاد أن يغشى عليها.

- شو اللى جرى جاوبينى.

- ما فى شى أنا خايفة.

- احكى يا مرة شو فى؟

- ابتسمت عزيزة بين ذراعى عدنان وبدأت تحكى له ما جرى:

- كان معك حق تشك بأبو حسين مثل ما خبرتنى.

- أبو حسين اتعرض إلك واللا شو؟

- إى.. اليوم بالطريق وانا مارقة ع البيت.

- الكلب أنا بقوص عليه.

- ما حصل شى يا عدنان.

احكى يا عزيزة شو جرى شو قال؟

حكاى أن بده يجى ع دار الزهار يطلب يدى ولما خبرته أنى ما بدى
اتزوج كمشنى من يدى و...

توقفت عزيزة كأنها لا تقوى أن تبوح بحقيقة ما قاله، ولكن عدنان
الذى كان الدم يغلى فى أوداجه نهرا حتى تكمل قصتها فاستجابت
وهى تحاول تهدئته:

- سألنى إن كان أهلى بيعرفوا أنه أنا على علاقة معك.

صرخ فيها عدنان:

- وشو اللى خبره بهيك؟!!

- ما باعرف أكيد شافنا بالصدفة أو شى..

صمت عدنان قليلاً وهو يحاول استيعاب كلامها:

- أكيد كان بيراقبنا.

- ليش يراقبنا؟

- إسه ما فهمت عليا.

- بتقصد أن أبو حسين...

- إي أبو حسين جاسوس للإسرائيلية.

- بتقصد أنه عرف عنك شى؟

- ما باعرف لكن طريقته معى فى الحكى اليوم الصبح كانت متغيرة
كان بده يفهمنى أنه بيعرف سرى.

- أترجاك يا عدنان لازم تختفى هاليومين.. لأنه طلب منى أخبره
عن الشباب اللى عم تقابلهم وإلا حيفضحنى ويخبر أهلى عن علاقتنا.

- شو هالحكى؟ وإيش تانى؟

- ما فى شى هيدا كل اللى صار.. على شو ناوى تعمل؟

- العمل عمل ربنا يا عزيزة.

- وأنا شو بدى اسوى معه إذا سألتنى؟

- لا تخافى كل شىء بوقته.. إن سألك عن الشباب اللى باقابلهم فى
البيرة أو فى القدس خبريه.

- كيف؟

- قولى الحقيقة.

- عدنان إيش بيدور هون (أشارت بأصبعها إلى رأسه).

لمعت عيناه وهو ينظر إليها:

- فيكى تخبريه عن ناصر وإسماعيل ومحمود.

- هوا حكانى أن هادول الشباب خطر عليك وانه بده يعرف كل شىء عنهم حتى لا تتعرض أنت للخطر لأنهم مطلوبين للشرطة.

- إى فهمت عليكى.

- أنا خايفة عليك يا عدنان هيدا ممكن يكون مسلح ويقتلك.

- لا تخافى يا عزيزة أنا الصياد لا تنسى أنا ياللى دوخت الإنجليز والصهاينة سنين. والصياد الشاطر شو بيعمل؟

- شو؟

- بيحضر الفخ منيح للفريسة.

- ما فهمت شىء.

- بعدين تفهمى.

- عدنان شو بدك تعمل؟

- مثل ما حكيت فيكى تخبريه عن الشباب وانه فى عملية خطف يهود بتصير يوم الجمعة من كيبوتز مردخاى، احكيه أنهم حيتقابلوا عند الجبل بالمسا وبعدين يمرقوا ع الكيبوتز وانك خايفة علىّ وما بدك أنى أشارك معهم فى هيدى العملية ومن شان هيك خبرتيه.

- وانت بتروح عن جد؟

لا تحكى كثير فيكى تنفذى الشغلات ياللى طلبتها.

يعنى ما فى خطر بهالعملية؟

ما فى عملية من الأساس هيدا فخ.

وايش بدك تسوى لو هو اكتشف هالموضوع؟

أنا بدى أجيب حقك يا عزيزة.

كيف؟

ما فى حدن يتعرض لمرتى بالطريق مثل ما سوى هالكلب.

أحست عزيزة بالزهو عندما ذكر عدنان كلمة مرتى وطارت من الفرحة وهى تودعه.

- تعالى أنا باوصلك.

- لا يا مستر كولومبو.

- ليش؟

- ما بدى أبو حسين يشوفنا.. مو هيك!

- إى معك حق صرتى واعية الحين؟

- إى بعرف.

- مع السلامة.

- يسلموا.

غادرت عزيزة المكان متجهة لبيت الزهار وظل عدنان يراقبها من بعيد حتى اطمأن على وصولها سالمة، وانطلق لتنفيذ خطته بأن التقى فى بار رشيد مع الشباب وأخبرهم بتفاصيل ما حدث. وطلب منهم إخبار الأهالى بحقيقة أبو حسين، مع كتمان الموضوع حتى يأتى برجليه.

فى مساء يوم الجمعة طار رافى ع القدس تحمله رياح الفرح لمقابلة الجنرال الذى طلب إستدعائه على الفور. ماذا يا ترى يريد هذا العجوز الأبله.. هل عرف شيئاً من خطتى؟! لا أعتقد، الأكيد أنه يريد نتائج.. هذا الرجل لا يرتوى أبداً من ظمئه المستمر للمعلومات، مهما فعلت فأنا دائماً مقصر من وجهة نظره، لكن اليوم سأجعله يقبل مؤخرتى حتى أبوح له بالعملية المرتقبة.. هانت يا جنرال.. أيام قليلة ويقع الصياد ورفاقه بالفخ الذى أنصبه لهم بذكائى وقدراتى التى تشكك فيها دوماً وليس طريقتك العتيقة البالية.

دلف رافى من باب المبنى وصعد السلم مسرعاً، استأذن فى الدخول وعندما فتح باب المكتب كان الجنرال فى انتظاره كما توقع.

- أهلاً يا بطل.

- أهلاً يا جنرال شكراً.

ثم قام الجنرال من مكتبه ليستقبله بنفسه بابتسامة صفراء لم ترح رافى:

- لم أكن أتصور يا رافى أنك تمتلك تلك القدرات الفذة! لقد أثلجت صدورنا.

هنا أدرك رافى أن الجنرال قد عرف بالقصة من أى مصدر آخر من مصادره المنتشرة بالمنطقة وبدأ يتعالى قليلاً من فرط الغرور:

- ولكنك لم تكن تدرك ذلك يا جنرال.

- نعم لقد كنت مخطئاً لم أكن أعلم أنني أتعامل مع ضابط مخابرات بارع مثلك على هذه الدرجة من الحنكة والكفاءة.

- شكراً يا جنرال لقد أدركت ذلك متأخراً مع الأسف.

- العفو يا رافى لا تؤاخذنى كما يقول العرب.

- ولكن من أخبرك بهذه المعلومات يا جنرال لقد حدثت بالأمس فقط!

- هذا سؤال لا يسأله ضابط مخابرات يا رافى.

- آه الآن أعلم أكيد أنه ذلك النادل الذى يعمل فى المقهى أو الآخر الذى يعمل فى منتزه رام الله أو تلك الفتاة التى تقطع التذاكر فى سينما الوليد.

كان رافى يبتسم ابتسامة تشفّ للجنرال بعد تمكنه من كشف مصادره

السرية فى رام الله. هنا تحول وجه الجنرال من ابتسامة الترحيب إلى التشنج:

أنا من كشفت لك كل هؤلاء أيها الأحمق حتى تلجأ إليهم عند الضرورة.

ماذا حدث يا جنرال لقد كنت هادئاً منذ قليل؟!

- سوف أخبرك الآن يا بطل. انت أغبى من عملت معهم طيلة عمرى، أتعرف لماذا طلبت حضورك أيها الأحمق؟ لأن رام الله كلها قد عرفت حقيقتك هذا الصباح.

- ماذا تعنى يا جنرال؟ عن أى شىء تتحدث؟!

- أتحدث عن الخبر الذى طاف شوارع رام الله هذا الصباح وجعل الأهالى يحطمون واجهة دكانك.

ألقي رافى بجثته على المقعد خلفه كجمل يبرك على الأرض فجأة.

- كيف حدث ذلك؟

- لأنك غبى.. لقد خالفت التعليمات بتقربك من هذه الفتاة.

- أنا تصورت أنك تحدثنى عن عملية يوم الجمعة!

- أى عملية! أنت موقوف عن العمل، أنت لا تصلح لتكون ضابط مخابرات.

- ولكن يا سيدى أرجوك أن تمنحنى الفرصة الأخيرة.

- أى فرصة؟

- لقد تأكدت من شخصية الصياد، هو بائع جرائد واسمه عدنان ومعه رفاقه من الفدائيين سوف ينفذون عملية فى كيبوتز مردخاي يوم الجمعة وجئت لأبشرك بذلك.

- ومن أدراك أن تلك معلومات صحيحة؟

- نعم؟ لم أتأكد.

- لقد تلاعبت بك هذه الفتاة يا روميو.

- إنها أحد مصادرى للإيقاع بعدنان.

- لقد أخبرتك مراراً وتكراراً أن تبتعد عن النساء العرب.. إن ضابط المخابرات الناجح ليس له مشاعر ولا يعرف الحب.

- لقد عرفت معلومات كثيرة بسبب تلك الفتاة، أقصد المصدر.

- معلوماتك بلا قيمة أيها الفاشل. لا توجد أى علاقة بين الصياد وبائع الجرائد هذا كما أن هؤلاء الشباب الذين جلست معهم فى بار رشيد ليسوا إلا حفنة من اللصوص والمهربين وليس لهم أى علاقة بالفدائيين.

- أرجوك يا جنرال امنحنى فرصة أخيرة لأثبت لك.

- لقد منحتك الكثير من الفرص ولم تستغلها حتى كشفك العرب.

(٤٥) رام الله ٩٤

كانت تجلس بجوار معاذ فى الباص الصغير المخصص للصحفيين
المرافقين لموكب الرئيس الفلسطينى أبو عمار، فى تلك اللحظة
التاريخية التى توقف فيها الزمن ليعلن عن دخول الختار إلى أرضه
بعد أكثر من أربعين عاماً من الشتات. هل كان شتاءاً أم تيهًا.. هل يشبه
تية بنى إسرائيل القديم؟

الكويت، مصر، سوريا، الأردن، لبنان، تونس.. لحظات وينتهى هذا
التيه الأبدى ليقبل الختار تراب وطنه.

هل عاد الابن الضال هل انتهت مشكلته الأبدية.. هل تم حل القضية؟

لقد عاد، وهذا هو المهم.. قدم فلسطينية تدق على أرض فلسطين
المشتاقة لوقع أقدام أبنائها.. تشعر بهم من بعيد تعرفهم من وقع أقدامهم.

الابن يعود إلى أمه دون هدية.. لم يحضر لها وشاحاً تنتثر به، أو
منديلاً تمسح به عرق الاغتراب. هل معه قلم يكتب به تاريخاً جديداً
على كف يديها؟

القلم مقصوف واليد منهكة من كثرة الدعاء.

هل تمحو هذه الالبتسامة التى نقشوها على وجهه تجاعيد الذكرى
التى تحفر وجهها؟ هل تنسى له البعد؟ هل يعزيها وجوده الملموس فى
أحضانها عن ماهيته التى ضاعت بين يدي ضابط إسرائيلى ينفش ختم
العار على باسبوره؟ هل فتش نفس الضابط حقائبه؟

لقد مر الختار من هنا على جثث من ماتوا من أجل لحظة مشابهة

ترفر ففها الكوففة الفلصففنفة على أكتاف المسفقبلفن.

الفارفف فقسّم عطافاء على من فشاء؁ لا ففهم بأصحاب الفقوق أو الطفففن أو ذوى النوافا الفسنة. الفارفف فأمر ففطاع؁ لا فشفله من كنا ومن كانوا.. فنه فرسم ففأفًا على الورق الأبيض فف فففجر الأفأاف وففمفل ففاب الفارفف.

لم فكن فرحة أمل لفقل عن فرحة باقى أعضاء الموكب. معاذ فمسك بفففا وفضط عفهما منففشفاً بهذا النصر الفارفف؁ هو لا فذكر أفر مرة أرف فففا من فلصففن.. فنه فعود من أففف لبدء نضاله الفاص من الفافل فذه المرة.

لقد فعب من الشفاف.. نسماف رام الله الفى ملأت رفففه أعافف الطمأنفنة إلى نفسه.. لم فسففشفق فذا الشففق من قبل لا فى القاهرة ولا فى عمان.. فنه فعود إلى فوض السمك الذى فزفن قاعة الوطن.

أمل روحها فغرد كعصفور انففشى من فرط الفففق ففط على أقرب شجرة لففى إلفها بسنواف عمره المفعبة.. فنها فولد من أففف.. كفف فففقت كل أعلامها بهذه السهولة.. وطن فففف ذراعفه لها بعد طول اشففاق وزوج مهب ملهم لم فكن سفف طموحاتها لفعلو فوق مآثره وصفافه. وأففرًا الوظففة الفى ففف إلفها النفس منذ طفولتها البكر.. صفففة فعمل من أرض فلصففن ففف للعام أخبار الوطن الجرف.

هل كان ناجى العلى فففف ذلك؟ لففه كان بفننا.. لفف ففظلة كان هنا.. لقد رأففه فى حلم الأمس فى كاركاففر لم أفهم معناه؁ لماذا فقف بعفدًا فا ففظلة؟ لماذا فقف بعفدًا عن ذلك الافففال الكفر؟ لماذا فرفدى فذه البفلة الأنفقة وأنف فافى القفمفن؟! هل فضحك أم فبكى فا ناجى.. أقصف فا ففظلة؟

مرت سيارات الموكب فوق جسر اللينبي في طريقها لدخول الضفة الغربية ثم رام الله.. صعد إلى سيارتنا ضابط فلسطيني:

- يا أهلا وسهلا بالشباب كيفكم.. الهويات من فضلكم.

هل كل منا يحمل هويته الجديدة الموسومة بخاتم السلطة.. وهو الاسم الذي أطلقتها المفاوضات على دولتنا الناشئة؟ اطلع الضابط على الهويات ورحب بنا في بلدنا ومضى ليجلس في المكان المخصص لضباط الشرطة الفلسطينية.

أحسست لأول مرة في حياتي بالألفة مع أبناء بلدي، لقد أصبح عندي وطن. إنها فرحة الطفل باقتناء لعبة جديدة لم يعكر صفوها إلا ذلك الرجل الجالس في كشك زجاجي عند بوابة المعبر، لم تنبئ ملامحه عن نفس الألفة. شعر ناعم، بشرة بيضاء، وعيون خضراء.. سحبت من المشهد منطقيته.. ماذا يفعل هذا الأجنبي في بلدنا؟!

سألت معاذ.

أجاب وهو منكس الرأس:

إنه ضابط إسرائيلي.

لم أنتظر منه أن يصف لي وظيفته، أو سبب وجوده في بلدنا الجديد، ولكن كنت ألحظ في عينيه شعورًا مختلطًا من الثقة والتشفي عندما أمر الجنود بأن يفتحوا لنا المعبر حتى نمر إلى بلدنا.

ذهبنا إلى المؤتمر الصحفي الذي عقده أبو عمار في مقر مبنى السلطة الفلسطينية بـرام الله.

هبت علينا نسמת العودة.. عودة الروح.

صفق الحاضرون على الكلمات التى اختتم بها أبو عمار خطبته الطويلة:

إننا نستحق أن نعيش فوق تراب هذا الوطن إنها بلدنا.

ثم نظر إلى السماء كأنه يخاطب شخصاً وهمياً وهو يقول:

إننا شعب الجبارين، هكذا تحدثت عنا الأديان وكتب التراث، وسوف نكمل ما حققناه فى مفاوضات السلام.. سوف نحقق ما حلمنا به بالسلام.. سلام الشجعان.

لم تفهم أمل من هم الجبارون أو من هم الشجعان، إنما كانت تصفق بكلتا يديها وتصرخ مهللة من الفرحة هاتفة باسم أبو عمار بعد أن انتهى من إلقاء خطبته.

بعدها أخبرها معاذ بأنه سوف يحضر اجتماعاً مهماً مع قيادات فتح، وأنه أوصى سائقه الخاص بأن يوصلها إلى البيت حتى تستريح من عناء السفر. كانت أمل تحلم باللحظة التى تدخل فيها مع معاذ إلى منزله ويحملها بعد أن يغلق الباب ثم يطوف بها أرجاء المنزل كعروس مدللة. إلا أن هذا الاجتماع قضى على أحلامها الوردية تلك.

طبع معاذ قبلته على جبينها ثم مضى، وجاء فراس السائق وهو شاب توحى ملامحه بالثقافة والذكاء.

حمل حقيبة أمل ووضعها فى السيارة ثم فتح باب السيارة الخلفى لأمل فأغلقت وأصرت على الجلوس بجوار فراس، الذى أعجبته لفته

أمل الإنسانية التى لم يحظ بمثلها أبداً من معاذ.

- ما اسمك؟

- فراس.

- أنا أمل وهيدى عمتى عزيزة نحنا من رام الله.

- أهلين ستى.

- لا تقل ستى أنا أمل فقط.

- يسلّموا ست أمل.

انطلقت السيارة تحتضن شوارع رام الله.. لكن أمل همست فى أذن السائق:

- فراس بدى أطلب شىء.

- تقبرينى ست أمل.

- بدى اشوف رام الله.

- عينى.

ظل فراس لمدة ساعتين كاملتين يطوف فى شوارع المدينة، كانت أمل تسأله عن كل شىء تراه: أسماء الشوارع، المحلات، المقاهى، السينمات، بينما كانت عزيزة ساهمة تنظر إلى البيوت فى حسرة كأنها غير سعيدة بعودتها.

- شو فيه عمتى ليش هالصمت؟

لم تجب عزيزة ولكن أمل أبصرت لمعان عينيها قبل أن تجهش بالبكاء.

- لا تحزنى يا عمتى نحنا رجعنا أرضنا.

فتمالكت عزيزة نفسها وأخرجت منديلًا من حقيبتها جففت به دموعها، التى لم تعرف سببًا لانهمارها فى أول يوم لها بعد العودة.

لماذا تركتك وحيدًا يا حبيبى لماذا سمعت كلامهم وهجرتك؟ أنت وطنى الذى كان لا بد لى أن أتمترس فيه للدفاع عنه.

أنت حياتى التى لم أعشها إلا معك.. أنت عمرى الذى ضاع بغيابك.

لقد كنت أبحث عن حريتى فى عينيك لقد سلبونى تلك الحرية طيلة عمرى لم أعرف كيف أفعل ما أريد.

هل هو مقدر على المرأة فى بلادنا أن تظل تابعًا لظل الرجل؟ دائمًا خاضعة ذليلة؟ لماذا نصبح كمًا مهملاً كقطعة أثاث فى ركن بعيد تزين فضاء الغرفة لكى يشيد الرجال بزخرفها؟

هكذا كانت حياتى قبلك يا حبيبى فتاة لقيطة لاجئة يتيمة تربت مع أسرة طيبة، لكن قانون النساء يفرض مواده على دستورهم العائلى: لا تعليم، لا حقوق، لا أصدقاء مثل إخوتى الذكور، وعندما كبرنا كان لكل منهم حبيبته التى يتفاخر بها أمام الجميع أما أنا فكيف يتأتى أن يكون لى حبيب أو صديق؟

إنها تفاحة آدم، العقدة التى جعلت أولاده يحذرون من غوايتها.

الغواية.. العقل الناقص.. الجسد.. هذا هو مثلث حقوق المرأة المهكرة
فى بلادنا.

فى اليوم الذى اكتشف فيه أخى حسن علاقتى مع عدنان، صرخ فى
وجهى عند باب الدار، جذبنى من ذراعى بقوة، أوقعتنى على الأرض
فجرحت ساقى: من هذا الذى تخرجين معه خبرينى؟! وأخذ يصيح فى
وجهى ويسببنى: من هذا يا فاجرة.. ما هى علاقتهما.. هل أنت عشيقته؟
إلى آخر هذه الجمل البذيئة التى يقولها أخ ثائر لأخته عندما يكتشف
علاقتها برجل.

أخبرته بأنى أحبه وسوف نتزوج.

هنا صعق حسن تماماً وأخذ ينادى كل من بالببيت حتى يخبرهم
بجريمتى:

- تعالوا جميعاً لتشاهدوا هذا العار.. ست الصبايا بدها تتزوج ببيع
الجرائد!

جاء أخى معين وحاول أن يباعد بينى وبين حسن الذى دفعه بقوة فى
صدره وقال:

- اتركنى أؤدبها لقد انفلت عيارها.. لقد جلبت لنا العار.

فى هذه اللحظة دخلت أمى ضمتنى بين ذراعيها ووبخت حسن:

- ماذا تفعل يا ولد هل تضرب أختك.. ماذا فعلت لكل ذلك؟!!

- اسألها يا أمى.. بنتك على علاقة بببيع الجرائد.

ضربت أمى بكفها على صدرها وهى تصيح:

- عزيزة شو هالحكى! خبرينى الحقيقة.

لم أستطع الرد عليها إلا بشلال غزير من الدموع، وألقيت برأسى فى صدرها قبل أن تأمر الجميع بتركنا وأخذتني إلى الداخل وأغلقت باب الغرفة.

عندها اعترفتُ لأمى بالموضوع من أوله وأخبرتها عن علاقتي بعدنان وأنه سوف يأتى قريباً لخطبتى، إلا أن وجهها تغير هذه اللحظة وألقت بنظراتها فى فراغ الغرفة وهى تحدث شخصاً وهمياً:

- كيف تتزوجى ببيع جرائد! أبوكى بينشل لو سمع هالحكى.

- لكن يا أمى...

- ما فى لكن ولا شى.. انتى بتقللى على غرفتك وما بدشريها بنوب.

- يا أمى لا تحرمينى منه.

- ما فيكى تشوفيه.. أخوكى معه حق وأنا عم فهمه أنك عقلتى.

ذهبت إلى غرفتى ودفنت رأسى فى الوسادة التى حولت صوت بكائى إلى عويل مكتوم.

خرجت أمى من الغرفة وأطاحت بالباب خلفها، وقالت لحسن: ما فيك تضرب إختك إلا لما باموت.

- وإيش بدنا نسوى يا أمى!؟

- أنا باتصرف ما إلك صالح بهالموضوع.. ولا تخبر الشيخ الزهار..
بيكفى اللى صار بيكفى.

ماذا حدث لك يا عزيزة أليس هذا اليوم الذى كنت تتمنين أن تطول
بك الحياة لتشهديه؟ إنه حضن الوطن البعيد الذى نزعونى منه مرتين.

هل بإمكان فرويد أن يفسر لنا ماذا يحدث للوليد عند نزع شفثيه من
حلمة ثدى أمه.. نصف قرن من الحنان ضاعت على ذلك الطفل.. ترى
من يعوضه عنها!

فوق جسر اللبنى رشقتنى زخات الذاكرة العام ٦٧.. الإسرائيلية
يدخلون رام الله.. هل يكتب على التشرد مرة أخرى؟ البعد عن وطنى
من جديد؟ إنهم يحرقون الأشجار.. أشجارنا.. زيتوننا!

أعود إلى البيت مسرعة والرصاص يقصف طبله أذنى.. الحاج
محمد الزهار يجلس على باب البيت مرتدياً قمبازه واضعاً قدمًا على قدم
يلوح بمنشته فى الهواء، هل يهش الذباب أم الرصاص أم سنوات عمره
الطويل؟

لماذا تجلس هنا يا أبتِ ادخل إلى الدار.. بيتسم لى ويضحك كأنه
يعيش فى عالم نسجه وحده فى أروقة الخيال.

أصعد الدرج لأجد أمى تعبى الأوانى داخل الشننات تلحق ما تطوله
يدها تريد أن تجمع أشلاء حياتها فى الحقائب كأنها تخشى على ذكرياتها
من الضياع.

- معين غير موجود يا أمى وين راح؟

- خرج مع رفقاته بالأمس على القدس.

حسن يحمل الشناتى ويضعها فى سيارة التاكسى، يساعده السائق فى رصها فى الصندوق الخلفى للسيارة. إنهم يسطرون تاريخ العائلة القادم فى صندوق هذه السيارة العتيقة المتجهة بنا إلى المجهول.

إلى غزة، سنعيش هناك مكملين القصة حتى النهاية، قصة الارتحال الأبدى..

أمى تبكى عندما أبصرت أبى يسقط على الأرض.. هل أكل النمل عصاه التى كان يتكى عليها أمامنا حتى لا نستشعر رحيله؟

لقد مات أبى فى هذه اللحظة الآنية.

كنت أمامنا رمزاً للصمود والحياة والتشبث برمال أرضنا.. نحن جبناء يا أبى سوف نرحل سوف نهرب يا أبى.

لن نتمكن من غرس أرجلنا فى هذه الأرض كما كانت عصاتك.

سوف نواصل الترحال لعل لنا أرضاً ترضى عنا ولا تقذفنا من رحمها مهما طالت سنوات المخاض المؤلمة.

- لن أركب يا حسن سوف أنتظر أخى معين.. سوف أنتظر حتى ندفن جثة أبى.

- لا وقت يا عزيزة الجنود فى طريقهم إلى هنا يجب أن نهرب إلى غزة قبل إغلاق المعابر.

- هل تظن بفعلتك هذه أنك تتجو يا حسن؟ لا والله لقد كتبت على

نفسك الهروب الأبدى. كيف تترك جثة أبيك لتنهشها الذئاب.. كيف تترك أذاك الأصغر دون أن يعود؟

- اركبى أو انتظرى لا وقت لدى.

لقد ضاع معين كما ضاعت رام الله كما ضاع عدنان.

تركتهم وتخفيت فى زى رجل، وركبت إحدى السيارات المتوجهة للقدس مع بعض شباب الفدائية. كانت الدوريات الإسرائيلية تجوب الطريق إلى القدس، وكان الشباب يخبرونهم عند المعابر أننا عمال تراحيل عرب نعمل فى القدس، وعند المدخل الغربى للقدس تركت الشباب وسرت طوال الليل وحتى الصباح أبحث عن عدنان أو معين دون جدوى. عندها فاجأنى أبو حسين.. حاولت أن أعبر أمامه دون أن يرانى لكنه أوقفنى فى الحال.

- أنت يا عربى.

- ماذا (حاولت أن أغلظ من نبرات صوتى).

- أين تذهب؟

- أنا أعمل فى القدس.

لم تشفع لى غلظة صوتى المبالغ فيها عنده فقد زادت من غزو جراد الشك لعقله.. ثم بدأ يلمسنى محاولاً أن يزيل الوشاح الذى كنت أضعه على رأسى فما كان منى إلا أن لطمته على وجهه إلا أن هذه اللطمة كانت كفيلة بفك جدائل شعرى الناعمة التى لم تتمكن من مقاومة رغبة أثيرة فى الانسداد على كتفى.

جذبني أبو حسين من رأسي وطرحني أرضاً وصرخ في وجهي:

- كيف نجحتما في خداعي أنت وعشيقك أيتها العاهرة؟ سوف أقبض عليه وأعذبه أمام عينيك.

ثم هجم عليّ واعتلاني وأنا أحاول أن أفلت جسدي النحيل من تحت جثته الضخمة. حاول أن يقبلني ففدفته ببصقة أصابت وجهه مباشرة.. مسح البصقة، وأخذ يعبث بيديه في جسدي وهو يقول:

- سوف أثبت لك من الرجل الآن.. أنا أكثر رجولة من عشيقك المختنث.

صرخت وأنا أقاومه بكلتا يدي.. حاول تمزيق الثوب الذي أرتديه وقبل أن يحشر وجهه القذر بين ثدييي العاريين تلقى ضربة على رأسه مباشرة من عصا أحد شباب الفدائية الذي كان يحرسني من بعيد ففقد وعيه في الحال وسالت الدماء من جبهته.

نهضت واقفة وركلته بقدمي بعد أن أعطاني الشاب كوفيته لأتدثر بها. وصحبني معه إلى رام الله لألحق بأهلي قبل السفر.

كان هو نفس الملامح نفس القسوة نفس الإصرار عرفته رغم الثلاثين عاماً التي حفرت آثارها على وجهه إنه الكلب رافي جدعون. لقد ثقلت موازين الرتبة على كتفه وأصبح ضابطاً كبيراً هو ومن كان يقف على المعبر.. هل رآني؟ هل عرفني أم أنه تظاهر بعدم النظر إلى عيني؟

ماذا حدث لى؟ هل عدت إلى هذا المغتصب بإرادتى؟ لقد جلبت الهم إلى نفسى مرة أخرى، كيف لى أن أنسى عندما حاول أن يغتصبنى انتقاماً من عدنان؟ كنت فى طريقى للقدس وراء عدنان الذى خلصنى أحد أصدقائه من شباب الفدائية من بين أيدى هذا الحيوان بعد أن ضربه على رأسه وأنقذ آخر قطعة ملابس كانت تستر شرفى قبل أن ينتهكه هذا الوضيع.

ترى هل وجد عدنان طيلة هذه السنوات؟ هل قبض عليه.. هل عذبه.. هل مات عدنان أم أنه ما زال حياً يرزق؟

أين أنت يا توءم روحى لكى تحمينى من ذل الاغتصاب بعد كل هذه السنوات؟

أنا أعود إليك ببيضاء من غير سوء طاهرة لم يمسنى إنس ولا جان.

(٤٦) الفخ

عاد رافى يجر أذيال الخيبة إلى مقر عمله القديم بالقدس، لم يقوَ حتى على الرجوع إلى رام الله ليعيد حقيبة ملابسه. لقد كان شىء من اليقين فى داخله يؤكد أنه على حق وأن هذا الجنرال الغبى لا يعرف شيئاً.

لقد أحس أنه اقترب جداً من القبض على الصياد، كما أنه لم يتمكن من كبح جماح مشاعره نحو عزيزة، لم يتخيل أنها وشت به عند عدنان كما لم يتخيل أنه لن يراها ثانية.

كيف ينهار هذا المخطط من أساسه إلى هذا الحد؟ لقد نجح فى اختراق هؤلاء العرب إلى الحد الذى جعله يصلى صلاتهم ويأكل طعامهم وكان يحلم أن يتزوج من بناتهم.

آه لو مات هذا العدنان إنه من سبب كل ذلك، هو العقبة التى تقف بينى وبين عزيزة، أكيد أنه هو الذى وشى بى عند أهالى رام الله.

لن أترك ثأرى معك أيها الصياد، لن أترك ما حييت.

لن أترك هذا الجنرال الأحمق يحطم مستقبلى لا بد لى من استخدام الخطة البديلة. سوف أدخل رام الله متتكرراً، وأراقب عزيزة والمقهى طيلة النهار والليل حتى يظهر الصياد وأقتله وأخطف عزيزة. لن أترك تهنأ بها وحدك يا بائع الجرائد.

فى تلك اللحظات كان عدنان يسير قدماً فى خطته المضادة. لقد طلب أن يرى عزيزة حتى يودعها لأنه لن يتمكن من البقاء فى رام الله هذه الأيام، بعد أن انكشف أمره أمام الإسرائيلية.

اختبأ فى دار الصالح مع باقى الشباب لمدة يومين حتى يتمكنوا من التسلل ليلأ خارج رام الله.

عكف الشباب على دراسة الخطة حتى يتمكنوا من الإيقاع بالإسرائيلية فى الفخ، كان هدف عدنان هو قتل أبو حسين تحديداً لأنه تأكد من شكه فى أمره. كانت الخطة ببساطة كما شرحها لهم عدنان أن تحضر لهم عزيزة الطعام عند الجبل.. سوف يراقبها الإسرائيلية حتى تصل إلى هناك.. أذهب إليها أنا وعندما يهم الجنود الإسرائيلية بالقبض علينا.. يأخذ كل منكم مكانه فوق التلة العالية وتقوصوا عليهم من كل مكان قبل ما يوصلوا إلنا.

كانت هذه الخطة التى اتفق عليها الشباب لتنفيذها بعدها يغادرون رام الله لبضعة أشهر حتى تهدأ الأوضاع.

ظل رافى يراقب دار الزهار طيلة اليوم دون أن يرى عزيزة. فقد كانت تدعى المرض لذلك لم تخرج فى ذلك اليوم.. كانت تنتظر الإشارة المتفق عليها من عدنان، لقد طلب منها ألا تخرج من الدار مطلقاً هذه الأيام لأن الإسرائيلية سيكونون لها بالمرصاد كانت الإشارة أن يرسل لها عدنان أحد الصبية الصغار بورقة مكتوب عليها مكان ووقت المقابلة المنتظرة قبل خروجه من رام الله.

ظلت عزيزة تنتظر حتى أكلها القلق والتوتر على عدنان دون أن تحصل منه على الإشارة المرتقبة، حتى جاءت الفرصة مع سالم ابن العم خليل بائع الخضراوات الذى ترك الورقة المرتقبة فى إحدى لفافات الخضار بالمطبخ.

قامت عزيزة بسرعة تفحص اللفافات وتبحث بين قطع الخضراوات عن الإشارة حتى وجدت الورقة وشكرت سالم، لكنها فوجئت بكلمة لم

تفهم مغزاها: المضيضة.

كانت المضيضة هى تلك الغرفة التى يستقبل فيها أبى رفاقته للحديث فى أحوال الناس وحل الخلافات والسمر، وكان لها باب خارجى من الناحية الأخرى من البيت لا يعرفه إلا معتادو المضيضة من أصدقاء أبى.

إلا أنها تظل مغلقة طيلة فترة النهار لا يدخلها أحد واعتادت عزيزة أن تذهب للمضيضة بعد صلاة الظهر لتنظفها وترتيبها حتى تصبح جاهزة لاستقبال الضيوف. هنا أدركت عزيزة المعنى وذهبت على الفور إلى المضيضة لتنظفها مستغلة فرصة ذهاب الرجال لصلاة الجمعة وانشغال الأم فى أعمال المطبخ.

وبعد قليل من بدء عملية التنظيف سمعت نقرأ خفيفاً على باب المضيضة ففتحت الباب على الفور، لتجد أمامها عدنان بشحمه ولحمه. أدخلته مسرعة وأغلقت الباب قبل أن يراها مخلوق.

احتضنها عدنان وقبلها قبل أن تترك ساعديه بسرعة خشية أن تسمعها أمها فى الداخل.

- جيت أودعك.

- باعرف.

- ما باغيب عنك كثير.

- أخاف ما باشوفك مرة ثانية.

- لا تخافى يا حبيبتى المرة الجاية باجيبك مهرك.

- هذا اللي بدى إياه يا عدنان بس خايفة.
- من شو.
- يقبضوا عليك الإسرائيلىة وتدشرنى.
- لا تخافى.
- على وين بدك تروح؟
- ع القدس.
- وكيف بدك ترجع لهون؟
- أول ما الأحوال تهدى هون؟
- كيف بدى عيش من غيرك؟ أنا بدى فل معك من هون.
- لا يا عزيزة هيدا ما بيصير الحين.
- ليش؟
- أهلك شو بيقولوا بهالشغلة، أنا بدى أرجع وأخطبك منهم.
- حقيقى هالحكى يا عدنان؟
- إى حقيقى.
- بعد قديش؟
- قريب جدًا بس باحتاج وقت منشان أدبر حالى.

- ليش ما أجى معك ع القدس.. اخطبنى من أهلى الحين.

- ما بيصير. أهلك ما فيهم يقبلوا يزوجوا بنتهم من بيع جرايد.

بكت عزيزة قبل أن تتعلق برقبته ويمطر وجهها بالقبلات.

- أنا لازم أفل الحين.

- خليك معى شوى.

- ما فى وقت.

- دير بالك ع حالك لا تخلى قلقى عليك يقتلنى.

- ما تخافى يا حبيبتى انا عم برجع وأتزوجك.

- عن جد حبيبى؟

- عن جد حبيبتى.

- دخيلك ما تغيب.

خرج عدنان من المضيفة وكان فى يده عباءة عزيزة، طلبها منها لتذكره بها، ومضى مسرعاً حتى لا يراه أحد. كان يعلم بالضرورة أن أبو حسين فى مكان ما يراقب دار الزهار ويحلم برؤية عزيزة تخرج من البيت.

ظل رافى واقفاً بمثابة وصبر غربيين أمام بيت الزهار مراقباً الباب كلما فُتح معلناً دخول أحد أهل البيت أو خروجهم، ولا أثر لعزيزة.

إلا أنه عندما حانت اللحظة الموعودة طبقًا للخطة تنبه رافى إلى أن بعض أصدقاء الشيخ الزهار يدورون حول البيت فتبعهم فى حرص تام على ألا يكشفوا أمره، حتى أبصرهم يدخلون من باب المضيفة الذى لم يكن يعلم بأمره. هنا تنبه رافى للخديعة لا بد أن عزيزة قد خرجت لمقابلة عدنان من الخلف من المضيفة.

ألقى رافى بنفسه داخل إحدى سيارات الأجرة وطلب منه الذهاب لمنطقة الجبل على جناح السرعة.

على طول الطريق أخذ رافى يبصر تلك البيوت العربية على الجبال والخضرة الممتدة التى تكسو سفوح الجبال والتى تحيلها إلى جنة خضراء وتمنى أن يأتى ذلك اليوم الذى يدخل فيه جيش الدفاع إلى رام الله.

كان رافى يخلق مع سيارة الأجرة المسرعة، تهفو نفسه التواقعة إلى لقاء عزيزة قبل أن يخطفها هذا العدنان منه. أدرك أن مجرد عرض صورة عزيزة فى ذاكرته يلهب نفسه ووجدانه ويثير غرائزه، تمنى أن يشاهد ساقىها اللذين طالما استمنى على إعادة بث صورتيهما فى خياله، عندما كان يقصر فى فستانها فيتخيل بياض فخذيها واستدارة إليتها، عندها كان يقذف مباشرة.

الآن يستدعى الصورة كاملة مثلما تعود حتى انتصب قضيبه فعلاً. ماذا ألم بك يا رافى لا بد أننى أفرطت فى احتساء النبيذ من الزجاجاة التى ظلت فى يدي طيلة ساعات الانتظار الطويلة على باب الزهار بلا جدوى.

يصل أخيراً إلى الجبل يختلط فى الزحام بين الناس حتى يذوب تماماً منتظراً الإشارة التى اتفق عليها مع بعض المستوطنين المسلحين فى

إحدى الكيوتز القريبة، الذين كانوا كالذئاب الجائعة لالتهام كبد الصياد الذى قتل العديد من أهلهم.

أبصر عزيزة على مرمى البصر تقف تحت شجرة زيتون تنتظر عدنان.. لم يستطع كبح جماح رغبته المستعرة، وذهب إليها. كان متأكدًا أن المسلحين المختبئين فى أماكن متفرقة يؤمنون ظهره إذا ما ظهر عدنان فى المشهد.

حاول أن يتودد إليها، لكنها لم تنبس ببنت شفة، ظلت صامتة تستمع بإصغاء وتدلل إلى كلماته المعسولة التى كان بارعًا فى إلقائها على مسامع النساء.

- أعلم أنك تحبين عدنان ولكنه سيتركك ويذهب يومًا ما.. إن عدنان لم يخلق للحب، إنه مشغول بالفدائيين وقريبًا سوف تسمعين خبر القبض عليه لأنه لا يقدر قيمة هذه النعمة التى وهبته إياها. إن امرأة فى مثل جمالك إن وهبت قلبها لرجل فلا ينبغى له أن ينشغل عنها بأى شىء آخر حتى ولو كان حب الوطن.

مرت الدقائق متسارعة دون أن يظهر عدنان أو أى من الفدائيين، حتى شعر أصدقاء رافى بالقلق وهموا بالنزول من مواقع المراقبة إلا أن رافى أشار لهم من بعيد ألا يفعلوا.

وعندما لاحظ أن عدنان تأخر عن الموعد المحدد، وأن عزيزة بإيماءات من جسدها تستجيب بطريقة ما لكلماته الساحرة تشجع وحاول أن يلمس يدها المختبئة، وأخذ يهمس بكلمات حميمة فى أذنها.

هنا رفض عدنان عباءة عزيزة من فوق كتفيه فظهر وجهه مباشرة أمام رافى الذى أفقده المفاجأة القدرة على تحريك أى عضلة من جسده

حتى لسانه. فباغته عدنان بقبضة أدمت جبهته أتبعها بغرس ركبته بين فخذيه، أفقدته وعيه بل ربما قدرته على التناسل، فانهار على الأرض يصرخ من شدة الألم.

هنا أطلق عدنان ساقيه للريح ليختبئ في مكان آمن، بينما أطلق أحد أصدقاء رافى طلقة أصابت كتف عدنان قبل أن يختبئ وراء تلة صغيرة. وانطلقوا ناحية رافى لنجدته الذي لم يتمكن من فرط الألم والمفاجأة من أن ينهاهم عن ذلك حيث إن هذه الشجرة كانت الفخ الذي نصبه عدنان والفدائيين لأبو حسين ورفاقه الذين أصبحوا هدفًا سهلاً للشباب الذين امتطى كل منهم بارودته وأطلق منها وابلًا من الرصاص على المستوطنين الذين لم ينجُ منهم أحد غير رافى، الذي كان قد أدرك قبلهم الفخ الذي وقع فيه وهرب من المكان باحثًا عن عدنان الذي ركض فارًا بنفسه خارج رام الله لمقابلة الشباب عند أول الطريق للقدس.

في صباح ذلك اليوم الاثنين الخامس من يونيو دخلت القوات الإسرائيلية رام الله معلنة إدخالها بالقوة ضمن حدود الدولة الصهيونية التوسعية.

لم تتمكن الفرحة التي طربت لها قلوب الشباب بعد نجاح الفخ الذي نصبوه لرافى من أن يزيل الحسرة التي أصابتهم بمجرد سماعهم الخبر الذي تناقلته كل ذرات الهواء، واغتم له كل الشعب العربى.

إلا أن عدنان ورفاقه كانوا قد عاهدوا أنفسهم على التضحية بحياتهم لإنقاذ القدس من الوقوع فى أيدي الصهاينة.

(٤٧) الحلم الأمريكى

كان الطريق إلى القاهرة مفروشًا بالورود، شعرت بأن سيارة التاكسى تطير لا تكاد عجلاتها تلمس أرض الطريق، تثب بى نحو المستقبل.. شعرت أن الجنود الذين اصطفوا على جانبى الطريق جاءوا خصيصاً لتوديعى.

بعد قليل عرفت من السائق أن موكب الرئيس سوف يمر من الجهة المقابلة عائداً من أمريكا.. الرئيس قال كلمة مصر فى الأمم المتحدة محذراً من الإرهاب.. قال إن بعض دول الغرب تأوى الإرهابيين، وإنه يجب على كل دول العالم مواجهة هذه الظاهرة حتى لا تستفحل ويدفع العالم كله الثمن غالياً.. قالها الرئيس كأنه يهدد شخصاً وهمياً. الرئيس يعود من الأمم المتحدة وأنا سوف أسير أمام مبناها الزجاجى بعد ساعات معدودة. يجلس فيه أمينها العام المصرى الدكتور بطرس غالى.. ترى هل يتسنى لى أن أقابله.. لقد حضرت له محاضرة فى الجامعة عن سياسة أمريكا فى المنطقة كان ينتقد سياسة الكيل بمكيالين.

تبقى لى لحظات قبل أن أغادر مصر نهائياً سوف أذهب للحرية سوف أعيش الحلم الأمريكى.. لا يهم أن أعمل فى أحد المقاهى أو على عربة شطائر أو سائق ليموزين ما دمت سوف أدرس فى جامعة كولومبيا العريقة. سوف أحصل على الدكتوراة وأقوم بالتدريس فى نفس الجامعة جنباً إلى جنب مع الدكتور جلال.. عرّابى فى هذه الحياة والوحيد الذى يفك شفراتى ويسبر أغوار شخصيتى.

ما هذا الحلم الذى يتحقق.. الوداع يا مصر الحبيبة. كنت أتمنى ألا أبرح ترابك ما حبيت لكنى موعود ببدء الحرية التى أتوق إليها منذ نعومة أظفارى.

دخل السائق من بوابة المطار وتوقف أمام صالة السفر.. تأكدت من وجود الباسبور والتذكرة فى جيبى.. أعطيته عشرين جنيهاً قبل أن يناولنى الحقيبة. التى لم تكن ثقيلة لكنى شعرت بوطأة ثقلها المحمل بالذكريات والسنين.

ها أنا أحمل وطنى على ظهري وأرحل إلى الدنيا الجديدة التى تفتح أمامى.

قرأت إحدى الشاشات المعلقة فى صالة السفر.. موعد وصول وإقلاع طائرة نيويورك الحبيبة، التى شبهتها ببراق يأخذنى فى رحلة إسراء ومعراج نحو سدره منتهى الحرية.

طلب منى الضابط أوراقى ووزن الحقيبة.. اندهش من خفة وزنها.. أعطانى الباسبور بعد أن طبع عليه الختم المصرى.

جلست فى صالة الانتظار وحولى زملائى من ركاب الرحلة المباركة، كم تمنيت أن أتعرف وأسلم عليهم فرداً فرداً، إلا أن شيئاً ما جعلنى أجدق فى الساعة المعلقة على الحائط التى كانت تشير إلى أنه لم يعد يباعد بينى وبين الحلم الأمريكى إلا ساعتان.

جلس بجوارى شاب توحى ملابسه بأنه سبقنى إلى الحلم الأمريكى.. يرتدى جينزاً مقطوعاً من الركبة وقميصاً مفتوحاً تحته تى شيرت طبعت عليه صورة تمثال الحرية.. يعقص شعره الطويل قطعة قماش تزهو بألوان العلم الأمريكى يلفها على جبهته كما يفعل بعض لاعبي التنس.

سألته إن كانت هذه هى أول مرة يسافر فيها إلى الولايات.

أخرج سماعة الهيدفون من أذنيه والتي كانت تصدر عنها موسيقى
صاخبة وقال:

- لا هذه رابع مرة.

- هل تعمل هناك؟

- نعم أعمل على عربة هوت دوج.

- كم قضيت فى أمريكا؟

- أربع سنوات!

- بعد أربع سنوات وما زلت تعمل على عربة هوت دوج؟!!

أقلت منى السؤال بسذاجة دون أن أراعى مشاعره، فقد تخيلت لى
مستقبلاً مختلفاً هناك. فبعد أربع سنوات سوف أصبح مدرساً فى
الجامعة حاصلاً على الدكتوراة.. فاعتذرت له.

- أبدأ لا عليك أتمنى لك حظاً موفقاً فى الولايات.

ثم أعاد الهيدفون إلى أذنيه معلناً انتهاء حديثنا المقتضب.

قضيت الساعتين بالكامل أتأمل الركاب الذين سوف يشاركوننى فى
الرحلة: رجل متألق بصحبة فتاة جميلة وحقيبة أوراق.. لا بد أنه رجل
أعمال. سيدة سمراء ممتلئة ضخمة الجثة تعبت بمجلة أمريكية شهيرة.
شاب ملتج يرتدى ملابس رثة يقبض على مصحف ومسواك. عائلة
مصرية، أب يدخن غليوناً وأم محجبة وأبناء يتحدثون الإنجليزية ولكن
أمريكية ظاهرة.

لم أفهم ما يقولون فأخرجت كتاب المحادثة الأمريكية من جيبى وشغلت نفسى بحفظ بعض المواقف التى قد أتعرض لها فى أمريكا بدءاً من المطار، سائق التاكسى، المطعم، الفندق... وهكذا.

عندما سمعت نداء طائرة نيويورك أحسست أن كل الأنظار تتجه نحوى، شعرت أننى الراكب الوحيد الذى يسافر لأول مرة وسط هؤلاء المتمرسين فى السفر لأمريكا.. لماذا هم متجهمون هكذا؟! لماذا لا يشعرون مثلى بنفس قدر السعادة الذى يغمرنى وتعبر عنه بشكل واضح لغة جسدى المنطلقة وأنا أعبر بوابات المطار متجهاً نحو الأوتوبيس الذى سوف يقل الركاب إلى الطائرة.

كانت طائرة مصر للطيران الجامبو العملاقة تحتل فضاء المشهد بالكامل كأنها حصان طروادة.

صعدت سلم الطائرة وعند بابها قابلتني ابتسامة المضيضة.. فتاة رقيقة الملامح سمراء البشرة تضع القليل من المساحيق، كانت وجه مصر الذى تمنيت لوهلة أن أمطره بالقبلات لكنى تداركت نفسى واكتفيت باعتصار يدها بين يدي.

جلست على مقعدى بجوار النافذة لأرى القاهرة بأضوائها من أعلى، وبعد أن حل الظلام الدامس على مجال الرؤية أسندت رأسى إلى الخلف وغرقت فى سبات طويل.

رأيت أمى تناديني من بعيد وأنا أركض وراء الطائرة التى كانت قد بدأت تتحرك ببطء.

- أمى يجب أن ألحق بالطائرة!

- تعال إلى هنا لا تتركنى.

- أمى يجب أن ألحق بالطائرة!

- أنت ابن عاق.. لماذا تتركنى؟

- أنت تعرفين السبب.

- هل لأن أمل تركتك وذهبت مع معاذ.

- لا يا أمى ليس هذا فحسب.

- لماذا إذن؟!

بدأت الطائرة تسرع وأزيز محركها يزداد ضخيمًا ويغطي على صوت أمى لا أكاد أسمعه.. يا ربى ماذا أفعل؟

هل ألحق بالطائرة لتحقيق أحلامى أم أرجع لحضن سناء التى أشتاق لحضنها الدافئ؟

- أنا قادم إليك يا أمى أرجوكى لا تغضبى

حلقت الطائرة بعد أن غادرت عجالاتها الأرض مخترقة السماء مخلفة وراءها عاصفة من الضباب الذى أفقدنى مجال الرؤيا.

فتحت عينى لأجد المضيفة الحسنة تربت على كتفى.. جاء صوتها رقيقًا وهى تطلب منى ربط الحزام لأننا سوف نهبط بعد قليل فى مطار جون كيندى.

- حمد الله على السلامة.

خارج مطار جى إف كيندى كان الدكتور جلال ينتظرنى فى المكان المخصص لوقوف السيارات، هرعت إليه مسرعاً من أثر الاشتياق إنه عرابى ومرشدى فى هذه الحياة وكأخى الأكبر الذى لم أحظ به يوماً.

لفحت رياح نيويورك الباردة وجهى بدرجة برودة لم أعتدها من قبل.

- لماذا لم ترتدِ ملابس أثقل من ذلك؟ فدرجة الحرارة الآن صفر!

- لم أكن أتوقع تلك البرودة يا دكتور.

- اركب بسرعة أنا حاوصلك.

- تعبتك معايا يا دكتور.

- أبداً ما فيش حاجة.

بدأ الدكتور جلال يشرح لى معالم نيويورك كأنه مرشد سياحى متمرس:

تتكون نيويورك من ثلاث أحياء رئيسية هى منهاتن وبروكلين وكوينز. نحن الآن فى كوينز التى سوف تقيم فيها، وسوف تتركب الباص يومياً ليعبر بك جسر بروكلين هو ما يربط بين بروكلين ومنهاتن التى تقع فيها الجامعة.

- أريد أن أعثر على فندق رخيص أو شقة صغيرة يا دكتور.

ضحك الدكتور وهو يقول:

- شقة صغيرة.. هل تعتقد أنك ما زلت فى مصر؟

- لماذا؟!!

- هنا معظم الشقق هي عبارة عن كوندو صغير مكون من غرفة واحدة وقد يشاركك فيها زميل سكن.

- إلى هذا الحد!

- طبعًا.. أو ممكن زميلة سكن.

- إن كان كده أنا موافق (قلتها وأنا أضحك لكن الدكتور جلال لم يكن يمزح).

- لا تقلق لقد وجدت لك مكانًا مناسبًا في منطقة إستوريا هنا في كوينز، وبها الكثير من العرب والمطاعم العربية.

- شكرًا لك يا دكتور.

وصلنا إلى البناية وركن الدكتور سيارته في المكان المخصص ونزلنا من السيارة وفتح صندوقها الخلفى لكى يناولنى حقيبتى، وصعدنا ثلاثة أدوار قبل أن تفتح لنا باب الشقة فتاة آسيوية الملامح ترتدى تى شيرت وتنورة قصيرة جدًا تظهر بياض فخذيه.

عرفنى عليها الدكتور ثم انصرف.

- جوان زميلتك فى السكن.. من فيتنام.

لم أتمكن من النطق من هول المفاجأة إلا من بعض الإيماءات وهز الرأس بالموافقة لا أعلم على ماذا!

رحبت بى الفتاة بوجه بارد ثم بدأت تخبرنى بأهم الأشياء التى يجب مراعاتها، والتى تتعلق بالنظام والنظافة وما إلى ذلك.. هذه الثلاثة هنا نضع اللحوم فى الأعلى والخضراوات والفواكه بالأسفل والجبن واللبن هنا.

وهذا المطبخ الصغير، الشاى هنا والقهوة والسكر، وهذا التوستر.. لا يجب أن تترك أى أطعمة بالمطبخ.

ثم توجهت إلى الحمام وكان ضيقاً جداً وقالت:

- أهم شىء النظافة المستمرة وخصوصاً مكان الاستحمام.

لم أتضايق من حديثها عن النظافة أكيد أنها لا تقصد الإهانة.

ثم أشارت إلى السرير وقالت.

- سوف أنام أنا على السرير وأنت تنام على الأريكة حيث يمكن فردها وتحويلها إلى سرير فى المساء. الإيجار ٥٠٠ دولار، يمكن أن نتقاسمها سوياً، وبالنسبة للغذاء يمكن أن نقتسم الطعام إذا أحببت الطعام الآسيوى.

- من الممكن أن تحبى أنتِ الطعام المصرى.

لم تضحك وكانت جادة جداً فى إلقاء تعليماتها كقائد سرية يستقبل أحد الجنود الجدد. ثم قالت:

- بالنسبة ليوم الإجازة يمكن أن نقتسم الوقت.

لم أفهم كلامها فسألتها:

- لماذا نقتسم الوقت يا جوان؟

شعرت من ملامح وجهها أنني تسرعت في السؤال:

- أعنى أنه يمكنك أن تخبرني متى سوف تحضر صديقتك إلى هنا حتى أترك لك الكوندو.

- لا.. ليس عندي صديقة.

- سوف يصبح لديك.

- وأنت؟

- نعم أنا لى صديق يأتى إلى كل ليلة أحد.

لم أتمكن من استيعاب الصدمة الحضارية التى وضعنى فيها الدكتور جلال ومضى، فأنا الشاب الذى تربي على عدم الاختلاط فى المدرسة ومن ثقافة ما اجتمع رجل وامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما، فكيف له أن يتقبل بتلك البساطة أن يعيش مع فتاة لا يعرفها فى مسكن واحد وسيكون الشيطان ثالثهما لا محالة فتنورتها القصيرة لا توحى بأى احتشام.

(٤٨) جامعة كولومبيا

فى أول يوم دراسى توجهت إلى الجامعة مستقلاً الباص الذى عبر
بى جسر بروكلين، الذى يمر فوق نهر هدسون ويربط بين أحياء
نيويورك.. طاف بنا الباص فى شوارع منهاتن حتى وصلنا إلى جامعة
كولومبيا العريقة.

سألتنى الموظفة عن اسمى وطلبت منى بعض الأوراق قبل أن تدلنى
على جدول المحاضرات وأسماء الأساتذة الذين سوف أدرس عليهم لمدة
عامين، كذلك قائمة أسماء الكتب التى يجب على دارس الماجستير أن
يقرأها خلال الدراسة.

تسلمت مفتاح اللوكر الخاص بى ووضعت فيه بعض المتعلقات
وأحكمت غلقه جيداً، وسط ذهول أحد الطلاب الذى ترك باب اللوكر
الخاص به مفتوحاً ولم يغلقه مثلى.

وقد كانت محاضرة الدكتور جلال عن الأصولية الدينية هى بداية
الفصل الدراسى.

دخلت القاعة المخصصة للمحاضرة قبل الموعد بنصف ساعة كاملة
حتى ألحق مكاناً أمامياً كما كنا نفعل فى مصر إلا أنى فوجئت بالقاعة
خالية تماماً إلا من عشرة مقاعد لن تحتاج إلى الوصول مبكراً لحجز
أفضلها فكلها تقع فى مواجهة مباشرة مع المحاضر.

خرجت لأطلب بعض القهوة الأمريكية حتى تعيننى على التركيز.

فوجئت بها تقدم لى كوباً ورقياً مملوءاً بالقهوة وهى تسألنى:

- هل أنت مصرى مثل الدكتور جلال؟

- نعم.

- مددت يدي إليها وأنا أعرف نفسي.

- مرحباً بك في نيويورك أنا ليندا.

- أنت تدرسين الأصولية الدينية؟

- نعم أنا أحرص على حضور محاضرات الدكتور جلال لأننى أعدد رسالة ماجستير عن الجماعات الإسلامية المتطرفة.

طبعاً وبالثقافة الشرقية السخية عرضت عليها مساعدتها في بحثها بالعديد من المراجع التي جئت بها من مصر.

- هل هي مكتوبة بالإنجليزية؟

- للأسف معظمها بالعربية ولكن يمكن أن أترجم لك أجزاء منها.

لم تدرك ليندا ما الذى يدفع شخصاً تعرفت عليه للتو على عرض خدماته إلى هذا الحد الحاتمى.

شكرتني.. ساد الصمت بيننا قليلاً حتى انتهينا من رشقات القهوة.

كانت ليندا هي النموذج الأمثل للفتاة الأمريكية. ترتدى الجينز المقطوع من الركبة وبلوزة بيضاء بلا أكمام تكشف ذراعيها، مفتوحة عند ملتقى نهديهما بدقة توحى بما يختبئ في صدرها. تضع القليل من المساحيق.. تدخن سيجارة قليلة النيكوتين.

هذا هو الحلم الأمريكي بالنسبة للفتى القادم من الشرق البعيد الذى يلهث لالتهام تقاحة نيويورك.

شئ ما كان يبدو حزينًا فى عينيها لكنها كانت تحاول إظهاره بمرحها الزائد وضحكات الرنانة.

إنك تبلى أداءً حسنًا أيها القادم من الشرق.. زميلة سكن من فيتنام وزميلة دراسة من نيويورك فى أول يوم لك فى عاصمة العالم.

كانت الساعة تشير تمامًا إلى موعد المحاضرة دخلت من باب القاعة لأجد الدكتور جلال قد أخذ مكانه فى موقع المحاضر وبدأ يفتح حقيبته السامسونايت ليخرج أوراقه.. تقدمت منه وسلمت عليه.

رمقنى بنظرة ودودة وقال لى:

- ما هى أخبار الشقة؟ هل أعجبتك؟ ثم غمز لى بطريقة المصريين.

- نعم جيدة جدًا يا دكتور.

جلست ليندا إلى جوارى ثم تعاقب دخول باقى الزملاء.

شاب وسيم يعتنى كثيرًا بشعره المعقوص على شكل ذيل حصان جلس بجوار ليندا من الناحية الأخرى بعد أن تبادل معها قبلة سريعة.. أكيد أنه صديقها، لا بد أن خدمات ترجمة المراجع لن تشفع لى أمام وسامته الظاهرة.

شاب آخر طويل تشف ملامحه عن انتمائه للسكان الأصليين كنت أتخيل دائمًا أن الهنود الحمر يجب أن يضعوا ريشًا على رؤوسهم.

فتاة سمينية مقعدها المكتنزة والتي ظهر جزء كبير منها أثناء جلوسها من خلال تنورتها القصيرة ذكرتني بشيء عزيز علينا في الثقافة المصرية.

دخل رجل وامرأة أسمران يضرب الشعر الأبيض سواد شعريهما كأنهما زوجان، جلسا إلى جوار بعضهما البعض.

شاب يهودي متدين عرفته من قبعته التي حرص أن يثبتها على رأسه.

رجل يرتدى بدلة كاملة واضح عليه الوقار والأهمية معًا.

استهل الدكتور جلال المحاضرة بالتعارف.

- أود أن أتعرف على تخصصاتكم أولاً حتى نحدد جميعاً مسار المحاضرات والمنهج العلمى الذى سوف نستخدمه خلال الدراسة.

بدأ كل واحد من الحضور يعرف نفسه ويقول نبذة مختصرة عن مجال دراسته.

صديق ليندا اسمه ماكس ويدرس التطرف الإسلامى مثلها.. الشاب الهندى يدرس تاريخ الهنود الحمر واسمه هانك.

الفتاة السمينية اسمها ريتا وتدرس الأدب العربى والدراسات الشرقية.

الرجل الأسمر مسلم أمريكى واسمه مالك وزوجته سارة مسيحية ويدرسان الحضارة الإسلامية.

نواف الشاب الفلسطينى الإسرائيلى الجنسية ابن عم أمل الذى دخل

المحاضرة متأخرًا حاصل على دكتوراة فى علم النفس ويدرس سلوكيات التطرف الدينى.

واخيرًا الرجل الأنيق جورج يدرس علم مقارنة الأديان.

بدأ الدكتور جلال المحاضرة:

أحب أن أنطلق أيها السادة من الحدث الأبرز الذى طالعنا به الصحف فى الأسبوع الماضى وكان القبض على تيموثى مكفاى الشاب المتطرف الذى اعترف بتفجير المبنى الفيدرالى فى أوكلاهوما فى أبريل ١٩٩٥ الماضى.

وأرجو أن نتذكر سوياً ماذا حدث فى نفس هذا الشهر قبل عامين كاملين حتى نربط بين الأحداث ويصبح ذلك بداية لتفسير ظاهرة الإرهاب من ناحية والأصولية الدينية من زاوية أخرى.

من يتذكر أيها السادة ماذا حدث تحديدًا فى شهر أبريل ١٩٩٣؟

لم أكن أعرف الإجابة لا أنا ولا أى أحد بالقاعة غير ماكس الذى رفع يده وتحدث:

- تقصد حادثة تفجير مركز التجارة العالمى على يد متطرفين إسلاميين فى نيويورك.

- نعم يا سيد ماكس الحادثة التى ذكرتها وقام بها متطرفون إسلاميون كانت فى نفس العام ولكن فى شهر فبراير ١٩٩٣ وليست فى أبريل كما كان سؤالى.

تدخلت ليندا فى الحديث:

- هذا يضعنا فى نفس المعضلة.. الإرهاب الإسلامى هو القاعدة أما تيموثى مكفاى فهو استثناء.

- لا أعتقد أن كلامك دقيق يا ليندا.

طلب جورج أن يجيب على السؤال:

- نعم يا دكتور الحدث المقصود كان إحراق مجمع الديفيديين فى واكو فى إبريل ١٩٩٣.

- إجابة صحيحة سيد جورج. نعم يا سادة لقد اختار تيموثى مكفاى (الذى ينتمى لأحد التنظيمات الإنجيلية المتطرفة) ذكرى واقعة محددة لمجموعة من الأصوليين المسيحيين أحرقوا أنفسهم بعد محاصرة قوات الأمن للمجمع الذى يقيمون فيه ليقوم بالانتقام ممن تسبب فى قتلهم وهى الحكومة الفيدرالية. فقد كان مكفاى يعتبر أن الحكومة الفيدرالية منخرطة فى خطة شيطانية عالمية ضد خطة الرب لتأخير مجيء المسيح. ولكن هل يعرف أحدكم من هم الديفيديين؟

رفع جورج يده:

- نعم يا دكتور هم مجموعة كان يرأسها رجل دين يدعى هاوول كان يؤمن بأنه يجب تهيئة العالم للمجىء الثانى للمسيح وأن أتباعه سيبلغ عددهم ١٤٤ ألفًا كما جاء فى رؤيا يوحنا من أن هؤلاء هم فقط الناجون من معركة هرمجدون وأنهم سوف يحكمون العالم مع المسيح فى الألفية السعيدة أى لمدة ألف سنة سعيدة. وقد سمي نفسه ديفيد نسبة للنبي داود واختار أن تكون كنيته قورش نسبة للملك البابلى الذى خلص اليهود من الأسر فى فترة السبى البابلى.

- شكرًا لك هذا يكفى يا سيد جورج.. ممتاز. سوف أخبركم الآن لماذا حدث خلاف بين هذه المجموعة التى كانت ترى نفسها مخلصه العالم وبين الحكومة الفيدرالية حتى حدث الحصار للمجمع ومن ثم انتحارهم جميعًا. هنا تتشابه الأصولية المسيحية مع الإسلاميه فيما يعرف بمصطلح الحاكمية (إن الحكم إلا لله) وبناءً على أفكار المودودى وسيد قطب فإنهم كانوا يكفرون الدولة العلمانية الحديثه تمامًا مثلما يحدث هنا فى أمريكا. ديفيد قورش كان يدعو إلى حاكمية الرب ورفض الحكومة العلمانية الفيدرالية ومحاربتها لأنها تسمح بالإجهاض والمثلية الجنسية ولأن سياساتها العلمانية تفسد المجتمع وتؤخر مجيء المسيح. لذلك فإن تفجير مبنى أو كلاهما يدلنا على عقلية الأصولى الذى يؤمن بفكرة حاكمية الرب والتى تتمثل فى أفكار الجماعة الأصولية التى ينتمى إليها بشيوخها أو قساوسها فى مقابل الحكومة الكافرة كما كان يصفها سيد قطب أو ديفيد قورش لنجد أنفسنا فى النهاية أمام أشخاص مبرمجين آليًا على القتل تمامًا مثل تيموثى مكفاى أو عمر عبدالرحمن المسئول عن تفجيرات نيويورك ١٩٩٣.

سألت ليندا عن التشابه السلوكى بين ديفيد قورش وشكرى مصطفى زعيم جماعة التكفير والهجرة فى مصر فى السبعينيات وقالت لا بد أن الاثنين يجمعهما نفس الهوس الدينى الذى هيا لهما أنهما مخلصين بعثتهما لعناية الإلهية لتخليص البشر من الكفر والإلحاد.

تداخلت فى الحديث:

- أعتقد أن الفكرة تتشابه كثيرًا بين المخلص فى المسيحية أو المهدي المنتظر فى الإسلام مثلما كان شكرى مصطفى يعتقد فى نفسه.
- نعم شكرًا لكما أنت وليندا على هذا الربط الذى يأتى تمامًا فى محله.

هنا أشار الدكتور جلال إلى نواف ليرد عن استفسار ليندا من الناحية النفسية.

قام نواف بخجل واضح وتحدث بصوت منخفض:

- أعتقد أن الحالة النفسية لهؤلاء يختلط فيها الوهم المرضى بالبارانويا الذى يدفعهم للحقد ومحاولة الانتقام من الآخر المختلف عن معتقداتهم. فالمريض فى هذه الحالة يستمع إلى صوت داخلى يوهمه أنه يوحى إليه من الله، فتعلو الأنا فى داخله وتتضخم حتى يصدق أنه مبعوث العناية الإلهية لتخليص العالم من الشرور وتتفاوت هذه الحالة المرضية عند كل من ينتمى لمثل هذه الجماعات المتطرفة. فقد كان قورش يقول لأتباعه أنه الملاك المخلص الذى بعثه الله لخلاص البشرية ولتهيئة العالم لمجىء المسيح، وأنه سيكون على رأس المجموعة الصالحة أى التابعين له فى استقبال المسيح، وقد دعم مزاعمه بذكر عدد هذه الفئة الناجية من حرب هرمجدون حرب نهاية التاريخ التى ستنشب بين الأخيار والأشرار كما ورد فى رؤيا يوحنا. هنا تتطابق تسمية الفرقة الناجية بين المتطرفين فى الإسلام أو المسيحية لهذه الفئة من الناجين بدينهم من الكفر. من زاوية أخرى نجد شكرى مصطفى الإخوانى المنشق الذى أسس جماعة التكفير والهجرة فى مصر يعلن لأتباعه أنه المهدي المنتظر مما أتاح له أن يكفر الجميع خارج إطار جماعته بمن فيهم الجماعات الإسلامية الأخرى صاحبة نفس الفكر والتطرف بما فيها جماعة الإخوان المسلمين التى انشق عليها.

تدخل ماكس فى الحديث:

- لا يمكن الربط أبداً بين الأصولية الإسلامية وقتلها للمسيحيين على يد بن لادن وعمر عبدالرحمن وبعض الحالات الفردية لأشخاص مثل

مكفأى وقورش لا يقارن حجم الدمار الذى أحدثوه بالجرائم الإسلامية فى حق الشعب الأمريكى المسيحى على يد تنظيم القاعدة مثلاً.

أجابه الدكتور جلال:

- هنا تكمن المعضلة يا سيد ماكس بين السياسى والدينى.. أنت نفسك لم تتمكن من الفصل بين استهداف المسيحيين لديانتهم المختلفة أم لأنهم أمريكيون. ولا ننسى أن السياسة الأمريكية غير المحايدة فى الشرق الأوسط هى سبب سياسى مباشر لردود الفعل الإرهابية من قبل القاعدة وغيرها، وهنا قد يبدو الأمر سياسياً بالأساس ولا ينم على صراع دينى كما نتصور.

رفع هانك يده:

- أعتقد أن استخدام النصوص الدينية لتبرير بعض الأفعال السياسية هو نتيجة مباشرة للأصولية الدينية. وهنا يصبح المهاجرون الأوائل لأمريكا بعد حركة الإصلاح البروتستانتى فى أوروبا الذين فروا من اضطهاد الملك الإنجليزى جيمس الأول كأنهم يفرون من ظلم فرعون إلى أورشليم كما فعل العبرانيون تماماً. وتصبح بذلك أمريكا هى أرض الميعاد ويصبح قتل الهنـدى الأحمر كأنه قتل للكنعانى فى فلسطين كما ورد بالضبط فى تسميات العهد القديم، وهو ما يعد تبريراً دينياً لاحتلال أرض الغير وليس ذلك فحسب بل إبادة شعبها.

أكد الدكتور جلال على كلام هانك:

- نعم يا سيد هانك كلامك صحيح، ومثلما كانت أمريكا هى أرض الميعاد بالنسبة للمهاجرين الأوروبيين الفارين من الاضطهاد الدينى فى أوربا، كانت فلسطين أيضاً هى أرض الميعاد لليهود المضطهدين من

النازية وبنفس تسمية العهد القديم. ومع احتلال القدس عام ٦٧ يتضافر هنا الواقع العملى على الأرض مع النبوءة الدينية فيصبح احتلال القدس تهيئة لها للمجىء الثانى للمسيح حتى يحارب المسلمين والكفار فى معركة هر مجدون ويحكم العالم ألف سنة مع الفئة الناجية تحقيقاً لما ورد فى العهد القديم. ولا ننسى فى هذا الصدد مقولة الرئيس كارتر أمام الكنيست الإسرائيلى عندما قال: "لقد أقام كلاً من أمريكا وإسرائيل رواد مهاجرون.. ثم إننا نتقاسم معكم تراث التوراة (العهد القديم)"، وكذلك الرئيس ريجان الذى قال: "فى سفر حزقيال الرب سيأخذ أولاد إسرائيل من بين الوثنيين ويعودون جميعاً مرة ثانية إلى الأرض الموعودة.. لقد تحقق أخيراً وبعد ألفى عام ولأول مرة يبدو كل شىء فى مكانه فى انتظار هر مجدون".

هنا هم الدكتور جلال بإنهاء المحاضرة إلا أن الشاب اليهودى إيزاك طلب التعليق:

- أعتقد أنك لم تكن موضوعياً بهذا القياس يا دكتور.. فإسرائيل هى وحدها أرض الميعاد ولا توجد أرض ميعاد أخرى لا أمريكا ولا غيرها، وما تدعوه أنت نبوءة دينية أدعوه أنا حقيقة مطلقة. الماشيح سوف ينزل بالقدس ليحارب الكفار وينتصرون بالنهاية لأننا شعب الله المختار والدليل على ذلك أن هذا السيناريو فى طريقه للتحقق على أرض الواقع وليس مجرد أضغاث أحلام كما تزعم.

رد الدكتور جلال محاولاً تهدئة نبرة حادة خرجت منه رغماً عنه:

- سيد إيزاك نحن هنا فى مؤسسة علمية ولسنا فى معبد دينى نناقش فيه ما جاء فى الكتب المقدسة، فلنترك ذلك لرجال الدين أما هنا فنحن ندرس تأثير التفسير الحرفى للنصوص الدينية كمطية للسياسة، ولتحقيق

أغراض دنيوية وتأثير ذلك على المجتمع كنتيجة مباشرة للأصولية الدينية. شكرًا لكم جميعًا.. نلتقى المحاضرة القادمة.

(٤٨) العودة

لم تدرك أمل كنه ذلك الشعور الذى امتزج فى داخلها مع شعور الفرحة الطبيعى الذى تعيشه منذ أن وطأت قدمها أرض الوطن.

كانت تشرد كثيراً وتقلق أحياناً.. شعرت بالغربة فى أحيان أخرى.

ماذا ينقصها كى تكون سعيدة.. بيت زوجية ينم عن طراز راق من الحياة.. حديقة.. حمام سباحة.. أثاث فاخر.. خدم.. سيارة فاخرة، وكل ما تتمناه من التجهيزات الحديثة كمبيوتر وساتلايت.

إلا أن شيئاً ما يحول بينها وبين السعادة التى كانت تأملها مع معاذ الذى لم يعد ذلك الزوج المحب المتودد كما كان معها فى بداية علاقتهم فى القاهرة، لقد استولت عليه منذ وصوله إلى رام الله أعباء العمل فى الجريدة واجتماعات السلطة وأصبح يظهر كثيراً بالتليفزيون. شعرت أن شيئاً ما أصبح يحول بينهما، جعلها تستشعر الوحدة التى كانت تشعر بها عندما كانت تعيش فى القاهرة، أحست أنها أصبحت دمية من جديد بشكل مختلف هذه المرة.. الزوج المشغول حل مكان الأب المشغول. وجود الخدم لم يجعل معاذ يطالبها بشئ مما كان يطالبها به حازم. أصبحت مجرد سكرتيرة لمعاذ.. فى الجريدة تكتب مقالاته، وفى البيت تترين وترتدى أفضل الثياب حتى تلبى له الشكل المناسب الذى ينشده الصحفى الكبير أمام المجتمع فى الحفلات والزيارات.

هذا ما كانت أمل تمقته فى شخصية والدتها لقد تحولت إلى دكتورة سوسن أخرى. تسهر وتشرب وترقص مع زوجها أو مع غيره على سبيل مساقرة الحياة الاجتماعية الجديدة.. خلعت الحجاب..

ثم تعود معه إلى البيت فتكون رحلته اليومية التى تبدأ فى السابعة صباحًا وتنتهى بعد منتصف الليل بساعات قليلة كفيّلة بالقضاء على أى فكرة قد ترد على ذهنه عن الاستمتاع بحياته الزوجية.

وعندما كانت تأتّيه الرغبة رغماً عنه كان يعتذر عن أى اجتماعات ويطلب أمل فى مكتبه، يغلق الباب من الداخل يخلع ملابسه بالكامل ويشرب جرعة كبيرة من زجاجة الويسكى ثم يهجم على أمل، التى وإن فرحت بهذا الأداء الجنسى المثير فى بادئ الأمر والذى كان يختلف تماماً عن أداء حازم معها.. إلا أنها بدأت تسأم من ذلك فى المرات التالية.

وفى إحدى هذه المرات طرقت السكرتيرة الباب معلنة عن قدوم شخصية هامة لمقابلته عدة مرات قبل أن تفتح أمل لها الباب بعد أن حاولت بقدر المستطاع لملمة ملابسها المتناثرة فوق السجادة بعد أن لطختها قذفة منى غير مقصودة ضلّت طريقها بفعل الطرق المفاجئ على الباب. أخذ معاذ يرتدى ملابسه بسرعة وبعصبية أفقدته قدرته على ضبط النفس فظهر جلياً على وجهه أمام مضيفه ما كان يفعله قبل فتح الباب.

ومن وقتها رفضت أمل الاستمرار فى هذا الفعل القبيح وأصرت على عدم ممارسة الحب إلا فى منزل الزوجية، إلا أن معاذ لم يكن يستطيع أن يقاوم رغبته الجنسية المسعورة عندما تهاجمه فلا يستطيع تهدئتها حتى يذهب إلى البيت. لذا كان الحل الوحيد أمامه بعد قرار أمل بعدم الممارسة المكتبية أن يستبدل أمل بالسكرتيرة التى كانت تمارس معه نفس الفعل قبل زواجه من أمل. وهو ما كان يعلمه عنه معظم المحررين بالجريدة، إلا أن أمل ورغم علم الجميع ظلت حسنة النية ولم تلحظ مثل الآخرين ما كان يدور بين زوجها وبين سكرتيرته الحسناء.

لم تقوَ عزيزة على مفاتحة أمل بسر شرودها معظم الوقت والذي يوحى بعدم شعورها بالسعادة أو راحة البال التي كانت تقرأها في عينيها وهي تعد الحقائق في القاهرة استعدادًا للسفر إلى رام الله. الوطن العزيز كاسمها العصى الذي أصبح مباحًا في غفلة من الزمن.. لم تتخيل قط أن يستقبلها هذا الوطن بعد كل هذه السنوات ليذكرها بهذه الذكرى الأليمة التي ناضلت كثيرًا لكي تمحوها من شريط الذاكرة لكن هيهات.

لقد استعرضت هذا المشهد بمجرد أن شاهدت رافى عند المعبر كأنه حدث بالأمس.

لقد ظل مشهد الاغتصاب يعتصر روحها بأكثر مما كان رافى يعتصر جسدها تحت جثته الضخمة.

كانت تربط بين ذلك المشهد وبين المرة الأخيرة التي رأت فيها عدنان وهو يودعها بعينيها وهو في طريقه إلى المسجد الأقصى ليقف مع زملائه الفدائيين أمام الجنود الإسرائيليين قبل أن يندسوا المسجد، وهناك اختفى تمامًا عن الأنظار.

بعض الناس قالوا إنه استشهد وهو ينقذ الأطفال من الحريق عند حي المغاربة والبعض الآخر قال إنه حي يرزق ويعيش في القدس. وآخرون قالوا إنه ذهب إلى حيفا. وآخرون شاهدوه في رام الله...

كانت عزيزة تجلس وقت الغروب في حديقة المنزل تتأمل غياب الشمس كأنها شمسها هي.

لا تتكلم لا تحكى مثلما كانت في القاهرة كثيرة الكلام والحركة، حتى أن أمل سألتها في إحدى الليالي:

- إيش فيكى عمتى؟

أدارت عزيزة رأسها نحو أمل وهزت رأسها نافية أن يكون هناك شىء ما.

- هل تريدین أن نعود؟

- لوین یا بتی؟

- مصر.

- لا.. أنا بدى أموت هون.

- نحنا جينا هون من شان نعيش.. مش نموت.

- ما فى فرق یا أمل.

- طيب احكىنى متل ما كنا بمصر.

لم ترد عزيزة وغرقت فى سهادها وتأملاتها اللانهائية.

- انتى بتفكرى فى عدنان مو هيك؟

رجعت عزيزة برأسها للخلف كأنها تفاجأت من ذكر اسم عدنان، وردت:

- عدنان هو اللى بده يرجعنى للحياة.

- أنتى مش متأكدة إن كان ميت ولا حى؟

- إحساسى أنه حى يا أمل أنا شوفته.

- وين عمتى؟

- هون برام الله شوفته من بعيد لكنه اختفى بين الناس ما سمع صوتى.

- خلاص يا عمتى من بكرة بنبلش ندور عليه برام الله كلها.

ابتسمت عزيزة ابتسامة طفل جاءت أمه لتصحبه من المدرسة بعد انتهاء يوم دراسى عصبى:

- يا ريت يا بنتى.. مسير الحى يتلاقى مثل ما بنقول بمصر.

- إن شا الله بنلقاه يا عمتى ونرجعلك روحك من تانى.

خجلت عزيزة من نفسها لأنها أحست أنها بالغت فى ردة فعلها أمام أمل التى كانت تحاول جاهدة أن تخفى شيئاً ما يعكر صفو حياتها منذ أيام.

- وأنتى يا أمل ما لك؟ وين روحك المرحه؟ ليش ما أنتى سعيدة؟

- أبداً عمتى.

- بدك تخبى.. أستاذ معاذ مزعلك؟

- لا.. أنا ما باعرف.. أنا ما باشوفه بنوب.

- اصبرى يا حبيبتى الزلمة شغلته كثير.

- باعرف يا عمتى.. لكن بدى أحس أنى متزوجة.

- ليش هو ما بيقدر...

- لا يا عمتى ما هو قصدى هيك بس بدى يحكى معى.. نخرج..
نسهر من غير ما يكون عشاء عمل.

- إى يا بتى فهمت عليكى.. الصبر يا أمل الصبر والله بيوفق ويمشى
الحال.

(٥٠) الاعتراف

وقفت هيلين أمام أحد النوافذ الخشبية فى الكنيسة لتدلى باعترافها للقس جيمس الذى يختبئ وراء تلك النافذة لسماع اعترافات البشر كما تقضى طقوس الكنيسة. كانت نفسها تتوق للخلاص والتحرر من ذلك الإثم الذى يكبل روحها، لم تكن هيلين متدينة كزوجها الذى لم تمنعه مشاغله الجمّة من تقديس موعد ذهابه للكنيسة صباح كل أحد. لم تخش أن ينكشف أمرها ويفتضح سرها بقدر ما أرادت أن تزيع هذا الهم الجاثم على صدرها.

- سيدى القس جيمس أريد أن أعترف لك بخطيئتي وأرجو أن تصلى من أجلي حتى يسامحنى الرب: إننى أخون زوجى منذ ما يقرب من ثلاثين عاماً ولم أعد أطيق أن تلوثنى تلك الخيانة أكثر من ذلك. لقد حاولت أن أنهى هذه العلاقة الآثمة منذ بدايتها لكننى لم أتمكن لقد كان هناك شىء ما يدفعنى باتجاهه. هو الأقرب لى من زوجى رغم أنه صديقه بل كان إشبينه الذى سعى لزواجنا. سيدى القس أعرف أن وقع الصدمة عليك كبير لكنها الحقيقة التى لم أعد أخجل منها الآن. لقد أحسست أنها لم تعد سرّاً.. أشعر أن زوجى يعلم بها فى كل مرة ينام فيها معى... ينهض مسرعاً من الفراش بعد أن يقذف ما فى جعبته كأنه انتهى من الواجب الذى تحتّمه عليه كونه شريكاً فى هذه العلاقة. هل ما زلت تنصت إلى أيها القس أم أن بشاعة ما أحكيه قد لوثت طهارة روحك فعزفت عن الاستماع إلى خطيئتي.

- استمرى يا هيلين أنا اسمعك جيداً.

- شكراً لك سيدى.. لا بد أنك تسأل نفسك عن سبب الاعتراف فى هذا التوقيت بالذات.. هل لم أشعر بالذنب طيلة السنوات الماضية. لقد

شعرت بالندم كثيراً يا سيدي ولكن لم أكن لأقوى على الاعتراف أو على التخلي عن هذه العلاقة الآثمة. لقد كانت تعوضني دائماً عن عدم اكتراث زوجي الذي كان كثير السفر والاجتماعات ولا أراه تقريباً، أما عشيقى فكان دائماً الحزن الدافئ الذى أهرع إليه كلما احتجت لمن ينصت إلى بوحى المكثوم وأنىنى الصامت. صحيح أنه يهودى.. أعلم أنك قد تغضب منى لذلك ولكنك أنت نفسك أيها القس كنت دائماً تخبرنا عن مقولة المبجل جون كالفن عن أن اليهود هم شعب الله المختار الذى يجب أن نأكل فئات مائدتهم تماماً كالمرأة الكنعانية. ألم تقل ذلك يا قس؟!

- نعم قلته يا هيلين ولكن لم أقصد... عفواً أكملى لا أريد مقاطعتك الآن أثناء الاعتراف.

- نعم أيها القس لقد كان هذا اليهودى أقرب إلى من زوجى بل ومن أهلى جميعاً.. كان يحترم عقلى ويستمع إلى دائماً وينصحنى بأن أكون زوجة مطيعة لصديقه، هل يمكن لأحد على وجه الأرض أن يصدق ذلك.. هل تصدقه أنت يا جيمس. عشيق ينصح عشيقته ألا تغضب زوجها الذى هو صديق. هو بالنسبة لى كل شىء حياتى كلها معه هو من يحتوينى فى هذه الحياة أما زوجى فهو مجرد رجل يسدد فواتير المنزل. هل أنا مخطئة يا قس؟ هل يحكم على الرب أن أعيش مع شخص لا يعرفنى ولا يهتم بى مطلقاً وأن أترك من أحببت ومن تهفو روحى للخضوع تحت قدميه لمجرد أنها خيانة؟ لقد جئتكم فقط حتى تنصحنى ماذا أفعل فى هذه المعضلة التاريخية؟ بماذا تنصحنى أيها القس الطيب الذى تعرفنى وتعرف زوجى؟! بماذا تنصحنى وقد بدأت أشعر أن ابنى الوحيد قد بدأ يشعر بعلاقتى مع صديق والده؟ هل يمكن لابنى أن يفهم هذه العلاقة بشكل صحيح دون أن يتهمنى بالخيانة؟ صحيح أنه لا يحب أباه ولكنه لن يفهم. كيف لى أن أحميه هو نفسه من رغبة أبيه فى زواجه من إحدى بنات أصدقائه الأثرياء لمجرد أنها

مسيحية بيضاء وأن يترك تلك الفتاة الفيتنامية التى يحبها منذ أكثر من خمس سنوات، أليس هذا خطأ أيها القس؟ أليس من الممكن أن يخون ابني تلك الزوجة البيضاء بعد ذلك لأنه لا يحبها ويكرر مأساة أمه مع أبيه؟ الدين هو ما يدفعنا للخيانة يا جيمس.. ماذا سيحدث إذا أحببت أنا يهوديًا أو حتى مسلمًا وأحب ابني فتاة فيتنامية أو أفريقية.. ماذا سوف يحدث؟ هل سينهار العالم هل سيتعطل يوم الديومومة.. هل سيعتذر المسيح عن العودة الثانية؟! أعلم أنك سوف تغضب منى كثيرًا على ما أقول ولكن أفهم أنك تعرف مشكلتي جيدًا يا قس. وأعلم كذلك أنك الوحيد الذى من الممكن أن ينصحنى، هل يمكنك أن تجد لى شيئًا فى الدين يجعلنى طاهرة بريئة؟

- هل انتهيت يا هيلين؟

- نعم يا جيمس.

- أنت تعلمين يا هيلين أن هذه الدنيا ليست هى غايتنا ولا مبتغانا.. فالرب خلقنا فيها لكى يختبرنا فقط وليعلم من منا يستحق أن يكون مع المسيح فى الحياة الأبدية.. حياة الخلود.. ألف سنة سعيدة.. هذا ما يأمرنا به الرب فهو لم يخلقنا لنكون سعداء فى حياتنا الأولى إنها مجرد حياة للاختبار. لذلك لا تغضبى من أنك تعيشين مع زوج لا يهتم بك فهذا قدرك الذى كفله لك الرب لكى تستحقى أن تكونى مع المسيح. قد تكون نظرتك سلبية بعض الشيء للسيد ويليام باعتباره زوجًا غير متفهم أو مهتم بحياته الزوجية ولكن الذى لا تعلمينه أن الرب قد اختاره هو وأمثاله لخدمة الرب والكتاب المقدس، إن خدماته الجمة التى يقدمها للكنيسة لا توصف، كما أن دوره السياسى المساند لدولة إسرائيل لا ينكره إلا جاهل. ألا تعلمين أن القدس هى مكان عودة المسيح؟! ألا تعلمين أننا نتشارك مع اليهود فى إرث التوراة؟! أما الصديق الوفى

السيد جولدمان الذى تتهمينه بالخيانة رغم أنه يهتم بزوجة صديقه ليس إلا. إن الرب يحبك يا هيلين لأنه جعلك همزة الوصل بين هذين الرجلين المخلصين للمسيح، فلا تخشى شيئاً، إن الرب إختارك لهذا الدور فلا تحزنى لأنك من المؤمنين الذين يجهزون العالم لعودة المسيح. كما أرجو أن تحافظى مخلصاً على ابنك وتحمى عرقه ودمه الغالى من التلوث بدماء الكفار. باركك الرب يا هيلين.. تصحبك السلامة.

(٥١) قندهار ٢

بعد أن خرجا معاً لصلاة الفجر فى المسجد الكبير بمدينة قندهار، سار حازم منتشياً من الفيض الإلهى الذى يغمر القلوب المؤمنة بعد صلاة الفجر وإلى جواره الشيخ خالد الذى تعرف عليه منذ أيام.

كان خالد يحاول أن يكمل الحديث الذى كان محور درس اليوم عن المسيح الدجال وكيف أنه سوف يضلل المسلمين فى آخر الزمان، وقتها لن يعرفه إلا كل من عرف قلبه الهداية إلى نور الله.

- فلتعلم يا أخى أن الساعة قادمة لا ريب فيها وعلامات الساعة الكبرى بدأت فى التحقق لذا فلنستبشر يا أخى بأن وعد الله قريب وأنه سبحانه يعد عباده المؤمنين لهذه اللحظة الموعودة التى تمثل الفرقة الناجية ننتظر فيها بعث السيد المسيح عليه وعلى نبيينا الصلاة والسلام لكى يقتل المسيح الدجال. والمهم أن يجعلنا الله ممن يقرأون كلمة كافر على جبهة الدجال حتى لا تقع فى الفتنة.

- بارك الله فيك يا شيخ خالد.

الشيخ خالد يهوى قيادة الطائرات ودائماً يخبرنا عن أهمية الطائرات للانتصار فى أى معركة، لذلك كان ينصح الشباب بالسفر لأوروبا وأمريكا لتعلم قيادة الطائرات. لقد تعرفت عليه وتوطدت العلاقة بيننا منذ أن عدنا إلى أفغانستان بعد خروجنا كما تعلم من السودان بعد الضغوط التى تعرضت لها الحكومة السودانية حتى تطرد الشيخ أبو عبدالله.

كدت أنسى أن أخبرك بأننى قد قابلت المهندس حسن فى الخرطوم

قبل أن نخرج منها إلى أفغانستان، لقد جاء ليقابل الشيخ أسامة وقد اصطحبني معه إلى اليمن لتوصيل بعض الأموال للإخوة هناك. ثم ذهب ليقدم دعم الشيخ أسامة للمركز الإسلامي في ميونخ ومسجد القدس في هامبورج.

لقد تعرفت على شباب ينطبق عليهم قول الحق تعالى "إنهم فتية آمنوا بربهم" منهم المهندس محمد عطا، وهو شخص مهذب جدًا ويدرس في هامبورج للحصول على الدكتوراة مثلك ولكن في الهندسة المعمارية وآخرين يدرسون الطيران عملاً بنصيحة الشيخ خالد، كزياد جراح اللباني الجنسية ومروان الشحي من الإمارات، ممن يقيمون معه هناك في شقة أطلقوا عليها دار الأنصار أسوة بالسلف الصالح ويشاركهم في السكن شاب يمني فتح الله عليه هو الأخ رمزي بن الشيبية، وهو ما جعله يستحوذ على ثقة الشيخ أسامة الذي يرسل معه الأموال لدعم هؤلاء الشباب في دراستهم وأنشطتهم بالمركز الإسلامي في هامبورج.

لقد فتح الله علينا يا أخي كثيرًا فقد وصل شباب المجاهدين إلى الفلبين وكونًا جماعة هناك يقودها الأمير أبو سيف بنفسه لنشر الإسلام وتعاليمه السمحة في هذه الدولة الفقيرة المنكوبة. وهناك إخوة آخرون ذهبوا لتحرير الشيشان والبوسنة. الإسلام قادم يا أخي لا محالة ولا ريب في ذلك. كما أسسنا بقيادة أميرنا أبو حفص المصري محمد مكاوي، وهو ضابط سابق فصله الطغاة من الجيش المصري، ٣ معسكرات للتدريب في اليمن سماها الشيخ أسامة طلائع الفتح لكي تكون نواة للعمليات التي تتم ضد الكفار في الصومال وشرق أفريقيا ومصر والسودان والسعودية من بعدها إن شاء الله.

إنني الآن يا أخي الحبيب على أتم الاستعداد، بلهفة ما بعدها لهفة،

لنيل الشهادة فى أى معركة أخوضها لحماية الأرض الإسلامية فى
السودان والصومال أو اليمن، لعلى أروى بدمائى زهور الإسلام الياغة
فى كل أرض أخطو عليها بقدمى.

(٥٢) ليندا

فى المحاضرة الثانية كنت آخر الواصلين حييت الجميع بمن فيهم الدكتور جلال وجلست بجوار ليندا. سرت رعشة فى جسدى عندما أطالت فترة ترك يدها فى يدى لعلها تعنى شيئاً.. كانت تحقق فى مباشرة وتبتسم ابتسامة مشجعة.. هل تحاول أن تخبرنى بأنها ليست صديقة ماكس.

بدأ الدكتور جلال:

- أود أن أشكركم على أوراق العمل التى تقدمتم بها، التى توضح الاتجاه البحثى لكل منكم ورؤيته فى دراسة موضوع الأصولية الدينية. ولعلى هنا أجد ما يشجعى على الحديث عن موضوع محاضرة اليوم وهى قضية الشرق الأوسط؛ وأقصد الصراع العربى الإسرائيلى على الأرض باعتباره صراعاً دينياً أصولياً وليس باعتباره صراعاً سياسياً.. فمن منكم يوافق أو يعترض على تلك الأطروحة؟

رفعت يدى وعلقت وأنا أقرأ من الملاحظات التى دونتها:

- أنا أتفق معك تماماً يا دكتور. فرغم العلمانية الظاهرة على نظام الحكم فى إسرائيل ورغم قلة عدد الأصوات التى تحصل عليها الأحزاب الدينية هناك إلا أن الفائز فى الانتخابات كان نيتنياهو المتشدد صاحب اللاءات الشهيرة التى منها لا لإعادة القدس باعتبارها عاصمة أبدية لإسرائيل. وهو وإن كان يأخذ منحى علمانياً يحافظ على توسعية الدولة العبرية إلا أنه لا يستطيع أن يفرط فى القدس لأسباب دينية بحتة.

رد ماكس بحدة:

- أعتقد أن ما طرحه الزميل يغفل بعض النقاط المهمة ومنها على سبيل المثال العمليات الإرهابية الانتحارية التي تقوم بها حماس وتقتل أطفال إسرائيل. كذلك إذا عدنا بالزمن قليلاً فسوف نتذكر قول الرئيس ناصر عندما أراد أن يرمى اليهود في البحر، فهل يعتقد الزميل أن إسرائيل فقط هي من تفسر ردود أفعالها على أساس ديني؟!!

هممت أن أجيب لكن نواف أشار بيده طالباً الرد:

- نعم يا سيد ماكس إذا كان بعض الفلسطينيين يقومون بذلك لأسباب دينية كحماس والجهاد فإن في إسرائيل أحزاباً دينية تدعو لقتل العرب وطردهم خارج إسرائيل كحزب شاس مثلاً، حتى الذين يحملون الجنسية الإسرائيلية مثلي يجب طردهم للحفاظ على النقاء اليهودي للدولة.

علقت ليندا على ذلك:

- أعتقد أنني أتفق إلى حد بعيد على أن الأسباب الدينية هي ما يحتل الصدارة في قضية الشرق الأوسط ولكن هذا لا ينفي علمانية إسرائيل بل وعلمانية السلطة الفلسطينية الجديدة، إلا أن هناك من الطرفين من يوجب الصراع الديني الذي يقاوم أى رغبة في الاتفاق أو التفاوض من أجل إيجاد حل للصراع.

هنا تحفز إيزاك وقال بصوت حماسي:

- إن الإرهاب الفلسطيني هو السبب الرئيسي في الصراع، إن قادة إسرائيل بمن فيهم نتتياهو كما ذكرت (أشار إليّ) يحاولون توفير الأمن للمواطن الإسرائيلي من الهجمات البربرية الممجية التي يقوم بها الإسلاميون.

هنا أثار النقاش حفيظة نواف ورد بعصبية على إيزاك:

- السيد إيزاك لم يشهد ما حدث في مذبحه قانا منذ عدة أشهر والتي كان الطيران الإسرائيلي يقصف الأطفال في معسكر تابع للأمم المتحدة! ألا يعبر ذلك عن همجية يا سيد إيزاك؟!

تدخلت في الحديث على الفور دون إذن:

- وماذا نسمى ما فعله المجرم جولدشتين عندما قتل المصلين في مسجد الخليل؟ وقتل وأصاب أكثر من مائة مصلٍّ.. هل هذه الجريمة لا تنطوى على همجية؟!

هنا حاول الدكتور جلال أن يهدئ الأجواء:

- أرجو يا سادة أن نعود إلى ضبط النفس قليلاً، وأن نتجاوز التعصب العرقي أو الديني فنحن هنا دارسون ولسنا سياسيين، كذلك أرجو عدم التعميم.

هدأت نبرة إيزاك قليلاً وهو يقول:

- أعتذر عن الحدة في الحديث وعن تعميم وصف الإرهابيين ولكن إن كان جولدشتين هذا مضطرباً نفسياً كما قال التقرير الطبى الخاص به فإن بعض الإسلاميين يفعلون نفس الفعل عن يقين وإرادة كاملة.

هنا علقت ريتا:

- إن التطرف هو التطرف في الجانبين سببه الأصولية التي يؤمن بها كل طرف إيماناً مطلقاً لا يقبل المناقشة حتى يصبح القتل في حالة جولدشتين أو أى انتحارى آخر من حماس تقرباً إلى الله.

- أوافق تمامًا على ما ذكرته ريتا هنا من أن الأصولية الدينية في الجانبين تلعب دورًا مهمًا في تأجيج الصراع رغم مفاوضات السلام أو جهود العلمانيين من الطرفين مثل جماعة السلام الآن وحزب ميرتس في إسرائيل أو جماعة كوبنهاجن. وهنا سوف نستعيد مفهوم صراع الحدود أو صراع الوجود الذي يسيطر على طبيعة صراع الشرق الأوسط. وهذا ما سوف يدفعني بالضرورة إلى استعادة ما تم ذكره في المحاضرة السابقة عن التفسير السياسى للنصوص الدينية فى الديانات السماوية وكيف جعلنا نرى الواقع السياسى على أنه تفسير مباشر للنبوءة الدينية، على الرغم من أن النص الدينى لم يحدد زمنًا محددًا لتحقيق هذه النبوءة. هل منكم من يستطيع أن يعطينا مثالاً لذلك.

رفع جورج يده وأجاب:

- القدس هى محور اهتمام الأديان السماوية الثلاث: اليهود يريدون إعادة بناء هيكل سليمان ويقدمون حائط المبكى، والمسيحيون ينتظرون عودة المسيح هناك، والمسلمون وعدهم القرآن بدخول المسجد الأقصى مرتين حدثت منهما مرة عندما دخلها وتسلم عمر بن الخطاب مفاتيح المدينة، وهم ينتظرون المرة الثانية مع أن المرة الثانية قد حدثت بالفعل عندما هزم صلاح الدين الأيوبي الصليبيين فى حطين.

أثنى الدكتور جلال على ثقافة جورج الرفيعة، وقال:

- نعم سواء كان جورج محققًا أو مخطئًا فإن المرة الثانية لدخول المسلمين القدس تظل غير محددة التاريخ هل حدثت أيام صلاح الدين أو حتى أيام محمد على أم أنها لم تحدث بعد. فالنتيجة واحدة، نحن لا نعرف بعد موعدها بدقة وهل لها علاقة بنهاية التاريخ كما فى النبوءة

علقت ريتا على ذلك:

- نفس الشيء يحدث فى نصوص العهد القديم كسفر حزقيال والعهد الجديد كرؤيا يوحنا فلا يوجد موعد محدد لموقعة هرمجدون أو عودة المسيح.

أضاف الدكتور جلال:

- هنا قد نلاحظ التشابه أو فلنسمه محاولة توحيد الرؤية بين المسيحية واليهودية، أو ما يطلق عليه تهويد المسيحية، وهو ما ظهر بعد مرحلة الإصلاح الدينى فى القرن السادس عشر وظهور البروتستانتية التطهيرية على يد مارتن لوتر التى وحدت بين الرؤيتين المسيحية واليهودية لحرب نهاية التاريخ. فقبل البروتستانتية كانت الكنيسة الكاثوليكية ترى أن الرب طرد اليهود من فلسطين إلى بابل عقاباً لهم على صلب المسيح. وكانت تعتقد أن النبوءات التى تتحدث عن العودة تشير إلى العودة من بابل وهو ما تحقق بالفعل على يد الإمبراطور الفارسى قورش الذى اعتبر أن القدس مدينة العهد الجديد للمسيحيين فقط وهذا يوضح الحملات الصليبية على القدس بعد ذلك. وهذا أيضاً يفسره طرد اليهود من إسبانيا فى القرن الخامس عشر والذين تحولوا إلى المسيحية عنوة وأطلق عليهم يهود المارانو. ولكن بعد ظهور البروتستانتية فى القرن السادس عشر ظهرت تفسيرات جديدة لسفر حزقيال وسفر رؤيا يوحنا تصور تحول اليهود إلى المسيحية وعودة ظهور القبائل الإسرائيلية المفقودة أثناء فترة السبى البابلى باعتبارها الخطوات الأخيرة لنهاية التاريخ ويصبح إعداد العالم لحرب هرمجدون واجباً مقدساً بعودة اليهود إلى أرض صهيون وإعادة بناء المعبد ثم

مجيء المسيح وحكم العالم ألف سنة سعيدة، رغم أن المسيح نفسه قال إن مملكتي ليست في هذا العالم.

علق ماكس قائلا:

- ولكن اسمح لي يا دكتور، إن هذا الفكر المسيحي يؤمن به نسبة كبيرة من سكان أمريكا ويستند على آيات صريحة ومحددة بالكتاب المقدس. وليس مجرد تفسير خاطئ كما حاولت أن تثبته في سردك التاريخي.. فموقعة هرمدون مذكورة بالنص في رؤيا يوحنا، كما أن عودة المسيح شيء لا يمكن الاختلاف عليه ليس في المسيحية فقط بل في الديانات الثلاث بما فيها الإسلام نفسه.. أليس كذلك يا دكتور؟ ألا تعتقد أنت كمسلم في ذلك؟!

قالها ماكس بشيء من التشفى ظهر في ابتسامته الصفراء للدكتور جلال الذي أجابه في حدة:

- لا أعتقد أن اعتقادي من عدمه يهكم في شيء يا سيد ماكس! فكما قلت لكم في المحاضرة السابقة لسنا هنا بصدد مناقشة نصوص دينية أو محاولات لاهوتية فلنترك ذلك لرجال الدين؛ نحن هنا نناقش فقط تأثير النص الديني الذي يختلف تأويله على الواقع السياسي والاجتماعي بالضرورة. ما أود أن أوضحه هنا يا سادة أنه عندما نكون بصدد نسبة كبيرة من المجتمع الأمريكي نعتقد هذا الاعتقاد كما ذكر زميلكم فإنه سوف يتحتم على أي رئيس أمريكي أن يعلن ولاءه الكامل لهذه الفئة بمجرد إعلان ترشحه للرئاسة، وهذا بالضبط ما نشهده من حديث المرشحين الدائم عن دعم إسرائيل والتأكيد على أن القدس عاصمة أبدية لإسرائيل وما إلى ذلك من خطابات سياسية لا يسردها المرشحون فقط أمام التجمعات اليهودية ولكن أيضاً أمام الشعب الأمريكي بكامله، وهذا

ما يفسر سياسة التحيز الأمريكية لإسرائيل والفيتو الذي تستخدمه أمريكا دائماً لإيقاف كل قرارات مجلس الأمن التي تدين إسرائيل. ناهيك عن وصول بعض الرؤساء الذين يعتقدون في هذا الاعتقاد كالرئيس كارتر والرئيس ريجان، كذلك ترشيح القس الإنجيلي بات روبرتسون مرشحاً رئاسياً عن الحزب الجمهوري عام ٨٨. هذا التحيز المطلق من الجانب الأمريكي لحماية إسرائيل هو ما يعطى الذرائع للمتطرفين الإسلاميين لارتكاب أفعال إرهابية ضد الغرب عموماً وضد المصالح الأمريكية على وجه الخصوص؛ لأنهم يعتقدون أن أمريكا شريك في الجرائم التي ترتكبها إسرائيل في حق العرب.

عندما خرجنا من المحاضرة لاحظت الطريقة التي يطوق بها ماكس ذراعه فوق خصر ليندا، وكانا يتهامسان ثم مضيا مسرعين.

سلمت على ريتا بحرارة وقالت إنها معجبة بما قلته في المحاضرة وتتفق معي تماماً في رؤيتها لتهمة دولة إسرائيل. وسألتني إن كان متاحاً لي بعض الوقت لاحتماء كوب من القهوة قبل موعد المحاضرة القادمة.

- يوجد مقهى قريب من هنا ويجلس فيه الكثير من الطلاب العرب ويمكن أن نتحدث عن شعر محمود درويش.

أجبتها: بكل سرور.

هنا كان نواف قادماً ناحيتي، فقلت لها: لقد جاء من سوف يحكي لك عن محمود درويش أفضل مني.

عزّتهما ببعض، واحتضنت نواف بعاطفة لم أفهم كنهها رغم أن هذه هي المرة الثانية التي أراه فيها. جلسنا على المقهى، سألتني نواف

عن أمل وعمه حسن ومصر.

- أمل تزوجت من فلسطيني يكبرها بعشرين عامًا اسمه معاذ من فتح وسافرت معه إلى رام الله.

- أمل هيدى بنت عنيدة بتعمل اللي بيجي ع راسها.

كنا نحاول أن نتحدث الإنجليزية قدر المستطاع مراعاة لشعور ريتا التي قالت:

- يا سادة تحدثو بما يحلو لكم أنا أحب أسمع اللغة العربية.

سالها نواف:

- هل قرأت قصائد ريتا تلك الفتاة الإسرائيلية المتخيلة التي كان يحبها محمود درويش.

- طبعًا قرأتها، هذه القصائد هي سر إعجابي به خصوصًا ذلك البيت الذي يقول لها فيه: "هل تعبرين النهر يا ريتا".

- نعم أعتقد أن عبور النهر وإن بدا سهلاً إلا أنه يحمل مشقة تاريخية تستعصى على العبور.

أكد نواف كلامي:

- أنا أعيش في حيفا وهي تعتبر نموذجًا يحتذى في التعايش بين العرب والإسرائيليين، لكن هناك حدود مع ذلك تحول دون التعايش الكامل بين الجانبين؛ فالجيرة والصدقة ومشاركة السكن من الممكن قبولها لكن عندما يتعلق الأمر بالحب والاختلاط تصبح الحياة أكثر

تعقيدًا.

فهمت ريتا تلك النظرة الحزينة التي ارتسمت على وجه نواف وهو ينهى حديثه:

- واضح أن السيد نواف له ريتا أيضا يحبها في إسرائيل.

أجاب بعد أن لمعت عيناه:

- نعم اسمها سارة، يهودية من أصل مغربي نشأنا سوياً بنفس الحى ونفس المدرسة. ورغم أنها من أصل عربى إلا أنه عندما بدأ والدها موشيه يعرف بتطور علاقتنا حتى بدأ التوتر يحدث بين عائلتين، وقاطعت والدتها أُمى بعد أن اعتادتنا تناول القهوة كل صباح.

ربت على كتف نواف متعاطفاً قبل أن يكمل:

- بعد ذلك أرسلها والدها للدراسة في فرنسا وجئت أنا هنا لنيويورك منذ أكثر من عشر سنوات، ولا أعرف إن كان مقدراً لى رؤيتها مرة أخرى.

- لا عليك يا صديقى هذا ما كان يحدثنا عنه الدكتور جلال منذ قليل.. الصراع الدينى أهم من السياسى، فنظرياً أنت أقرب إليها من اليهودى الغربى أو حتى اليهودى القادم من أوروبا الشرقية لأنها عربية مثلك، أما ما يحول بينكما فعلاً فهو الدين الذى يحرم زواجها من مسلم حتى لو كان إسرائيلياً.. أسف أقصد يحمل الجنسية الإسرائيلية.

تأثرت ريتا قليلاً:

- أنا أشفق عليك يا نواف وأتعاطف معك.

ثم طبعت قبلة على خده.. عندها شعرت بهذا الجانب الإنساني عند ريتا الذى يحدث بين البشر.

- أعتقد أن العرب شعوب ودودة وعاطفية مثلكم تماماً ولكنكم متعصبون قليلاً.

قالتها ريتا ثم اعتذرت بسرعة.

- لا يا ريتا لا يوجد تعصب.. التعميم خاطئ.. قد تجدين هنا فى نيويورك متعصبين بدرجة أكبر.

- أنا أعلم ذلك وهذا هو ما جعلنى أحب اللغة العربية وشعر درويش.

ثم أكملت محاولة تغيير الموضوع:

- وأنت يا سيدى أليس لك ريتا فى مصر؟

أجبتها بتسرع:

- لا ليس لى.. وأنت؟

- نعم كان لى حبيب.

- هل كان عربياً؟

- لا على العكس لم يكن يحب العرب، كان يرى الصورة النمطية للعربى كما صنعتها هوليوود تماماً: يقتل ويتزوج أربعة ويعامل المرأة معاملة مزرية.

- نحن أيضاً لا نحب الصورة النمطية للأمريكى كما تصوره

هوليوود الشرق عندنا.

- كيف؟

- كابوى وسكير يخون زوجته وتخونه.. يخرج مسدسه عند أى خلاف مهما كان بسيطاً.. عنصرى لا يحترم الجنسيات الأخرى.

- ياه كل هذا تكتمه فى قلبك!

- آسف لم أقصد.. ولكن الصورة النمطية للعربى أو الأمريكى أو حتى اليهودى البخيل هى محض هراء وتضليل وتحاول دائماً خلق نوع من الرأى العام الكاره والمتعصب عن صاحب هذه الصورة النمطية وهوليوود تجيد هذه الصناعة بشكل كبير.

اعتذر نواف لأن لديه موعداً وتركنا ومضى.

سألته مباحثاً:

- هل تعرفين ليندا؟

صمتت وهى تحقق فى عمق عينى:

- هل أحببتها؟

- لا ليس كذلك، إنما لاحظت أنك تعرفينها جيداً عندما ودعتها منذ قليل قبل أن تذهب مع ماكس.

- آه الصورة النمطية للعربى بدأت تنتضح الآن.. مغرم بالنساء الأجنبات ويعتبرهن نساء على المشاع لإرضاء نزواته الجنسية.

- ماذا تقولين؟ الموضوع مجرد حب استطلاع ليس إلا.

- أعرف. أنا فقط أمزح معك لا تغضب هكذا. أنا أعرف ليندا منذ الجامعة وأيضاً ماكس العلاقة بينهما قد تبدو حباً ولكنى أراها صراعاً.

- كيف هذا؟!

- ماكس يعتبر ليندا حقاً مكتسباً له، حتى لو خانها مع أخريات فإنه يحب أن يعود إليها على الفور.

- وهى هل ترضى بذلك؟!

- هذه المشكلة المعقدة بينهما.. فهى لا تحب هذا الإحساس بالتملك تريد أن تصبح حرة ولكنها محاصرة بين سندان تعلقها به وبين مطرقة تملكه لها.

ثم ضحكت وأردفت:

- تماماً مثلما هو تحكم أى زوج شرقى بامرأته.

- إلى هذا الحد.. على فكرة ليس كل زوج شرقى متحكم ويحب امتلاك زوجته.

- ها أنا أوقع بك فى الفخ من جديد إنها مجرد مزحة ليس إلا.

قالتها ريتا وهى تضحك ونهضت حاملة حقيبتها وانحنت قليلاً طابعة قبلة على خدى وقالت:

- موعد محاضرة الدكتور إدوارد سعيد.. هل تحب أن تأتى معى؟

- لا لدى بعض الأعمال على القيام بها.

ودعنتى ريتا وذهبت بينما كان يتوجب على أن أنهض مسرعاً حتى أتمكن من اللحاق بالمطعم المصرى الذى سوف أعمل به فى بروكلين، سوف أبدأ اليوم العمل فيه كغاسل صحن بعد أن تعرفت على صاحبه، وهو مصرى متزوج من أمريكية، بدأ مثلى كغاسل صحن منذ أكثر من عشرين عاماً. ورغم أنه تساهل معى كثيراً فى المواعيد عندما عرف بظروفي الدراسية إلا أنه كان شحيحاً جداً فى الأجر؛ كان يعطينى ٥ دولارات فى الساعة بالإضافة إلى وجبة غداء، وطبعاً كانت الوجبة التى يقصدها عبارة عن طبق فول بالزيت وقرصين من الفلافل التى كان الأمريكان والعرب هنا فى بروكلين يتهافتون عليها.

الفول والفلافل لن تتركنى أبداً تأتى خلفى حتى نيويورك.

الآن يمكننى أن أتدبر مصروفات الإيجار ووجبة غداء بالمطعم، أما الإفطار فكان تفاحة كبيرة هى شعار نيويورك بما أن التفاح فاكهة رخيصة فى أمريكا وكنت محروماً منها فى مصر فقد قررت أن تكون هى إفطارى اليومى.

من هذا العبقري الذى جعلها شعاراً لمدينة نيويورك.

إنها تفاحة آدم.. تفاحة المعصية التى ظنها تفاحة الخلود فأطاحت به من الجنة، هل أكرر أنا نفس المعصية وأحاول قضم التفاحة؟ لكم أشتهيها.. إنها بالنسبة لى كقطعة جبن معلقة داخل مصيدة أمام فأر لاهث لا يعبأ باصطياده.

بعد نهاية يوم العمل أذهب إلى المكتبة العامة أقضى بها عدة ساعات أنهل من الكتب التى تعيننى على موضوعات الدراسة، ثم أعود إلى

البيت لأنام ساعات قليلة قبل أن يبدأ يومى الجديد.

عند حافة نهر هدسون أبصرت من بعيد تمثال الحرية يقف شامخاً من بعيد فى جزيرته المنعزلة وسط المياه، تذكرت آخر لقطة فى فيلم إسكندرية ليه عندما نظر يوسف شاهين إلى التمثال عندما وصل نيويورك بإعجاب ثم تحول التمثال فجأة إلى غانية تضحك بابتذال لينتهى الفيلم على هذا المشهد.

بعد نهاية العمل أقف لتناول ساندويتش السوسيس الذى يمثل وجبة عشائى من سمير الفتى المصرى الذى يقف على عربة هوت دوج كغيره من المصريين الذين يعملون هنا. أخذت منه الساندويتش بعد أن ملأه بالكاتشب والبصل وودعته ومضيت مستشعراً دفئاً خاصاً أعاننى على برودة الجو الطاغية.

وصلت إلى المبنى وركبت السلالم حالماً بالاستلقاء على السرير حتى وصلت إلى باب الشقة عندما فتحت الباب فوجئت بجوان تجلس شبه عارية مع صديقها الأمريكى توم، عرفتني به دون أن تعبأ بعريها لا هى ولا هو.

كانت ترتدى بيبى دول قصيراً جداً أبيض شفافاً أظهر عريها بالكامل إلا من كيلوت أسود من نوع الجى سترينج عبارة عن فتلة نحيفة تستر فرجها من الأمام وتغوص من الخلف بين فلقتي إلتها التى لم أكن قد لمحت امتلاءها المحبب إلى نفسى من قبل.

سألتها إن كان يتوجب على أن أنصرف قليلاً حتى...

إلا أن توم قام من تلقاء نفسه كأنه وجد بمجيئى المفاجئ مبرراً ليتخلص من بقائه معها.

واضح أنهما كانا يتشاجران قبل قدومي، هذا ما لمحتة في عيني
جوان بعد انصرافه. كانت ساهمة تحقق في شيء غير محدد، تاركة
مجال الرؤية لى مفتوحاً للتمتع بجمال سيقانها العارية. ثم نظرت لى
فجأة، اعتقدت أنها رأتنى وأنا أهدق فى إلبتها.

- ماذا حدث هل أنت بخير؟

- لا أنا لست بخير.

كانت نبرة صوتها تدل على أنها أفرطت فى الشراب كثيراً.

نظرت إلى زجاجة الويسكى الفارغة وقلت:

- واضح أنك شربت كثيراً الآن.. يجب أن تتامى.

سألتنى:

- هل كل الرجال تجرى فى عروقهم دماء الخيانة؟

- لا ليس كل الرجال بالضرورة ماذا حدث.. هل توم...؟

- نعم أنا متأكدة أنه على علاقة بفتاة أخرى.

قالتها وهى تعدل من جلستها فخرج ثديها خارج الرداء قليلاً حتى
بانّت حلمته.

- احكى لى ماذا حدث؟

- لا أنت تبدو متعباً ولا شأن لك بمشاكلى.

تقدمت من الأريكة وجلست بجوارها واحتضنتها فانفجرت بالبكاء.

- لا عليك يا جوان هونى عليك.. احكى لى.

جففت من دموعها وهدأت من روعها قليلاً ثم قالت:

- إنه يستغلنى.. يعبث معى فقط، إننى مجرد ماكينة للجنس لهذا التوم المغرور ابن السيناتور ويليام.

حدقت نحو النافذة كأنها تخاطب شخصاً وهمياً:

- لقد كان أبى من أبطال حركة فيتنامية تدعى فيت منه أسسها البطل هوشى منه الذى هزم الفرنسيين فى منتصف الخمسينات وطردهم من فيتنام، وقتها صدر قرار من الأمم المتحدة بتوحيد فيتنام الشمالية والجنوبية فى دولة واحدة، وهذا القرار لم يعجب الأمريكان خوفاً من سيطرة فيتنام الشمالية الشيوعية المدعومة من الصين وروسيا على فيتنام الجنوبية.

- نعم قرأت عن تلك الفترة يا جوان، كان الأمريكان يخشون من سقوط دول جنوب شرق آسيا بنظرية الدومينو أى دولة تلو الأخرى فى براثن الشيوعية.

- نعم بالضبط أرسلت أمريكا خبراء (سياسيين ومخابرات) إلى فيتنام الجنوبية لدعم حكومة الجنوب بقيادة نجودين ديم الموالى لأمريكا للحيلولة دون هزيمته أمام قوات الثوار بزعامة هوشى منه. لذلك كان من الطبيعى أن نشاهد السيد ويليام والد توم فى بلادنا يخطط ويدبر للقضاء على الثوار، وقتها ترك أبى العمل الثورى وتركنا وانضم إلى المعبد البوذى من هول ما رآه من بشاعة الغارات الأمريكية والحكومة

ضد الثوار مثل استخدام النابالم ورش المبيدات والكيماويات المحرمة دولياً على الغابات الفيتنامية حيث كان يختبئ الثوار مما أدى للقضاء على الأخضر واليابس، وأصيب العديد من الأهالي بالتسمم ومات الآلاف من القصف الوحشي. فى هذه الأوقات مات أخى الصغير فى إحدى محاولاته لإنقاذ صديقه فى المدرسة أثناء إحدى الغارات على قريتنا بالطائرات أثناء هرولة أهل القرية إلى إحدى المخابئ القريبة. ساد الحزن القرية كلها، وقتها كنت أنا طفلة رضية عانت أمها كثيراً من البحث عن طعام حتى لا نتضور جوعاً. أمى نجوين تملكته روح ثورية قوية بعد فقدانها لأخى الذى سماه أبى على اسم البطل هوشى منه وبدأت أمى فى هذا الوقت تتصل بالثوار وترشدهم إلى الجنود الأمريكين حتى أصبح لها دور كبير فى المقاومة وبفضلها تمكن الثوار من أسر العديد من الجنود الأمريكان والعلماء والحصول على أسلحتهم. حتى وقع المحذور وتم القبض على أمى فى أحد شوارع القرية وهى توزع منشوراً يندد بالجريمة التى حدثت فى قرية مجاورة لنا تدعى لاي ماى قتل الأمريكان سكانها الخمسمائة بدم بارد... وضعوا أمى فى سجن رهيب فى جزيرة معزولة تدعى بولو كوندور مع مجموعة من الرفيقات اللاتى تعرضن لأشد أنواع العذاب مثل نزع الرموش والأظافر وتعليق المرأة عارية تماماً من رجليها وضربها بالسياط، كانت إحدى الناجيات من هذا العذاب هى من حكّت لنا ذلك. كانت تقول إنهم كانوا يضخون المياه فى أفواههم وأنوفهم بعد أن يخلطوا الماء بصلصة السمك الحريفة مما يؤدى لحدوث التهابات شديدة بالغشاء المخاطى، ناهيك عن الصعق بالكهرباء فى أماكن حساسة كالثديين والعانة... انهارت وهى تحكى لنا أن الضابط عندما فشل فى أن يحصل من أمى على أى معلومة عن الثوار وضعها فى زنزانة ضيقة لمدة أسبوع وأغرقها بالماء حتى لا تتمكن من النوم فكانت تنام وهى واقفة. ثم بعد انتهاء الأسبوع كانت أمى أقرب للهيكل العظمى وما زالت تصر على عدم الإقضاء بالأسرار حتى

أدخلوا إلى زنزانتها الضيقة حية سامة فتكت بجسد أمى تماماً فما كان من الضابط السادى إلى أن جرد أمى من ملابسها تماماً وأمسك برأس الأفعى ووضعها داخل الموضع الحساس من جسدها فلفظت أنفاسها الأخيرة.

بكت قليلاً ثم أكملت:

المهم.. أبى أصابه الذهول عندما علم بذلك وعاد إلى البيت وعاش فى سكون حتى يتمكن من رعايتى والحفاظ علىّ حتى لا أفارقه مثل أمى وأخى.

وفى إحدى الليالى الحالكة طرق السيد ويليام باب بيتنا فزعاً مذعوراً من الثوار الذين كانوا يطاردونه بعد أن جردوه من ملابسهم العسكرية، أحسن أبى استقباله رغم علمه أنه أمريكى عدو وعندما وصل الثوار إلى بيتنا وكانوا يريدون من أبى أن يسلمه إليهم، رحب بهم أبى وقد كانوا يجلونه كثيراً لعمله بالمعبد واحتراماً لذكرى زوجته. ثم نهرهم لرغبتهم فى الفتك بالجندى الأمريكى الأعزل الذى أمنه فى بيته وأخبرهم أن هذا الرجل طلب الأمان فى بيتى وأن من الواجب علينا أن نعطى الأمريكان درساً عن قيم الفيتناميين ومبادئ بوذا السامية.

اقتنع الثوار بكلام أبى واكتفوا بالحصول على سلاح الجندى الأمريكى ويليام الذى نام فى بيتنا حتى الصباح وشكر أبى على إنقاذ حياته، وطلب منه أن يزوره فى أمريكا فى أى وقت لكى يرد له الجميل. وتركنا ومضى.

وعندما هاجرنا أنا وأبى من فيتنام منذ ما يقرب من عشرين عاماً استضافنا السيناتور ويليام فى منزله حتى أمن عملاً لأبى فى مكتبه ثم انتقلنا للإقامة هنا فى كوينز حتى مات أبى وأنا فى الجامعة.

وعندما تخرجت فى الجامعة قدم لى السيناتور عملاً فى شركته وهناك التقيت أنا وتوم وبدأ الحب يتوغل فى قلوبنا. أنت تعرف بالتأكيد شعور أول قبلة وتلك المقدمات التى تقودنا بالضرورة لأول لقاء جنسى.

لقد رسم توم وشمه الخاص فى أحشائى على مدى خمس سنوات، حتى جاءت تلك الليلة السوداء التى رآنا فيها أحد الواشين عندها علم السيد ويليام أن ابنه الوحيد يعاشر فتاة فيتنامية حقيرة. عندها نسى السيناتور الجميل وكل ما فعله أبى من أجله وأرسل توم للعمل فى مكتبه بأوروبا.

يبدو أن السيناتور لم ينسَ عبر السنين تلك العقدة الفيتنامية التى أرقّت حياته.

كنت أعيش وحيدة عندما عاد توم مرة أخرى وبدأ يحاول التودد والتقرب منى من جديد وساعدنى فى الحصول على عمل دون علم والده، وفعلاً عشنا بعد ذلك سوية سنوات يحوطها الحب وتظللها الرومانسية.

قالتها وهى تتحنى بجسدها راقدة على بطنها غير عابئة بخيط الكيلوت الأسود الذى انحشر تماماً داخل إلتها كأنه لا وجود له حتى انتصب... الدم واقعاً فى عروقى.. ثم أكملت:

إلا أنه يعلم جيداً موقف أبيه وأمه من هذا الحب، أنا أشعر بذلك فى عينيه هو لا يستطيع أن يتركنى وكذلك لا يستطيع أن يترك فيضان حبه ليغمرنى.. إنه يرعانى فقط ليكفر عن ذنب أبيه، هو لا يريد بالطبع أن يجرمه أبوه كما هدده من قبل بحرمانه من أمواله إذا استمر فى علاقته بى.

منذ ذلك الحين وأنا ألحظ تغييرًا كبيرًا ألم به وأبعده عنى أشم رائحة امرأة أخرى تشاركنى فراشه، لقد نفذ تعليمات أبيه بالحرف الواحد صديقته الفيتنامية للمتعة فقط أما الزواج فموضوع آخر.

هل كتب علىّ أن أدفع ثمن هذا الصراع الذى دار منذ أكثر من ثلاثين عامًا بين السيناتور وبلدى؟ هل أنا من تسبب فى هذه العقدة التى أحالت حياة السيناتور إلى كابوس سوف يتذكره دائمًا عندما يرانى أنام فى أحضان ابنه؟ وإذا تركنى ماذا سوف يتبقى لى فى هذا البلد الذى كنت أظن أننى أنتمى إليه؟ هل أعود إلى بلدى؟ هل تعتقد أنهم سوف يرحبون بى بعد تلك السنوات؟!

عندها شعرت بأن مأساة البشر واحدة فى كل زمان ومكان.. احتضنتها وأنا أؤكد كلامها.

أفاقتنى دموعها من شهوتى المستعرة.. فحملتها إلى سريرها وفرشت الغطاء فوق جسدها العارى وذهبت إلى غرفتى واستسلمت لنوم عميق، حتى أننى لم أتمكن من خلع ملابسى ونمت مطلقًا العنان لأنفى لكى تشدو شخيرًا عنيفًا كأنها بوق يصرخ فى وجه هذا العالم الظالم.

(٥٣) ماكس

فى هذه الآونة من أيام نيويورك الماطرة كنت أحاول جاهداً تحقيق هذا التوازن المستحيل بين العمل والدراسة. التوازن..

وأنا التوازن بين ما يجب.. فى كل مأذنة حاوٍ ومغتصب.. يدعو لأندلس.. إن حوصرت حلبُ.

يأتى محمود درويش دائماً كقطعة سكر فى كوب القهوة الصباحى.

يوم العطلة هو ذلك المتعة المتجسدة التى يقدسها الأمريكى ويكرهها اليابانى ويحلم بها المصرى.

الأمطار تتساقط بنفس الرتابة على زجاج غائم.. أفرك عيني لعلى أحظى بخطوط من الرؤية.

جوان نائمة وباب غرفتها مفتوح على مصراعيه ساقها العارية تسلت من تحت الغطاء.

لماذا يتحكم بنا شيطان الجنس إلى هذه الدرجة؟ هل يمكن أن أنام معها اليوم؟ هل أكون بهذه الدرجة من الوضاعة أن أستغل بعدها عن ابن السيناتور واحتياجها للجنس لأروى ظمئى الطويل؟ وماذا يكون بعد ذلك هل يمكن أن نسمى ما بيننا علاقة؟

إننا كائنات متنافران لا يجمعهما شىء إلا شبق الرغبة الجامح الذى ينتابنى عندما أنظر إلى ساقها.

ترى هل ترتدى شيئاً أم أنها تنام عارية.. ماذا لو دخلت غرفتها

وأزحت الغطاء قليلاً.

ألم تخرج من الحمام عارية تماماً فى الإجازة يوم العطلة السابقة، ولم تلحظ وجودى حتى دخلت غرفتها ولم تغلقها وأكملت ارتداء ملابسها الداخلية أمام المرأة بعد أن جربت ارتداء أكثر من كيلوت حتى اختارت الأحمر القانى؟

لن أتمكن من التركيز فى دراستى وحياتى إذا ظللت أفكر فى هذا الهاجس لا بد أن تكون لى فتاة.

آه ليندا، إنها هذا التوهج الملهب الذى يفاجئنى عندما ألحظ نظرتها العميقة عندما تصوبها نحوى.. هل تقصدها.. هل ترسل لى إشارة؟ هل الأحاديث البسيطة التى دارت بيننا قبل المحاضرات عن همنجواى وماركيز ومحفوظ كفيلة بأن تبدد حائط الجليد الذى أحدثها من خلفه؟

ترى كيف ترى هذه الأمريكية المثقفة هذا الفتى القادم من بلاد الأهرامات؟ هل الحديث عن هؤلاء هو ما يجعلها ترانى بشكل أفضل وأرقى من هذا الماكس المغرور الذى يهتم بقصة شعره أكثر مما يهتم بها؟

أنا أشاركها الكينونة الكامنة فى داخلها.. عشقها للأدب والثقافة والفنون.. هى من تريد أن تثبت للجميع أن المجتمع الأمريكى هو بوتقة الصهر لكل الأجناس والثقافات.

هل هى بوتقة تفرق بين محتوياتها يا ليندا أم أنك تؤمنين بالتماثل الإنسانى وخصوصية الأعراق ووحدة البشر هذا ما يتحدث عنه تشومسكى؟

ألم نناقش سوياً كتاب هنتجتون عن صراع الحضارات عندما طلب منا دكتور جلال أن نقارن بينه وبين كتاب فوكوياما عن نهاية التاريخ؟

هل تؤمنين بكل ما يكتبه برنارد لويس عن العرب والإسلام؟ هل تعتقدين حقاً ردّاً على سؤالى أن فيما يكتبه شيء من الحقيقة؟

نعم أشاركك الرأى ولكن التعميم هو نقطة الضعف الكبرى التى يمكنها أن تدمر البحث العلمى، وهى الفيروس الذى إذا أصاب الباحث فإنه يهوى به إلى هاوية سحيقة من الجهل وعدم الدقة. إن تعميم النموذج المتطرف على الإسلام هو ما يحدث هذه الهوة بين عالمينا المختلفين بفعل النشأة الحضارية فقط وليس بسبب دين أو عرق.

ثم جاء ماكس بعدها وقطع الحوار بيننا بقوله أنتم العرب هكذا دائماً تدافعون عن أنفسكم على طول الخط..

ثم أخذها والإنصرف ولم أفهم ما يعنيه إلا بعدها بأيام عندما أحضر لى كتاباً لأحد الشيوخ الذين نسميهم معتدلين فى مصر وهو الشيخ عمر عبد الكافى، وقد كان فعلاً معتدلاً من وجهة نظرى حتى قرأت ما كتبه عن عدم جواز تهنة الأقباط فى أعيادهم. فهمت الآن ضحكته عندما تركنى ومضى ليلف ذراعه الممتلئة بالعصلات حول خصر ليندا وهو يحدثها فيما أتخيل عن انتصاره على مرة أخرى.

لم يكن ماكس يحب البحث العلمى ولا القراءة المتأنية للنصوص ولكنه كان فقط يتصيد الأخطاء ودائماً ما كان يعتمد فى أوراقه البحثية التى يعدها عن المقولات المجترأة وقصاصات الصحف التى توحى بما يريد إثباته. فهذا ما كان يقوله عمر عبدالرحمن عن أمريكا والغرب قبل تورطه فى تفجيرات نيويورك وهذا ما كان يقوله أسامة بن لادن قبل تفجير السفارات الأمريكية فى أفريقيا.

وعندما بدأ يلحظ أن ليندا تميل للحوار معى بدأ يتعمق أكثر فى أبحاثه حتى وصل إلى ما يقوله الشيوخ فى مصر عن حجاب المرأة وختان الإناث وعدم تهنئة الأقباط فى أعيادهم والفتح الإسلامى المرتقب للدول الغربية الكافرة، وقتها سوف يتم سبى النساء الغربيات وبيعهن فى الأسواق حتى يتم زيادة دخل الأمة الإسلامية، وذكر الشيخ دولة السويد على وجه التحديد كبداية للفتح الإسلامى.

صدم الجميع بمن فيهم أنا فلم أكن أتصور أن يقول ذلك أحد المشايخ حتى ولو كان من المتطرفين المغالين فى تطرفهم. كان ماكس يقول ذلك وقد غمرته سعادة غير عادية تحولت إلى نظرة من التنسفى، وهو يوزع ابتهساماته الصفراء بينى وبين ليندا التى كانت مشوشة تماماً كأنها ترثى لحالى.

كان الدكتور جلال دائماً يحاول الخروج من هذه المواقف بإعلانه أن التطرف الدينى موجود فى كل الديانات وأن هذه نماذج لا تعبر عن حقيقة الدين الإسلامى أو أخلاق العرب ولكنها نبت سرطانى نما فى الجسد العربى وجب التخلص منه. إلا أننى لم أعد أقتنع بهذه الحجة التى لم يعد يصدقها أحد.. نريد أن نكون أكثر دقة وأكثر علمية..

فلو أن ليندا الباحثة المثقفة اقتنعت بتلك الحجة التى سردها مراراً الدكتور جلال وغيره فلماذا ألحظ فى عينيها دائماً هذا الهاجس الذى يبعد عينيها عنى كلما حاولت الاقتراب منها؟

لماذا ماكس دائماً هو المنتصر مع أنها أقرب إلى من حيث تكوينها الفكرى والثقافى؟

هى من أعطتنى هذا الانطباع بإشادتها بما أقدمه دائماً من أوراق بحثية أو آراء شخصية تعبر عن رأى السياسى والاجتماعى أو حتى

الدينى.

الحل يا دكتور ليس الدفاع الدائم عن أنفسنا لقد عرف ماكس مشكلتنا نحن العرب وقذف بها فى وجهى دون أن أدرك، لا بد أن أغير الإستراتيجية يا دكتور.. لن أذاع عن نفسى مرة أخرى يا ماكس، لا بد أن أثبت لك يا ليندا أننى قادر على أن أفجر لغم الحقيقة كما قال أدونيس.

نعم سوف يكون الرد عليك يا ماكس فى الجولة القادمة.

مزقت كل الأوراق التى كتبتها ليلة الأمس عن الحوار بين الحضارات والأديان، وعن محاولة بعض الناشطين والباحثين من الغرب والشرق فى هذا الاتجاه وتأثير ذلك فى القضاء على الإرهاب. معك حق يا ماكس أكاد أن ألمح ضحكتك الشيطانية الخبيثة وأنا أقرأ مثل هذا العبث. سوف أعيد كتابة الورقة البحثية من جديد حتى أصفحك بها على وجهك المبتسم.

وعندما بدأت كتابة بحثى الجديد كان الغطاء قد انزاح تمامًا ليعلن عن جسد جوانا العارى تمامًا من كل سوء فنهضت مسرعًا لأغلق هذا الباب إلى الأبد وأعود لأغرق بين كتبى وأوراقى.

(٥٤) إستراتيجية جديدة

عندما دخل الدكتور جلال قاعة المحاضرات كان العدد مكتملاً لأول مرة منذ بداية هذه المحاضرات. المجال الآن مناسب تماماً لكى تصعد إلى المسرح وتقدم عرضاً شكسبيرياً مذهلاً يستحوذ على ألباب الجماهير.

طلب منى الدكتور أن أعرض عليهم البحث الذى كان مطلوباً منى إعداده عن حوار الحضارات كأطروحة مضادة لكتاب هنتنجتون عن صدام الحضارات.

وقفت فى مكانى وشكرت الدكتور ثم بدأت القراءة:

- لقد كان حريّاً بى أن يكون بحثى اليوم موجهاً فى هذا الموضوع الذى طرحه الدكتور ولكنى فضلت أن أبذل قليلاً فى ذلك، فكلنا يعرف أن محاولات التقريب بين الحضارات والشعوب قد باءت بالفشل بل والفشل الذريع فى بعض الأوقات، إنما كانت هذه التجارب أقرب لمناسبات اجتماعية لتبادل القبلات والمصافحات والعبارات الإنشائية ليس إلا. هل تعتقد يا دكتور أن تجارب من عينة مجموعة كوبنهاجن أو السلام الآن من الممكن أن تؤدى إلى شىء؟ هل تعتقدون أن هذه التجمعات الداعية للسلام يمكن أن تؤدى إلى تغيير ما بداخل نفس نيتنياهو أو بيريز؟ هل يمكن أن تجعل عرفات يقبل الصلح؟ هل يمكن لهذه الجهود أن تقارب بين الشيخ ياسين والحاخام كاهانا لكى يتبادلا أنخاب السلام فى يوم من الأيام؟! عرفات نفسه كان يقود منظمة التحرير عندما قام رجاله باختطاف الرياضيين الإسرائيليين العزل فى أولمبياد ميونخ عام ٧٢ وتسبب فى قتل أحدهم بعد ذلك عندما همت الشرطة الألمانية بتخليصهم.

هنا تهلل وجه ديفيد وماكس لوهلة قبل أن أكمل:

- ثم أليس شيمون بيريز كبير الحمايم هو المسئول عن ضرب الأطفال داخل مبنى الأمم المتحدة فى قانا؟

راحت الابتسامة تماماً من وجهيهما، بينما ضحكت ليندا بطريقة ساخرة شجعتنى كثيراً على الاستمرار:

- الموضوع هنا يا سادة ليس مواجهة أفكار الصدام بأفكار معلبة عن السلام والمحبة الزائفة. لا بد أن هناك خللاً وهو ما يسبب هذه الأفكار الصدامية، ولن يتم علاج ذلك إلا بالمواجهة والصراحة. فليحدثنا برنارد لويس مثلما يشاء عن الطبيعة العنيفة للعرب وميلهم الفطرى إلى العنف والقتال، وله أن يستطرد كثيراً فيما يؤيد ذلك من بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية عن العنف، لكنه لا يتحدث بنفس الطريقة عن عنف جماعات الكلوكس كلان والجماعات المتطرفة الأخرى فى الغرب مثل ميليشيات ميتشجان مثلاً التى انطلق منها مفجرو أوكلاهوما، وميليشيات أخرى تؤمن بتفوق الجنس الأبيض فى تكساس ومونتانا والتى تمارس العنف ضد المجتمع والحكومة الفيدرالية. لماذا لا يتحدث عن النازيين الجدد والمقاومة الآرية البيضاء والتحالف القومى وجماعات حلقى الرؤوس والعذارى البيض وما تفعله هذه الجماعات من عنف تبرره تماماً نصوص دينية من الكتاب المقدس من وجهة نظرهم؟ لماذا يحدثنا لويس عن اضطهاد الأقباط فى مصر ولا يحدثنا عن اضطهاد المصريين جميعاً مسلمين وأقباط كجزء من اضطهاد نظام مبارك الفاشى لشعبه والموالى للغرب؟ كذلك من حق هنتنجتون أن يقسم العالم إلى أديان وحضارات قابلة للتصادم مع الغرب وأن يضع على رأسها الخطر الإسلامى الأخضر، ولكن من حق دول العالم كلها أن تطلب تعويضاً مناسباً من الغرب عن الفترة الكولونيلية التى استعمرت فيها

الدول الغربية كل دول العالم تقريباً من جنوب شرق آسيا ومروراً
بأفريقيا وأمريكا اللاتينية. إن هذا هو السبب المباشر يا سيد هنتجتون
وليس اختلاف العرق والدين كما تدعى! إن الاستعمار هو ما خلف كل
هذا الحقد والكراهة الذى يتحدث عنه برنارد لويس كأنه بلا سبب حقيقى
جناه الغرب. كيف لشعب فى دولة صغيرة مثل تشيلى أن يحب أمريكا
بعد أن تدخلت ومولت الجنرال الدموى بينوشيه لينجح فى انقلابه
العسكرى على زعيمهم المحبوب الليندى عام ٧٣ لمجرد أن أفكاره
يسارية؟ وبما وهندوراس والفلبين وفيتنام والعراق وإيران وليبيا
وهايتى والصومال وكوبا، وتدخلات العم سام لا تنتهى لتغير إرادة تلك
الشعوب ووضع نظم قمعية موالية لأمريكا. هل يخفى على أحد استعمار
البرتغال ثم هولاندا لأندونيسيا وما تسبب عنه السيد الأبيض فى قتل
الملايين؟ ناهيك عن الاستعمار الإنجليزى والفرنسى لمعظم دول العالم
والجرائم التى ارتكبت فى حق الإنسانية.. ألم تتدخل أمريكا لإنجاح
الانقلاب العسكرى الذى قام به الشاه ضد حكومة مصدق المنتخبة فى
إيران عام ٥٣ لأنه طالب بتأميم بترول بلاده؟

هنا لاحظت أن ليندا بدأت تكتب بعض الملاحظات كأنها طالبة تتلقى
معلومات لم تكن تعرفها ثم ابتسمت لى ابتسامة جعلت لسانى يتحرر من
كل عقده وينطلق محلقاً:

- من دعم متمردي الكونترا ضد نظام الحكم فى نيكارجوا.. من الذى
أوحى لصدام حسين بدخول إيران وتسبب فى حرب أكلت الأخضر
واليابس.. ثم من أوحى له ثانية بدخول الكويت واحتلالها؟! من الذى
قتل الفلبينيين بزعم أنه يحررهم ويبشرهم بالديانة المسيحية؟ لقد ارتكب
الغرب كل هذه المآسى دون أن يكون هناك برنارد لويس شرقى يستطيع
التحليل والدحض وإلقاء المصطلحات. أليس السيد فوكوياما صاحب
اللقب اليابانى كما يظهر من كنيته مدركاً لما فعله هذا الغرب الذى

يفتخر بالانتماء إليه ببلاده الأصلية اليابان؟ ألا يذكر قنابل هيروشيما وناجازاكي؟ ألا يذكر الجنرال ماك آرثر وهو يجبر الإمبراطور الياباني على توقيع شروط الاستسلام المذلة لبلاده؟! إن إصرار أمريكا على تنفيذ القانون الأمريكي خارج حدود أمريكا ليعتبر من أهم مظاهر الكولونيالية والإمبريالية، فلنتأمل جميعاً ماذا يكون شعورك كمواطن في دولة صغيرة عندما يطبق الأمريكيان قانونهم الخاص على بلدك! حدث هذا كما ينص قانون بيرتون وهيلمز الذي استهدف تشديد الحصار على كوبا وقانون دمتاو الذي يفرض عقوبات اقتصادية على الشركات المتعاملة مع إيران وليبيا. إن هذا يا سادة ما يعبر عنه بالضبط بعض المتطرفين في بلادى عندما يقولون إن الغرب وأمريكا هي الإرهاب بعينه، فمثل هذه الممارسات الغربية على مر العصور التي قد تعود للحروب الصليبية هي ما رسخ داخل وجدان الشعوب العربية والإسلامية على سبيل المثال لا الحصر أن الرجل الأبيض ليس صديقاً دائماً وإنما جاء ليقُتل أو يسرق قوت الأطفال.

نظرت لماكس وأنا أقول:

- كيف يمكن لك أن تقنع بن لادن ومن على شاكلته أنه إرهابي ومتطرف ويقتل الأبرياء بينما أسلحتك في الجهة الأخرى تقتل أطفال فلسطين ولبنان والعراق بدم بارد؟ مع العلم أنك نفسك من استخدمت بن لادن ودعّمته بمليارات الدولارات قبل ذلك وكنت تصفه هو وزملاءه بمقاتلي الحرية على حد وصف الرئيس ريجان في حربك أنت ضد الروس؟ إن مفكرى السياسة الأمريكية بمن فيهم الثلاثة الذين ذكرتهم مطالبون بتفسير تلك الظاهرة؛ وأقصد بها التعاون مع بن لادن ثم إعلانه عدواً بعد ذلك والتي هي أقرب لسيناريو فيلم مثير للغثيان.

أغلقت أوراقى منهياً قراءة البحث قبل أن يتدخل الدكتور جلال:

- شكرًا لك أعتقد أنك وضحت وجهة نظرك تمامًا من خلال تلك الورقة البحثية. وقبل أن أطرح الموضوع للنقاش أود أن أوضح أنه يجب أيضًا عدم تجاهل ما أسميه أنا مجموعة ما بعد الاستشراق من أمثال الأساتذة جون إسبازيتو وليون هايدر وجرهام فولر وطبعًا نعوم تشومسكي وفنكلستين وروبرت فيسك، حيث إن لهم آراء معتدلة وموضوعية لا تعادى الديانات والأجناس الأخرى وتدعو إلى التفاهم والتعايش بين الثقافات. وأحب أن أشدد على أن الإسلام المتطرف لا يحارب الغرب لتفوقه أو لحدائثه كما ذكر برنارد لويس وإنما بسبب الظلم والكيل بمكيالين الذي يتجسد في العلاقة الخاصة مع إسرائيل، ولعل تجارب اقتصادية ناجحة وحادثة لدول إسلامية مثل تركيا وإندونيسيا وماليزيا هو ما يدحض أطروحة لويس وهنتجتون عن تأخر المسلمين عن الحداثة بالمطلق.

(٥٥) موعد غرامى

فى اللحظة التى قبلت فيها ليندا عند باب بيتها كما تقضى بذلك الطقوس الأمريكية كنتيجة إيجابية للموعد الغرامى الأول، أصابتنى لعنة أمل كما لو أنها أدركت أننى سوف أقبل فتاة أخرى. لم تعرف ليندا التى كانت الفرحة تثب من عينيها ما سر هذه القبة الباردة من جانبى قبل أن تدخل بيتها ملوحة لى بنظرة حائرة لم تدر معناها.

لقد استحضرتنى أمل رغم المسافات التى حالت بيننا.. كيف عرفت.. كيف غمرنى ذاك الشهاب اللحظى بنوره الساطع حتى تكسرت مسارات الرؤية فى عيني؟

لقد تم استدعاء صورة أمل على وجه ليندا فجأة ودون سابق إنذار. لا شك أننى ما زلت مريضاً بهذا الحب الذى لن أشفى منه ما حييت.

إن ثقافة ليندا ورقبها وجاذبيتها الطاغية لم تتمكن من أن تمحو خطوط وجه أمل المحفورة فى حنايا القلب.

أين أنت يا أمل الحياة لماذا تركتنى وحيداً؟ كيف الوصول إلى رحابك؟ لم يعد لى مهرب منك إلا إليك. أنت أقرب لى من حبل الوريد.. أنت الآن تحتلين قدس أقداس الروح. كيف تتكسر المسافات إلى هذا القرب فى دنيا الروح؟

هل كان على أن أظل معلقاً على صليبك مشدوداً بين عالمين.. معلقاً بين سموات رحيبة لا أكاد أبلغها وقدمائى مغروستان فى أرضك البكر لا أكاد أبرحها؟

هل هناك ما هو أبعد من أمريكا حتى أهرب منك إليها.. ألا لهذا

الهروب من منتهى؟

إنك قانون الجاذبية الذى أخضع لمعادلاته بإرادتى الحرة.

أما أن لهذا العذاب أن ينتهى.. إن ليندا تفتح لك ذراعيها كقارة جديدة شاءت الأقدار أن تكون شواطئها مرافئ لسفن كولومبوس المنهكة. هيا اكتشف كل هذا الجمال والنور.. ابحث بين حنايا جسدها عن سر هذا التآلق الذى يملأ عينيها. إنها ملاذك الأخير.. لقد أن لك من الآن أن تنسى أمل إلى الأبد.

أليست ليندا هذا الفتاة التى لم تعط شفتيها الاهتمام اللائق هى نفسها الفتاة التى تخطف أبصار وقلوب الرجال أينما غدت أو راحت تلاحقها العيون اللاهثة.

إنك لا تدرك ما وصلت إليه أيها العاشق الأسمر القادم من الشرق فى غزوتك العاطفية تلك. لقد انتصرت على غريمك الذى لم تكن تعنى له شيئاً على الإطلاق.. لقد هزمت هذا الطاووس المختال الذى خرق الأرض وبلغ الجبال طولاً. لقد جردته من سلطانه وسر تفوقه.. لقد غزت قلب حبيبته وتوغلت فى أراضيها الشاسعة كما تريد. فهل أن الأوان لتوزيع الغنائم؟ نعم لا مجال للتراجع الآن، لقد بدأت المعركة ولن يتركك ماكس تنجو بفعلتك مهما حدث، سيعيد لك انتقاماً يليق بك ولن ينسى مهما طال به الزمن، فى النهاية لا بد له أن ينتقم.

لقد ضرب آباؤه اليابان بالقنبلة الذرية بعد أربع سنوات انتقاماً لهزيمتهم فى بيرل هاربور.. إن الأمريكى لا ينسى هزيمته مهما طال به الزمن.

نعم لقد اختار كل منا طريقه والحياة هى محصلة هذه الاختيارات

التي نتعثر بها في طريقنا ولا نعلم أنها قد تقضى علينا ذات يوم.

أمل اختارت وليندا اختارت وبينهما أمور متشابهاة.. أنا وماكس سوف ندفع الثمن كلٌّ بطريقته.

إننى اليوم أغوص في أعماق الحقيقة، أبحث عن مكنونات الزمن وأحاول اللحاق بهذا القطار الجامح.. أحجز مقعدى في درجته الأولى بعد أن كان عصياً على أمثالى مجرد التشبث بذيله. إننى أصنع التاريخ الذى أهملنى كثيراً وترك لى مكاناً نانياً بين صفحاته الحديثة.

إن ليندا التي أتعبتها كثيراً نظرات الرجال لجسدها الغض هي التي تشتاق الآن لمعانى الحب السامية لتحلق بروحها إلى درجات السمو والتأمل والإنسانية.

لقد كان زوج أمها يعذبها بكى جسدها بالنار وهي صغيرة.. وعندما كبرت حاول اغتصابها أكثر من مرة.. مع عدم اكتراث أمها بذلك، حتى هربت من البيت لتعيش مع جدتها التي وجدت ليندا في صحبتها ما يعزيها عن وفاة أبيها البطل الذى مات فى فيتنام قبل خروج القوات الأمريكية منها منكسى الرؤوس. كذلك وجدت الجدة فى اعتنائها بليندا ما يثار لها من زوجة ابنها المارقة التي كان بينهما ما صنع الحداد. وهنا هيأت الجدة لحفيدتها كل وسائل الراحة والتعليم.. كانت تحثها على القراءة مثل أبيها الذى تم إلحاقه بالجيش رغباً عنه.

كانت تخبرها بأن أباهما كان يرفض الحرب لأنه كان يؤمن بالسلام بين الشعوب، كانت تقول أن من قتلوا ابنها ليسوا الفيتناميين ولكنهم القادة الأمريكيين الذين غصبوه على القتل.

كانت ليندا تحكى لى كل هذا فى موعدا الأول.. كيف كانت جدتها

تبكى وهى تشاهد مراسم توقيع اتفاقية السلام فى البيت الأبيض
والرئيس كارتر يقف بين السادات وبيجن.

- إنه السلام يا ابنتى الذى حلم به أبوك اليهودى الطيب.

قالتها وندمت كأنها كلمة أفلتت من بين شفيتها رغماً عنها.

- أبى كان يهودياً وأمى كاثوليكية، أما أنا فلا أؤمن بالأديان.

قالتها كأنها تنفى تهمة الدين عن نفسها أو الدين اليهودى على وجه
التحديد باعتبار أنها تواعد شاباً مسلماً.

قلت لها: لا عليك.. إننا جميعاً أبناء إبراهيم.

سألتنى إن كنت آخذ مسألة الدين على محمل الجد.

قلت: أنا أرى أن الدين هو ذلك النبع الروحى الذى يفيض على
الإنسان فى صحراء المادية القاحلة. إنه سكينة وسط الصخب.. إنه
راحة وسند لكل من تتخبطه الحياة اللاهثة. هو حالة خاصة لا يحق لأى
من كان الحديث عنها أو انتقادها. هذا هو الدين عندى؛ لذلك وهبت
حياتى لمحاربة من يعتبرون الدين وفقاً شخصياً لهم يتحدثون باسمه
ويكفرون الناس باسمه.

نظرت إلى ليندا بعمق ثم قالت:

- لم أكن أعلم أنك فيلسوف إلى هذا الحد!

- أبداً إنها مجرد رؤية للعالم تفسر العلاقة التى تحكمنا كبشر بالخالق
ولا تصل إلى حد الفلسفة.

- أظن أننا نتفق فى هذا المعنى عن الدين بالرغم من كونى ملحدة..
إلا أنني تربيت فى الدير مع أمى وفى المعبد مع أبى وعشت كل تلك
التجارب الروحية التى تتحدث عنها لكن تهت بين آيات الكتاب المقدس
بعهديه القديم والجديد ولم أعثر لروحى على الهداية. فأنا ذلك الخروف
الضال الذى لن يعود إلى القطيع أبدًا. أعتقد أن علينا تغيير الموضوع
أفضل.

- نعم أعتقد أن ذلك يكفى من الحديث عن الدين والفلسفة بالنسبة
للموعد الأول.

ضحكت من قلبها قبل أن تقول:

- نعم معك حق أنا آسفة.

- لا عليك.

- لقد تذكرت موعدى الأول مع بعض الرجال الذين واعدتهم وقد
كنت دائماً ما أشعر بسطحية أحاديثهم فأنهى اللقاء فوراً.

تغير وجهى قليلاً عندما ذكرت ذلك قبل أن أسألها:

- حتى مع ماكس؟

- نعم مع ماكس. هل تغار منه؟

- لا أبدًا.

تلعثمت قليلاً قبل أن أجيبها:

- بصراحة أنا أغار عليك من النسمات التي تداعب شعرك.

فما كان لهذه الجملة الشرقية جدًّا إلا أن حصلت منها على قبلة طائرة
أعادت إليّ توازنى المفقود.

(٥٦) حماس

الآن عرفت سبب زواجك بى! لم أكن أعلم أنك نذل إلى تلك الدرجة؟! كيف تطلب منى طلباً كهذا؟ هل تبتز أبى بى؟ كيف انخدعت بك لهذه الدرجة! لقد صدقتك ووثقت بك إلى أبعد مدى.. لقد عارضت أهلى وتزوجتك رغماً عنهم هل هذه كانت خطتك الحقيرة.

تزوجتني وأغريتني بالمجىء إلى بلدى لكى تستغلني وتستغل والدى.

آه يا أبى أنا أفهم الآن سر تلك النظرة التى رمقتني بها قبل أن أتزوج هذا الوغد، لقد كنت تعرف شيئاً أفصحت عنه عيناك دون أن يردده لسانك كم أنا آسفة يا أبى.

وأنت يا أمى إننى مدينة لك باعتذار لم أفهم دموعك التى ذرفتها يوم زواجى، كنت للأسف أشعر أنها دموع التماسيح محاولة منك لإثبات اهتمامك بعد طول إهمال، لم أكن أتصور أن الدكتورة سوسن حنت أخيراً! آسفة يا أمى لقد أدركت الآن أن دموعك كانت حقيقية.

حتى حازم اعتبرنى زوجة خاطئة لا أرقى أن أكون زوجته ذات الدين التى تصون دينه وعرضه ليسكن إليها. لماذا لم تعطينى تلك الفرصة يا حازم لكى أحسن من نفسى وأتعلم لأكون تلك الزوجة التى تريد؟ لم تصبر على، كانت تعزيتك الوحيدة هى الحور العين.. لقد قتلتها دون أدنى مراعاة لمشاعرى. زواج الدنيا ناقص أما الزواج الحقيقى فهو فى الآخرة.. ثم تركتني وركضت فى طريق الجهاد وراء سراب الحور، لو لم تفعل لما كنت وقعت فى شرك هذا الزواج التعس.

وأنت يا من تركتني ومضيت إلى نيويورك ألم تكن الصديق الأوفى

والأقرب بالنسبة لى فى هذه الدنيا كيف تركتتى دون نصيحة تسديها
إلى؟ كيف تركتتى أقلت من بين يديك؟! أنت أيضاً مثل أبى عيناك هما
من تحدثتا فى صمت، لقد أخبرتتى حقيقته كاملة وأنت تودعنى عندما
لمعت عيناك وحاولت أن تدارى وجهك وتهرب من المشهد..

أنا الوحيدة التى لم أفهم! كلكم عرفتم وعارضتم ولم تخبرونى، أنا
المغيبة هنا أتحمل وحدى نتيجة عنادى وجهلى.

حتى أنت يا عمتى لم يكن يعنيك فى الموضوع إلا أن تأتى معنا لبلد
المحبوب.. العودة لرام الله ورؤية عدنان هو كل ما شغل تفكيرك، أعلم
أنك لست على وفاق معه وهو أيضاً الإضرط تحت ضغط منى لإقامتك
معنا. أنت أيضاً كنت تقدمين لى إشارات لم أفهمها لقد كنت مأخوذة به
أسير وراءه مغمضة العينين تماماً مثل هاملت عندما سمع نداء والده.

هل أحببته؟ نعم.. أظن ذلك.. لكن ما جذبنى إليه شىء آخر أبعد من
الحب هو الوله والانبهار بهذه الكاريزما المزلزلة التى جعلتتى أنسى
نفسى.

لقد فشل زواجك الثانى أيضاً يا أمل لا بد أنك فاشلة فى إقامة
العلاقات. لم يكن لى أن أتزوج من الأساس.

إننى أفقدك بشدة أحتاج للحديث معك أريد أن أفرغ مكنونات قلبى
على كتفك. أنت الوحيد الذى يعرفنى ويحفظ لغة عيى عن ظهر قلب،
أنت الذى ينادينى فى أحلامى فلا أسمع نداءه...

كانت دقائق الهاتف تتراقص على معزوفة كلاسيكية مرحة قبل ان

أجيب:

- ألو.

فترة صمت.

- أنا أمل.

أخذتني المفاجأة:

- أمل كيفك؟

- كيفك انت؟

قالتها ثم بكت.

- أرجوك لا تبكِ ماذا حدث؟

- لا شيء أنا بأطمئن عليك.. إيش مسوى بأمرىكا؟

- أنا الحمد لله تمام وانتى؟

- أنا منيحه.

- لكن صوتك بيقول غير كده!

- أصل...

ثم ترددت قبل أن تكمل:

- أنا مخنوقة ومحتاجة لك جدًا.

- أنا تحت أمرك يا أمل احكى.

- فاكّر أيام ما كنا مع بعض.. أنا لسه فاكرة عن جد.. هيدى كانت
أسعد أيام عمرى.

- ما فيش داعى للكلام ده يا أمل.. فات وقت طويل.

- أبوه عندك حق.

- المهم إيه اللى حصل طمنينى؟

ازدادت حدة صوتها معبراً عن انفعال مكتوم:

- تخيل انك انت الوحيد اللى فهمه!

- قصدك معاذ؟

- طلع وغد حقيقى. تصور أنه مش راضى يرجعنى مصر أشوف
أمى!

- ليه؟!!

- بيتحجج بالظروف الأمنية مع أن كل الأمور مستتبة والتنسيق
الأمنى مع الإسرائيلىة على أحسن حال.

- معقول!

- إى معقول وأكثر.

- طيب ليه مش راضى يسبيك تسافرى؟

- خايف انى مرجعش تانى أصلى اتخانقت معاه ويمكن نسيب بعض.

- للدرجة دى؟!!

- وأكثر من هيك هو بيريد والدى يضغط على حماس من شان يسلموا جندى إسرائيلى رهينة عندهم فى مقابل أنه يعطينى حريتى وأرجع مصر واشوف أهلى.

- بصراحة هو شخص غير محترم وخاين.

- وأنت عم تعرف أنى مش ممكن أطلب مثل هالشى من بايى، بده يشمت فى أكثر من الأول ويمكن ما يقدر يقنع حماس من أصله.

- طيب احكى لى الموضوع من الأول.

- حماس خطفت جندى إسرائيلى شاب من معبر كرم أبو سالم وبداهم يبادلوه بمائة معتقل بالسجون الإسرائيلية.

- أنا فعلاً سمعت عن الموضوع ده من حوالى شهر.

- إى من شهر تقريباً، وبدات حماس تعد للصفقة.

- وإيه اللى حصل بعد كده؟

- أبدأ حماس طلبت الإفراج عن الأسير أحمد راشد معتقل من أكثر من عشرين سنة.

- آه وطبعاً إسرائيل رفضت.

- إى طبعاً.

- أنا فهمت.. إسرائيل ضغطت على السلطة عشان يضغطوا على حماس.

- وطبعاً عرفوا ان أنا بنت المهندس حسن الزهار اللي ممكن يضغط على حماس.. انت بتعرف العلاقة بينه وبين الشيخ أحمد ياسين.

- طيب يا أمل أنا حتصرف.

- شو بدك تعمل؟

- لا تخافى انت مش بتتقى فى؟

- إى.

- على فكرة ابن عمك نواف ببسلم عليك.

- أنا كمان اشتقتله.

- حاسم صوتك تانى؟

- إى ع طول ربنا يخليك لى وما يحرمنى منك.

زلزلت هذه الكلمات كل أعماق وأردتى قتيلاً فى هوى أمل من جديد.

(٥٧) نواف

ملتحفًا بكوفيته الفلسطينية المميزة ونظارته الأنيقة دلف نواف من باب مطعم فلافل الذى أعمل فيه، وكنت قد انتهيت لتوى من ترتيب المقاعد وتنظيف الأرضية.

رحبت به وأجلسته حتى أنهى من ارتداء ملابسى بعد يوم عمل صعب كافأنى صاحب المطعم عليه بأن دعانى أنا ونواف للعشاء، وطلب منى إغلاق المطعم بعد تناول الطعام.

كان حساء العدس الساخن هو كل ما نحتاج إليه أنا ونواف فى هذه الليلة الباردة من ليالى نيويورك.

كان زجاج المطعم يقاوم بشدة تلك الهجمة الثلجية العاصفة التى أمطرته بوابل من كرات الثلج الناصعة البياض تراكت ككتل من القطن أمام واجهة المطعم.

- أعتقد يا نواف أنك تفضل الجلوس هنا أفضل بدلاً من البحث عن أى مكان آخر يمكننا أن نتحدث فيه.

- نعم فعلاً الجو عاصف والوقت متأخر، أنا لا أكاد أشعر بأطرافى من شدة البرودة.

- لا تقلق يا صديقى شورية العدس المصرية كفيلة بأن تضخ الدماء الساخنة فى عروقك.

- شكراً لك ولصاحب المطعم على هذه الدعوة الكريمة، هذا الرجل طيب فعلاً ويذكرنى بمصر وأهلها الطيبين.

- لا عليك يا صديقى إنه يفعل ذلك لأنه يثق بى.

- أنت أيضاً تتعب كثيراً فى الجمع بين العمل والدراسة، كيف استطعت أن توفر الوقت لكل هذا؟

- الشغف هو أهم شىء يا نواف فأنا أحب عملى هنا جدًا، أما الدراسة فإنها الشغف الدائم ورحلة البحث المستمر عن الذات وهو ما يستفز قدراتى حتى أتمكن من تحقيق حلمى الذى أنا هنا من أجله.

- قصدك الدكتوراة؟

- أبدأ يا صديقى ليست الدكتوراة فى حد ذاتها.. لقد كان من الممكن الحصول عليها فى مصر دون اغتراب أو شقاء. لكن الحلم الذى أنا هنا من أجله يتمثل فى سبر أغوار الآخر وفهمه بدقة والتواصل معه دون قيود.

- عفوا أنا لا افهمك جيدًا.. أتقصد أن تتواصل مع الأمريكان؟!

- لا أنا لا أقصد ذلك ليس الأمريكى بالتحديد هو ما قصدته بكلمة الآخر. الآخر هو ذلك الوهم المتأصل فىنا بالاختلاف.. اليهودى المختلف والمسيحى المختلف والشيعى المختلف والغربى المختلف وحتى الآسيوى والهندي بل والأفريقى باعتبارى أنتمى لقارة لا أشارك أهلها نفس لون البشرة.

- أنت تقصد أنه لا يوجد اختلاف بين الأعراق والأجناس أو بين الديانات أو الثقافات المختلفة، وأن ذلك هو محض وهم ليس له أساس علمى؟

- نعم بالضبط.. الخرافة والمبالغة.. الأحكام النمطية هي ما تجعلنا نكون صورة معينة عن طبيعة جنس معين أو عرق معين.

- ولكن كل ما تقوله قد يجعلك أقرب إلى دراسة علم الاجتماع وعلم الأجناس، فلماذا اتجهت للسياسة؟

- ملاحظة بارعة منك يا نواف.

- شكرًا.

- هنا مربط الفرس كما يقولون. فأنا أرى أن السياسة هي السبب في كل ما نتحدث عنه وليس علم الاجتماع أو علم الأجناس كما ذكرت. إنها الدافع الرئيسى نحو التخندق داخل دروب الإثنية بمعناها العرقى أو الدينى، السياسة هي ما يجعل طائفة من الناس تنسى مشاكلها واختلافاتها عندما تستشعر خطراً يلوح فى الأفق من جانب طائفة أخرى أو دين آخر فتبدأ هنا فى تمجيد الذات والعرق والدين والقومية التى تنتمى إليها فى مقابل تحقير الآخر سواء كان قبيلة أو ديانة أو عرق. مثال ذلك ما يحدث فى رواندا بين قبيلتى الهوتو والتوتسى مع أنهم أبناء بلد واحد وعرق واحد وربما ديانة واحدة، لا أعلم، ولكن الخلاف دب بينهما لأسباب قبلية بحثة تحولت لتصبح إثنية.

- هذا موضوع شيق فعلاً. ولكن سؤالى هنا لماذا لم تدرس هذا الظاهرة فى رواندا أو فى الصومال أو حتى فى السودان أو حتى فى الوطن العربى فى لبنان بين الطوائف أو سوريا بين السنة والعلويين أو العراق بين السنة والشيعة والأكراد؟ أعتقد أن ما نتحدث عنه متأصل فى هذه الدول بدرجة أكبر ثم إنها أقرب إليك جغرافياً.

- معك حق فى ذلك تماماً، لكن ما أود أن ألفت انتباهك إليه أن

السياسة كمحرك لكل هذه الأفكار والاختلافات الإثنية والمذهبية موجودة هنا بل وتبدأ من هنا في نيويورك بشكل أكبر مما تعتقد. سياسة العالم تدار من هنا. انظر إلى نيويورك نفسها انظر إلى ذلك الموزاييك من البشر.. التعدد الكامل، الحى الإيطالى ليتل إيتالى والحى الصينى والعرب فى بروكلين والسود فى هارلم والبرونكس والهيسبانيك الذين حتى لا يتحدثون الإنجليزية والمكسيك والهنود الحمر مثل زميلنا هانك. انظر إلى هذا التنوع البشرى والتعدد العرقى، وبالنسبة للدين تجد اليهود يشكلون نصف سكان نيويورك والمسيحيين الشرقيين والكاثوليك والبروتستانت والمسلمين. ثم انظر إلى المتطرفين من اليهود والمتطرفين من البروتستانت أصحاب الأفكار الكالفينية التطهيرية وجماعات الكلوكس كلان الذين يؤمنون بتفوق الجنس الأبيض ثم قارن بينهم وبين المسلمين المتطرفين الذين جاءوا من أفغانستان إلى هنا بنفس أفكار الكهوف والصحراء. صدقنى يا صديقى هذا التعدد يكمن هنا لذلك اخترت نيويورك دون أى بلد آخر.

- هذه فعلاً رؤية ثرية ورائعة للموضوع الله يوفقك.

- أنا أسف لقد أسهبت فى الحديث عن الرسالة وأرهقتك بثرثرتى بعد يوم طويل وشاق.

- أبداً أنا سعيد بصداقتك واستمتعت بعرضك الشيق.

قالها نواف وهو يمسح فمه بالفوطة البيضاء بعد أن فرغ من تناول طعامه.

- بالهنا.

- يسلموا عيونك.

- لقد شغلنا الدراسة عن الموضوع الذى أود أن أحدثك فيه.

- أى موضوع؟!

- الموضوع يا صديقى يخص ابنة عمك أمل.

- أمل! شو فى؟

- لا شىء لا تقلق. لقد قلت لك أنها تعيش مع زوجها فى رام الله.

- إى باعرف وانا وأبى عم نحاول نتصل فيهن بلا جدوى.

- لن أطيل عليك أعلم أن الوقت تأخر جدًا وعندنا محاضرات مبكرة بالجامعة. باختصار يا سيدي زوج أمل على علاقة بالإسرائيليين ورافض أنه يسمح لها بالسفر لمصر حتى يضغط على المهندس حسن لكى يمارس نفوذه على حماس حتى تخرج عن الجندى المخطوف.

- نعم سمعت عن ذلك وما يفعله معاذ مع أمل أسوأ مما يفعله بعض الإسرائيليين عندنا فى حيفا.

- نعم هو إنسان وضيع ومعدوم الضمير.

- ولكن ماذا تريد منى أن أفعل؟

- شوف يا سيدي هذا هو عنوان أمل برام الله وهذا هو رقمها كل ما أطلبه منك هو أن تتصل بأمل وبعمتك عزيزة وتخبرهم أن أباك معين مريض وبده يشوفهم. ثم تطلب من والدك أن يستخدم نفوذه كعضو بالكنيسة أن يرسل لهم من يؤمن هذه الزيارة.

- تقصد أن وجود أمل بحيفا بده يخلصها من معاذ؟
- طبعاً خروجهم من رام الله يجعلهم يفلتون من قبضة معاذ ويحررهم من علاقاته واتصالاته الأمنية مع الإسرائيليين.
- لكن هذا ليس سهلاً يا صديقي.
- لماذا؟
- هذا معناه أنهم لازم يدخلوا إسرائيل، وهيدا بده تصاريح.
- أبوك نائب بالكنيست يا نواف ولا يستطيع أن يدبر رحلة سياحية للقدس أو ما شابه!
- باحكيه وبرد عليك.
- أيوه تمام. وبعدين لا تنسَ أن أمل وعمتك معهما الجنسية الأردنية ويحق لهما دخول إسرائيل بعد اتفاقية السلام.
- الله يوفقنا. إن شاء الله أنا باحكي مع والدي معين وألله ما بيخذلنا.
- قالها نواف وهو يدثر رقبته بالكوفية الفلسطينية ليحتمي بها من العواصف الثلجية بالخارج.
- ودعته على باب المطعم قبل أن أغلق الباب كما طلب منى صاحب المطعم.

(٥٨) فيلم أمريكى

الرئيس فى زيارة رسمية للصين قبل انتخابات البيت الأبيض بأحد عشر يوماً فقط، تنتظره عند العودة قضية تحرش جنسى بإحدى فتيات المدارس التى كانت ضمن رحلة مدرسية تزور المكتب البيضاوى.

المرشح المنافس يوجه له ضربة فى مقتل ويتهمه بالهروب خارج البلاد لأنه يخشى المواجهة. كل استطلاعات الرأى تشير إلى انهيار نسبة مؤيديه إلى أدنى معدلاتها. هنا يتدخل المخطط الرئيسى فى الفريق الرئاسى ويعلن لوسائل الإعلام أن هناك بعض الإرهابيين الألبان ينوون تنفيذ عمليات إرهابية داخل الولايات المتحدة، ويذهب إلى أحد منتجى السينما المشاهير ليصنع له فيلماً مفبركاً يجسد هذا المعنى. حرب من الممكن أن تدور رعاها فى ألبانيا بين الإرهابيين والحكومة الألبانية الصديقة.

فتاة صغيرة بلقانية الملامح تحمل هرة صغيرة تجرى وسط أطلال المبانى المهتمة خائفة مذعورة من أصوات القنابل والنيران المشتعلة. كانت هذه اللقطة هى التى تصدرت نشرات الأخبار عن تلك الحرب الوهمية فى ألبانيا، رغم تصويرها فى إستوديو بهوليوود لفتاة غير ألبانية أصلاً.

أغنية مفبركة أيضاً على لسان جندى أمريكى بأنه سوف يدافع عن وطنه ويحمى الحدود ويدافع عن الحلم الأمريكى.

كل ذلك جعل الشعب الأمريكى ينسى كل ما يقال عن مشكلة الرئيس وهروبه بل وقضية التحرش الجنسى ويضع ثقته فى الرئيس الذى سوف يقود أمريكا ضد الإرهاب. هنا أوقف الدكتور جلال آلة العرض

التي كانت تعرض مقتطفات من الفيلم الأمريكي الشهير Wag The dog،
وطلب من كل منا التعليق على الفيلم:

بدأت ليندا:

- هذا يوضح بجلاء كيفية تأثير الميديا على الرأى العام كى تهيب
المواطنين لأى قرارات تتخذها إدارة البيت الأبيض مهما كانت غبية.

أضافت ريتا:

- ليس هذا فحسب فمن الممكن كما رأينا فى الفيلم أن يتم التعتيم على
خبر مهم أو حادثة مثيرة أو قضية تحرش بموضوع آخر أكثر سخونة،
كقيام حرب أو أى تهديد خارجى يهدد البلاد. وقد حدث ذلك بالفعل من
قبل فى نفس المنطقة، وأقصد أننى حتى هذه اللحظة لا أعرف سبباً
لتدخل أمريكا فى حرب البلقان، هل كانت بسبب دواعى إنسانية فعلاً أم
بسبب شىء آخر لا نعلمه.

هنا تحدث دكتور جلال معلقاً:

- أعتقد أن الفيلم يوضح بدقة الفكرة التى ابتدعها هربرت شيلر فى
كتابه الفذ المتلاعبون بالعقول حيث يرى شيلر أن صناعة التلاعب
بالعقول تتم عن طريق أساطير جرى ترويجها بعناية وذكاء حتى باتت
تمثل الإطار التضليلي الذى يوهم عقولنا بادعاء الحقيقة وهى: الفردية
والنمطية وغياب الصراع الاجتماعى والتعددية الإعلامية وكيف يحرك
الكبار الأحداث عن طريق إقناع الجماهير ببعض الأوهام التى يحبونها
فيصدقها البسطاء.

هنا قاطعه ماكس:

- ولكن يا دكتور هذا مجرد فيلم يحركه خيال صناع السينما فى هوليوود ولا يوجد له أى علاقة بالواقع. فعندك مثلاً واقعة التحرش الجنسي التى حاول البيت الأبيض فى الفيلم التعنيم عليها باختلاق أحداث حرب فى بلد صغير، هل يحدث هذا فى الواقع؟ لا. إن الرئيس كلينتون لم يخف تحرشه بمونيكا لوينسكى وتعرض للتحقيق أمام العالم كله ولم يقم باختلاق حرب ليدارى على هذا الموضوع.

أنهى ماكس كلامه وفى عينيه نظرة تشفّ واستهزاء بى وبالدكتور جلال ثم أكمل:

- مناقشة الأفلام يجب أن تكون فى قسم دراسة السينما يا دكتور وليس لدارس العلوم السياسية والاجتماع.

رد الدكتور جلال:

- نحن اليوم نناقش قضية سياسية بحتة يا سيد ماكس وهى دور الميديا فى التأثير على رأى العام، وعلم الاجتماع السياسى يهتم كثيراً بهذا المبحث إن كنت لا تعلم.

هنا تغير وجه ماكس قبل أن أتحدث أنا:

- أعتقد أن الفاصل هنا يكمن فى البحث عن حالة مشابهة تصلح نموذجاً للتلاعب بالعقول سواء فى أمريكا أو أى بلد آخر، وفى بلدى مثلاً تتم مثل هذه الأمور بشكل كبير. فمثلاً وقبل مجيئى لأمريكا تم القبض على مجموعة من الشباب الأثرياء الذين يستمعون لموسيقى الهيفى ميتال الصاخبة باعتبارهم يمارسون طقوساً شاذة أو أنهم عبدة الشيطان، وهذا بالطبع لم يحدث، لقد كان للغطية على أحداث سياسية أخرى.

أثار حديثي عن مصر ارتياحًا على وجه ماكس الذي توقع أن أتحدث عن أمريكا. هنا تدخل نواف في الحديث:

- إسرائيل تفعل ذلك كثيرًا عندما تفرق بين الفصائل الفلسطينية والعربية لتشعل الأحقاد بينها حتى يدب الخلاف بينها وتنشب الصراعات بين هذه الفصائل حتى تسوق للعالم أن العرب يتقاتلون مع بعضهم البعض كما قال بيجن عقب مذبحه صبرا وشاتيلا مقولته الشهيرة (أغيار يقتلون أغيارًا فما ذنبنا نحن).

هنا رد إيزاك بعد أن تقلصت عضلات وجهه:

- هذا لا يحدث على الإطلاق، هذا كذب يحاول السيد نواف تسويقه محاولاً تشويه سمعة اليهود.

قاطعه نواف:

- أنا لم أقصد الإساءة لليهود.

أكمل إيزاك:

- إذا كان الزميل المصري يقر بأن مثل هذه الألاعيب تتم بمعرفة جهاز الأمن في بلده فأعتقد أن ذلك يحدث بشكل أو بآخر مع باقي العرب. الذين لا يتورعون عن تشويه الدولة اليهودية وإصاق التهم بها والتلاعب بعقول الرأي العام العربي حتى تتم التغطية على مشاكل الداخل التي ذكرها صديقنا المصري بمنتهى الوضوح.

استفزتنى كلمات إيزاك فحاولت تهدئة نبرتي قبل أن أرد:

- قد يكون السيد إيزاك محققًا فيما قاله عن الدولة المصرية ولكنه لم

يدافع عن مقولة السيد بيجن العنصرية التى تنعت غير اليهود بالأغيار.

هنا تدخل ماكس بحدة قائلاً:

- أعتقد يا سادة أن موضوع المحاضرة غير مجدٍ اليوم، أنا لم أقتنع بأن كل ما قيل يؤكد أن موضوع الفيلم الذى شاهدناه من الممكن أن يتحول إلى واقع معياش.

ثم قذف فى وجهى نظرة تحدّ وجلس بهدوء. انطلقت معلّقاً على حديثه:

- أحب أن أوضح للسيد ماكس أنه لم يخطئ كثيراً فى ملاحظته، فقد يحمل الفيلم مبالغة نوعاً ما ولكن ماذا عن استخدام الولايات المتحدة لأسامة بن لادن كدمية من قبل الـCIA ليقود المجاهدين فى أفغانستان ضد الغزو الروسى وكيف تحول هذا التعاون بين الطرفين إلى صراع معلن لا نعرف له سبباً منطقياً، وهذا يقودنى إلى سؤال مهم هو من المستفيد من مقاطع الفيديو التى تبث فى الإعلام مظهرة بن لادن وهو يتوعد الغرب وأمريكا بالدمار والتى لا نعرف على وجه الخصوص من يصورها وأين وكيف يتم بثها إلينا، أنا أعتقد أن المستفيد من هذا ومن العداء مع بن لادن هم الأمريكان أنفسهم.

سألتنى ريتا:

- هل يعنى ذلك من وجهة نظرك أن أمريكا ما زالت تستخدم بن لادن؟!

قاطعها ماكس:

- هذا هراء محض.. لو كان هذا صحيحاً كيف تفسر لنا اعتداء بن لادن على السفارات الأمريكية فى أفريقيا؟

أجبتة بهدوء:

- ما أود أن أوضحه هنا أنه لا يوجد دليل واحد على قيام بن لادن بهذه الأعمال التى ذكرتها غير مقاطع الفيديو التى تبث علينا من جهة مجهولة لا نعلم عنها شيئاً. لقد صنع منتج هوليوود فيلماً لفتاة أمريكية من أصول بلقانية داخل أحد إستوديوهات هوليوود باعتبارها فتاة ألبانية تطاردها القذائف والنيران فى ألبانيا، كيف نتأكد أن ما نشاهده فى هذه المقاطع هو بن لادن فعلاً وأن هذه المقاطع لا تشوبها المؤثرات البصرية والخدع السينمائية أو أن تكون قد تم تصويرها فى هوليوود مثلاً؟

استشاط ماكس غضباً قبل أن يقول:

- إن كنت تعتقد أن بن لادن عميل للـCIA فإنى أعتقد أنك إرهابى و عميل مزدوج أليس هذا احتمال أيضاً؟

أجبتة بمنتهى الهدوء الذى أثاره بدرجة أكبر:

- يجوز.. كما يمكن أن تكون أنت جاسوساً للموساد.. لا شك أنك تتحلى بروح دعاية عالية يا سيد ماكس.

ترك ماكس المحاضرة بوجه مكفهر قبل أن يعلن الدكتور جلال انتهاءها.

(٥٨) حيفا

عندما همّت أمل والعمة عزيزة بالخروج من دار أحد شهداء الانتفاضة الذى كانت أمل تكتب قصته لترسلها إلى الجريدة التى تصدر من لندن لتؤرخ للانتفاضة الفلسطينية.

اعترض طريقهم أحد الجنود الإسرائيليين وطلب منهما ركوب الحافلة العسكرية بهدوء، لكن أمل صرخت فى وجهه بأنها لن تركب وأنها صحفية تعمل فى جريدة لندنية وأنها سوف تفضح أفعالهم أمام العالم. فما كان من الجندى إلا أن جذبها من يدها بقوة وكبل يديها خلف ظهرها وعندما همت عزيزة أن تدافع عن ابنة أخيها ضربها الجندى الآخر بعقب بندقيته فى صدرها ففقدت الوعى وسقطت على الأرض وسط صراخ أمل طالبة النجدة من بعض المارة العرب الذين ساروا فى طريقهم كأن شيئاً لم يحدث.

اقتاد أحد الجنود أمل وعزيزة إلى داخل العربة الجيب التى كانت تنتظرهم لترحيلهم إلى مكان ما لا يعلمه إلا الله. أخذت أمل تصرخ فى وجوههم وأخذت تضرب الجندى الذى كبل يديها بأرجلها ورأسها حتى فاض به الكيل فكمم أنفها بقطعة من القماش فقدت الوعى بعدها مباشرة.

فتحت أمل عينيها بصعوبة لتجد نفسها فى غرفة صالون بيت مرتب على الطريقة العربية كما كانت عزيزة تحكى لها عن مضيعة جدها.. وسادات على الأرض ومساند للاتكاء عليها أثناء الجلوس أرضاً بما يتيح قدرًا من الراحة والاسترخاء. وجدت كل من فى الغرفة ينظر إليها وإلى جانبهم طبيب يضع سماعة فى أذنيه ويهم بفحصها.

أفاقت أمل وصرخت فيهم من أنتم وأين أنا.. وين عزيزة؟

صرخات أمل جعلت عزيزة تستفيق هى الأخرى من سباتها العميق لتجد نفسها إلى جوار أمل وحولها هذه الدائرة من المحملين فيهما.

لم تستطع أن تدرك ملامحهم بعينيها المشوشتين من أثر المخدر.

فتحدثت وهى توجه وجهها لخيالاتهم:

- إنتم إسرائيليين.. ليش خطفتونا؟

هنا تقدم معين من أخته واحتضنها وقبلها:

- وين الإسرائيلية عزيزة.. هيدا خيك معين!

حدقت عزيزة فى وجهه وهلت من الفرحة:

- خى معين كيفك يا حبة عيني اشتقتك كثير.

أصابت المفاجأة أمل بالصدمة ولم تتمكن من النطق إلا عندما اقتربت منها زوجة عمها فدوى وابنة عمها ميسون للترحيب بها.

فسألتهن بعفوية:

- شو اللى حصل مع الإسرائيليّة؟

هنا احتضنها عمها معين وقبل وجنتيها وهو يربت على كتفها:

- أمل لا تخافى يا حبيبتى هادول ما كانوا إسرائيليّة.. كانوا شباب من جماعتنا هون وأنا ياللى طلبت منهم ينفذوا الخطة بمنتهى الإقناع حتى ما يشك حدن فيهم ويتعرض إلكن بشى.

- معقول يا عمى إنت اللي سويت هيك؟

- ما كان عندى حل تانى حبيبتي.. كان لازم تخرجوا من رام الله بأمان من غير الزلثة معاذ ما يعرف.

نهرته عزيزة بشيء من الغضب:

- لكن كيف تسمح للزلثة ياللى ضربنى بالبارودة بتنشل إيديه وإجليه إن شا الله.

- باعتذر عنه يا عزيزة لا تواخذينى بس كان لازم يحبكوا الخطة بهيك شغلات من شان ما حدن يشك فيهن.

ردت أمل بحدّة:

- لكن ليش ما خبرتنا يا عمى؟

- يا أمل أنا اتصرفت هيك لما عرفت ان فى خطر على حياتكن.

خصوصاً بعد ما خطفت حماس الجندى ومحاولة الموساد الضغط على هالزلثة تبعك معاذ من شان ما تغادري رام الله.

- الموساد معقول يا عمى.. أنا وصلت للموساد.

- إى حبيبتي بدهم يستخدموكى كارت للضغط على ببيك حسن من شان يضغط على حماس تفرج عن الجندى المخطوف.

- بتقصد يا عمى أن معاذ على اتصال بالموساد.. أنا كنت شاكه بهيك لكن ما قدرت أصدق.

- للأسف يا أمل هيدى الحقيقة زوجك المحترم عميل للإسرائيلية..
من زمان والإخوة بفتح إسه ما يعرفوا حقيقته، لكن أنا اتصلت بالأخ أبو
عمار وحكيته أنه ينتبه لهالزلمة وينبه الإخوة.

- أنا السبب يا عمى أنا السبب.

- لا يا بنتى إنتى انخدعتى فيه مثل كثيرين انخدعوا قبلك. إن شا الله
نخلصك منه عن قريب.

ثم صمت قليلاً وأشار إلى زوجته وابنته لتحضير الطعام، فنهضتا
على الفور لتلبية طلب الأب وتبعتهما عزيزة.

هنا تنبهت أمل للوضع الجديد الذى وضعتهما فيه الظروف وسألت
عمها:

- ماذا سنفعل هنا فى إسرائيل عمى؟ أنا بدى أرجع ع مصر.

- شو يا أمل ما بدك تقضى يومين فى بيت عمك؟

- طبعاً يا عمى لكن هيدا إحساس غريب.

- شو يا أمل؟

- إنك تعيش بإسرائيل.. لا تؤاخذنى يا عمى لكن أنا مو قادرة أتحمك
بإعصابى من أول ما عرفت أنى هون. ما باقصد بيتك يا عمى هيدا
يشربنى أنا باقصد إنى مرة واحدة لقيت حالى بإسرائيل.

- لا تخافى يا أمل هيدى بلدنا بالأساس ما كان فينا نقدر ندشرها.

- باعرف يا عمى أرجوك ما تغضب منى.

- باعرف يا أمل هيدا إحساس صعب لكن مع الوقت فيكى تتعودى.

- أنا أسفة يا عمى ما قصدت أضايقك.

- شو فى يا أمل أنا رغم كل السنين اللى فاتت وكل علاقانى مع الإسرائيلىة ورغم أنى عضو بالكنيست ورغم الباسبور الإسرائيلى ورغم اللغة العبرية... أنا ما نسيت لحظة أنى فلسطينى ولا عمرى حدن سألنى عن جنسيتى أو هويتى إلا وقلت له بمنتهى الفخر إنى فلسطينى من حيفا العربية.

احتضنت أمل عمها بعد أن لاحظت دمعة اغرورقت بها عينيه، وبكت هى الأخرى فقد كانت هذه هى المرة الاولى التى تحتضن فيها عمها بمشاعر حقيقية وفى لحظة حنين نادرة.

(٦٠) توم

سار توم فى اتجاه سنترال بارك على قدميه.. صرف السائق الذى كان ينتظره، أخبره أنه يريد أن يترىض قليلاً. كانت رنتاه فى اشتياق بالغ لجرعة من التبغ.. أشعل سيجارة مارلبورو واستمتع بكم شهيق دخانها فى صدره لثوانى ثم أخرج زفيرها ببطء وهدوء.

لقد تعارك مجددًا مع جوان فى هذه الليلة كالمعتاد.

جلس على إحدى الأرائك داخل البارك و صوب نظره إلى النجوم المرصعة فى السماء. إلى أين تأخذنى هذه الفتاة الفيتنامية؟ هذه هى المرة العاشرة التى أحاول فيها فك الارتباط بها لكننى فى كل مرة لا أتمكن من نطق كلمة قطع العلاقة. الموضوع يحتاج إلى المزيد من الشجاعة والجرأة لإنهاء علاقة بدأت منذ خمس سنوات عندما رأيتها بالصدفة فى مكتب أبى بالشركة، لعلها جاءت تطلب عملاً.

هل تناسق ساقياها هو ما شد انتباهى نحوها؟ بالطبع لا لقد رأيت سيقاناً أجمل بكثير من قبل.

لا أعلم تلك الإشارات التى أطلقها عقلى وثبتت عيني على تلك المساحة الصغيرة التى تظهر بجلاء مكان التقاء نهديها. حتى عدلت بلوزتها عندما نادانى أبى ولم أسمع.. بعدها اعتذر لها أبى بأن عليه الذهاب لحضور اجتماع عاجل وطلب منى إكمال المقابلة معها.

كانت واثقة بنفسها تماماً تتحدث إنجليزية سليمة بطلاقة بنبرة آسيوية محببة جعلتنى أهيى عشقاً بصوتها وطريقتها فى الحديث.

فوجئت عندما عرفت أنها فيتنامية ما حاجتنا يا أبى للفيتناميين هل

تحتاج لمن يذكرك بتلك التجربة الأليمة فى حياتك عندما تركتنا أنا وأمى
وذهبت لهذه الأدغال اللعينة؟

حاولت أن أطيل المقابلة قدر الإمكان حتى أتمكن من التعرف على
الفتاة جيداً. لقد أسرتنى بجمالها الأخاذ وروحها العذبة وصوتها ذى
الرنين الآسيوى المحبب.. لقد جاءت هذه الفيتنامية فى الوقت المناسب،
لقد قطعت علاقتى بليزا منذ أكثر من شهر لم أمارس فيه الجنس غير
مرة واحدة مع إحدى فتيات المتعة. يغمرنى شعور طاغ بأن أعتلى هذه
الفتاة وألتهم شفقتها. لاحظت جوانا أن نظراتى تدور صعوداً وهبوطاً
تلتهم جسدها المفعم بالأنوثة الطاغية.

ابتسمت عندما سألتها هل تناولت الغداء أم لا، وردت:

- ماذا يحدث للرجال فى أمريكا ألا يشغل تفكيرهم غير الجنس؟!!

- لا أبداً أنا فقط أحاول أن أعرفك على المطاعم الجيدة فى هذه
المدينة.

- لا عليك لقد اعتدت على ذلك.

ثم ضحكت وهى تغمز لى وتضع ساقاً على ساق فكشفت عن مساحة
محببة من فخذيها.

ودعتها وأنا أهنئها بالوظيفة الجديدة، ومن هنا بدأت هذه العلاقة
الغريبة. وسر الغرابة هنا لا يرجع إلى أنها علاقة بين ابن السيناتور
المحافظ الذى يحب سكرتيرته الآسيوية ولكن الغرابة تكمن فى أننى لا
أعرف حتى هذه اللحظة سر تعلقى بهذه الفتاة لأكثر من خمس سنوات
لم أتمكن خلالها من إقامة علاقة مع فتاة أخرى بعد أن كنت قبلها فتى

منهاتن المدلل الذى لا يحفظ أسماء فتياته.

لقد أصابتنى لعنة هذه الفيتنامية، ترى هل كان مقدراً لى أن أكفر عما فعله أبى ببلادها!

هل هو نوع من السحر الآسيوى الذى يستولى على روحى ووجدانى بمجرد التفكير فيها؟ لقد أصبحت جوانا فى تلك السنوات الدواء لمرض أصابنى ولم يتمكن الأطباء من سبر أغواره.

هل هى الجنية التى سحرت الأمير فى قصص الأطفال؟

هل أحبها؟ نعم أنا أحبها لدرجة البكاء.. لكنى لم أعرف الحب من قبل، لم أؤمن به، إنه محض هراء.

أبى وأمى خير دليل على ذلك لقد كانا متحابين جداً أثناء الدراسة الجامعية لقد غزلا سوياً قصة حب جذيرة بأفلام هوليوود الرومانسية فى خمسينات القرن العشرين. ولكن أين ذهب هذا الحب الآن إن سيادة السيناتور لا يتواجد فى بيته قبل منتصف الليل حتى أيام العطلات يقضيها بمكتبه بالكونجرس.

وأمى التى تنام فى غرفة أخرى بعيدة عن غرفة الزوجية منذ أكثر من عشرين عاماً.. هل كان لها أن تطيق بعد أبى عنها لولا نصائح العم ديفيد لها بأن لا تترك بيتها تحت أى ظرف حفاظاً على المستقبل السياسى لزوجها.

هل وجدت فى ديفيد ما يعوضها عن أبى؟ إنه يقضى معها أوقاتاً كثيرة فى البيت وخارجه أكثر من الوقت الذى تقضيه مع أبى نفسه.

كيف وصلت العلاقة بينهما إلى هذا الحد؟ أين الحب الذى غزت
سهامه قلوبهما البكر أيام الجامعة؟

هل أحبها أبى فعلاً مثلما أحبته هى.. لا أعتقد.. لو كان أبى يعرف
الحب ما كان ليطلب منى أن أترك جوانا، إنه يدين بالفضل لوالدها إبان
حرب فيتنام وقد أخبرنى أنه رد الجميل بتوظيفها فى شركته، ولكن رد
الجميل لا يجب أن يشمل قلب ابنه أيضاً.

- يمكنك أن تعبت معها كما تريد لكن الزواج شىء آخر. الزواج
يجب أن يكون من زوجة أمريكية ثرية مسيحية بيضاء من وسطنا
الاجتماعى. ما رأيك فى كارولين ابنة السيناتور تشارلز؟

- لا أعلم يا أبى أنا لم أفكر فيها من قبل، هى مجرد صديقة.

- لكن الفتاة معجبة بك، أكاد ألحظ تلك النظرة فى عينيها كلما رأتك.
كما أن والدها السيناتور لمح لى أكثر من مرة.

- حسناً يا أبى سوف أفكر فى الموضوع.

ربما يريد أبى مصلحتى كما يقول.. لكنى لا أريد أن أكرر سيناريو
زواجك من أمى المسيحية البيضاء الثرية التى تركتها بعد كل هذا
لصديقك اليهودى ليونس وحدثها أثناء انشغالك.

أعرف أنك مشغول دائماً ولكن ألا تشعر بالغيرة عندما ترى تلك
النظرة الودود فى عيني أمى نحو العم ديفيد؟! أنا أرى تلك النظرة جيداً
منذ أن كنت صغيراً، لا أستطيع أن أمحو من ذاكرتى زيارته الليلية
لبيتنا أثناء عدم وجودك بل وجلسه مع أمى فى غرفة مغلقة.

لا يا أبى لا أريد أن يكون مصير كارولين كمصير أمى.. سوف أفعل
ما يقنع عقلى أنا لا عقلك أنت. سوف أتزوج جوانا فى يوم من الأيام
حتى لو حرمتنى من أموالك كما تهددنى دائماً.

سوف أكون سعيداً باختيارى مهما حدث.

(٦١) زائر من مصر

لم أتمالك نفسى من الصدمة عندما خرجت من مكتبة الجامعة لأجد
السكرتيرة تخبرنى بأن هناك زائراً من مصر ينتظرنى بالخارج.

من فى مصر كلها يأتى إلى هنا لزيارتى.. طالبت بى فترة الهواجس
حتى قطعنها السكرتيرة وهى تشير إلى شاب وسيم حليق مهذب يجلس
فى المكان المخصص للانتظار.

حدقت فيه للحظة لم أدرك ملامحه لأول وهلة حتى بدأت إشارات
الذاكرة تعلن عن هويته بوضوح.

لقد مضى أكثر من عشر سنوات على آخر مرة رأيته فيها حليقاً قبل
أن تغزو شعيرات لحيته منابت فؤديه.

احتضنته بشوق يحمل مرارة الغربة لتلك السنوات الماضية التى
مضى كل منا فيها فى طريقه.

- حازم.. ماذا أتى بك إلى هنا هل انتقل الجهاد إلى بلاد الأمريكان؟!

- لا ترفع صوتك يا أخى.. الشيطان لها أذان.

- اطمئن لا يوجد هنا أحد يعرف العربية غيرنا.

- كيف حالك يا أخى لقد اشتقت إليك كثيراً.

- وأنت أيضاً يا حازم.. قول لى بقى إيه الشياكة دى وبتعمل إيه فى
بلاد الكفرة؟

- أبدأ يا سيدى.. شغل.

- أنت حتشتغل هنا؟

- لأ أنا هنا فى مهمة وسوف أنجزها وأعود بإذن الله.

- المهندس حسن كلفك بحاجة؟

- تقدر تقول كده.

- أنت واحسنى جداً يا بنى والله إحنا نتغدى الأول وبعدين تحكى لى كل حاجة.

- أنا مش عايز أعطلك عن المحاضرات.

- أنا خلصت.

- أنا عندى مشوار فى بروكلين وبعدين نقعد مع بعض.

- فين فى بروكلين؟

- مسجد الفاروق إن شاء الله فى حته اسمها بروم هيل.

- أيوه عارفه (أدركت على الفور مغزى مهمة حازم عندما ذكر اسم المسجد لأنه كان فى الثمانينات مركزاً لترحيل الشباب المسلم للجهاد فى أفغانستان).

- أنت نازل فين يا حازم؟

- أنا بصراحة كنت بفكر أبييت عندك يومين.

حمدت الله على أن جوانا كانت قد تركت الشقة منذ أسبوع لتقيم مع
توم فى بوسطن قبل الإعداد للزواج.

- طبعًا يا حازم أهلاً بك.. أنت عارف ان أنا عايش لوحدى فى كوينز
فى إستوريا، دى منطقة فيها عرب كتير حتعجبك جدًا.

- شكرًا لك يا أختى.

- خلاص يبقى طريقنا واحد. ولكن أين حقائبك؟

تلعثم حازم قليلاً قبل أن يجيب:

- تركتها عند صديقى فى بروكلين.

- يبقى نروح نجيبهم من عنده ونطلع على شقتى عشان نستريح.

- لاء.. أنا لازم أروح المشوار الأول لازم أوصل الأمانة وبعدين
أقابلك.

- خلاص براحتك.

تركنى حازم ومضى على وعد باللقاء عند مطعم مصرى قريب من
بيتى فى إستوريا.

ماذا أتى بك إلى هنا يا حازم؟ وما هذه المهمة التى أرسلوك لها؟ ما
هذه الأمانة التى توصلها.. أأكون عملية تخريبية فى داخل أمريكا؟! لا..
أعتقد أن أسامة بن لادن لا يجرؤ على تنفيذ عملية داخل أمريكا.

ما هذا الهاجس الغريب الذى شعرت به.. كيف تحول صديق عمرى

من هذا الشاب الوديع الهادئ الطباع لى يكون ترسًا فى هذه الآلة
الإرهابية التى يخشاها العالم كله؟!!

أنا لا أستطيع مهما أوتيت من الخيال أن أضع حازم فى منزلة
الإرهابى المجرم.. إنه الصديق والأخ الذى سوف يعود إلى رشده قريبًا.

لماذا لا أحاول أن أنتهز فرصة زيارته لى أثنيه عن غيه؟ قد أتمكن
من إقناعه بالبقاء هنا فى نيويورك وأجد له عملاً أليس ذلك أفضل؟ لا بد
أنه على استعداد لفعل ذلك الآن.. لقد خلع لحيته وجاء إلى بلاد العم سام
ويحمل جواز سفره خاتم الولايات المتحدة.. أعتقد أنه تغير ويمكن أن
يقبل كلامى الآن فنحن فى نيويورك عاصمة العالم أراض الفرص.

ثم لماذا تشك أنه فى مهمة إرهابية؟ قد يكون فى مهمة عمل أو تجارة
كلفه بها المهندس حسن.. لم لا؟!!

هل تسرعت عندما عرضت عليه الإقامة عندى كان يجب أن أعرف
طبيعة مهمته أولاً قبل أن أعرض عليه استضافته فى شقتى. كيف
يتسنى لى ذلك هل أصبحت أمريكياً إلى هذه الدرجة.. إن صديقى الوحيد
يزور المدينة التى أقيم فيها منذ سنوات كيف لى أن أتركه ينزل بفندق
أو شىء آخر. أين عاداتنا وتقاليدها المصرية والعربية؟

إننى أفعل ما يتحتم على فعله، إنه الواجب كما نقول فى مصر.. ثم
ما الذى يخيفك إلى هذه الدرجة أنا لا أعتقد أن حازم الوديع الهادئ قد
تورط فى أعمال إرهابية، إنها ليست طبيعته.

لا بد أنه يتدرب معهم فقط.. ينقل الرسائل ولا شىء غير ذلك، ثم إنه
لو كان حازم مطلوباً لدى الأمريكان فكيف سمحوا له بدخول أمريكا
بفيزا سياحية موثقة؟ لقد جعلنى حازم أراها تزين جواز سفره.. لا شىء

يقلق فى ذلك.

فى الموعد المحدد قابلت حازم مرة أخرى ومعه حقيبة صغيرة هذه المرة. شعرت بارتياح غريب عندما رأيت وجهه حليقًا بلا لحية.

سلمت عليه وولجنا إلى المطعم، كان صوت أم كلثوم يملأ المكان.. أمل حياتي.

تذكرت أمل، ترى كيف تمضى أوقاتها فى حيفا عند عمها معين.. لاحظت أن ملامح حازم تغيرت قليلًا عندما نظر فى وجهي وأنا أفكر فى أمل. ترى هل أدرك أننى أفكر فيها وأشتاق إليها؟ بالطبع لا إن تغير ملامحه تعود لمحاصرة صوت موسيقى عبدالوهاب الحرام للأذن حازم..

كان المكان يستحضر الحالة القاهرية بكل تفاصيلها.. خان الخليلي.. شارع المعز. المقاعد والموائد من الأرابيسك.. رائحة البخور.. صوت أم كلثوم.. لوحات تصور القاهرة القديمة المساجد التكايا وقلعة صلاح الدين.

لقد نقلنا صاحب هذا المطعم الذى جاء للترحيب بنا إلى حى الحسين والسيدة زينب.

طلبنا كباب وكفتة وملوخية وأرز وسلطة طحينة.

تبارينا أنا وحازم فى عملية عشوائية متسارعة لتنظيف الصحون من محتوياتها تمامًا، لقد كان جوعًا للوطن بأكثر مما كان جوعًا فسيولوجيًا.

وعندما قدم لنا النادل كوبين من الشاي بالنعناع على الطريقة

المصرية كان حازم قد بدأ يحكى لى قصته.

- الموضوع اختلف جدًا عن الجهاد ضد الروس. فى الأول كان الموضوع واضح ومحدد دولة ملحدة والعياذ بالله احتلت دولة مسلمة والمطلوب كان الجهاد ضد هؤلاء الكفرة وإخراجهم من أفغانستان.

- طيب والمرة دى كيف اختلف مفهوم الجهاد؟

- شوف يا سيدى.. إحنا وضعنا اللبنة لمشروع الدولة الإسلامية بعد خروج الروس لكن فوجئنا بعد كده بالصراعات التى نشأت بين الإخوة المجاهدين اللى تحول بعضهم إلى مرتزقة يحاربون بعضهم.

- أعتقد أن المشكلة دى شبه تجربة الحرب الأهلية لبنان.

- ممكن تقول كده.

- المهم إيه اللى حصل بعد كده؟

- لما تخلت أمريكا عن المجاهدين ولما الصراع نشب بين الطوائف، كان لازم يبقى لنا إستراتيجية مختلفة.. دولة ثانية تكون عربية مسلمة تمثل صورة المجتمع بحق عشان كده كانت تجربة السودان.

صمت فترة قبل أن أسأله بحذر:

- لكن كان هناك عمليات قتل للأبرياء تجلى فى تفجير سفارات وما إلى ذلك..

- لا يا أخى لم نكن نحن.. هكذا يحاول أن يشوهنا الإعلام الغربى والعربى أحيانًا.

- وماذا عما جرى فى الصومال؟

- أنت واقع تحت تأثير الإعلام الغربى تماماً يا أخى. الإخوة الصوماليون هم من واجهوا الأمريكان بصدورهم العارية فى الصومال، ونحن نساعدهم ونمدّهم بالسلاح إنهم يحاربون من أجل حريتهم ودينهم. لقد حاولت أمريكا أن تسرق بلدهم وتتحكم فى هذا الموقع الإستراتيجى الفريد لكن الإخوة لقنوهم درساً لن ينسوه.

- وماذا عن تفجير السفارات الأمريكية فى نيروبى ودار السلام والضحايا الأفارقة الذين ليس لهم ذنب.

- صدقنى يا أخى ليس لنا دخل مطلقاً فى قتل الأبرياء. إن هذه الشعوب هى من يعبر عن مشاعر الكره والضعينة للأمريكان الذين يتحكمون بمصائرهم كأنه احتلال من نوع جديد تمثل فيه السفارة الأمريكية مقرّاً للحكم فى هذه الدول.

- طيب والسفارة المصرية فى باكستان!

- أنت لا تعرف يا أخى شيئاً مما يحدث فى باكستان.. أنا عشت هناك وعرفت كيف أن هذه السفارة كانت تتجسس علينا وتنقل أخبارنا للمخابرات الباكستانية وللأمريكان.. وداخل هذه السفارة النجسة تم القبض على بعض الإخوة وتعذيبهم فيها.. هل ما زلت تعتبرهم أبرياء؟!

- مهما حدث يا حازم لا يمكن الإقرار بأعمال العنف كرد فعل لآى ظلم تعرضتمّ له.

- نعم أنا أوافقك الرأى لكن عندما تجد شخصاً ما يحاول قتلك هل تتركه يقتلك ولا تدافع عن نفسك حتى لا تلجأ للعنف؟!

- المهم طمنى عليك.. هل اشتركت فى أى من هذه العمليات؟

- لا تقلق أنا أقوم فقط بتدريب المجاهدين الجدد وتقوية عزيمتهم.

- ضد من يا حازم؟

- ضد كل أعداء الدين كما أعلنها أبو عبدالله.. ضد اليهود والنصارى.

- ولكن هناك يهود ونصارى لا يحاربون أحدًا والآية القرآنية واضحة (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم).

- نعم أعلم يا أخى نحن لسنا كما يصورنا الإعلام وحوشًا تحاول أن تقتل المختلفين معهم فى الدين.. لا تصدق ذلك. نحن فقط نحارب من يعتدى علينا.

حاولت أن أباغته بسؤال:

- ومن الذى دمر الباخرة كول فى اليمن؟

- طبعًا لن تصدق أن منفذ العملية لم يكن له أى علاقة بنا لقد كان أخًا يمنيًا يغار على دينه.. لم يحتمل أن يرى تلك البارجة الأمريكية تقف فى زهو على أحد الموانئ العربية بينما أمريكا تقتل أطفالنا فى فلسطين. فعبر عما يجول فى صدره وفجر نفسه فيها حتى أصبحت كالبطة العرجاء.

- هل ستصدقنى القول إن سألتك عن مهمتك هنا؟

- لك الحق أن تشك يا أخى.. أنا هنا من أجل تقديم بعض الأموال لبعض الإخوة الذين تعرفت عليهم مؤخراً فى قندهار. لقد جاءوا لدراسة الطيران، لقد أخبرتك عنهم من قبل لقد كانوا يدرسون فى هامبورج ثم جاءوا ليكملوا دراستهم هنا فى معاهد تعليم الطيران فى أمريكا لأنها أفضل من ألمانيا.

- أليس هذا غريباً بعض الشيء يا حازم؟!

- ما غريب غير الشيطان.

- لماذا يدرسون الطيران؟

- ما زلت متأثراً بالإعلام الكاذب يا أخى، الذى يصور المجاهدين باعتبارهم جماعة من المتخلفين يسكنون الكهوف. هذا ليس صحيحاً إن بيننا أطباء ومهندسين وعلماء... إن دولتنا ستكون دولة حديثة تأخذ بأسباب العلم والتقدم ولكن بما لا يخالف شرع الله.

- ولكن لماذا الطيران تحديداً يا حازم؟

- نحن نحتاج لطيارين مهرة، لقد كانت مشكلتنا الكبرى مع الروس هى الطيران كما تعلم.

- وهذه الفكرة اقتنع بها أبو عبدالله بفضل الله ثم الشيخ خالد، لقد أخبرتك عنه، إنه رجل طيب لقد علمنى أشياء كثيرة فى الدين والقتال إلا أن عشقه الأول والأخير للطائرات. لقد جلب معه إلى أفغانستان طائرة شراعية صغيرة يتحكم فيها من خلال ريموت كنترول تظل تدور وتحلق فوق المعسكر لساعات. كان يقول إن الطائرات هى السلاح الفعال فى أى حرب.

- نسيت أسألك عن طالبان وعن هدم التماثيل.

- صدقتى يا أخى هؤلاء رجال حملوا أعناقهم ولولا هم كانت أفغانستان راحت. والملا عمر ربنا يكرمه رجل ورع وصالح، استضافنا وأكرمنا بعد ما تركنا السودان. أما بالنسبة للتماثيل يعنى أنت ترضى أن دولة الإسلام يبقى فيها تماثيل لبوذا الكافر؟!

- لكن يا حازم ده تراث حضارى ملك للإنسانية!

- كيف لنا أن نترك ما يخالف الدين بحجة حماية التراث الإنسانى؟! هذا لا يستقيم.

لم أسترح لكلام حازم وشعرت أنه تغير كثيراً عن هذا الشاب النقى الذى سافر للجهاد أول مرة.

دفعت الفاتورة وانصرفنا إلى شقتى بعد أن سرنا قليلاً فى شوارع نيويورك نتحدث ونستعيد ذكريات شبابنا الذى فرقته صراعات دينية ما كان لها أن تنشأ بين صديقين من نفس الدين والثقافة.

(٦٢) حيفا ٢

مثلت هذه الفترة انطلاقة كبرى فى حياة أمل شعرت فيها بالحرية على عكس ما كانت تتوقعه تماماً فى بادئ الأمر عندما وطأت قدمها إسرائيل.. راحت تجوب المدن والبلدات، لم تتمكن من التفريق بين عملها كصحفية وتوقعها القديم لكى تتجول فى ربوع فلسطين المحتلة كسائحة نهمة لا تعيها كثرة التجوال ولا تشبعها لذة المشاهدة. إنها الآن تحقق ذلك الحلم العصى الذى كم تافت نفسها لتحقيقه.

طافت بشوارع حيفا وساحلها الجميل، خرجت مع ابنة عمها وأصدقائها للتنزه وركوب التلفريك.. المطاعم الفاخرة والمقاهى التى تحمل عبق هذه المدينة الساحرة التى لم يتمكن الإسرائيليون من فض بكاره عروبتها رغم العادات الغربية ومظاهر التحديث.

إلا أن شخصية أمل الصحفية تغلبت على السائحة فبدأت تتابع ما يحدث فى هذا المجتمع الذى هو بلدها وليس بلدها فى آن.

فهذا عمها معين يشعل الجدل فى الكنيسة ضد سياسات نيتنياهو الرامية لبناء المزيد من المستوطنات ويهاجم إريل شارون وجماعة جوش أمونيم المؤيدة للتوسع فى الأراضى العربية التى تسمى المناطق بالتعبير الإسرائيلى. وقبل انتهاء الجلسة ينسحب هو وباقى النواب القائمة العربية احتجاجاً على سياسات الحكومة.

لم تكن أمل بقادرة على استيعاب أن يكون العرب جزءاً من هذه المنظومة الإسرائيلىة والعلاقة بين العرب والإسرائيليين التى تصل إلى حد الصداقة فى بعض الأماكن والعداء الشديد فى أماكن أخرى.

فها هو عمها معين وبعد موقفه الجسور فى الكنيسة فى الصباح يستقبل فى المساء فى بيته هذا المحامى الإسرائيلى الشهير يوسف أهارون ويعرفها عليه كما لو كان الحاجز النفسى الذى تكون عبر السنين بفعل حقائق التاريخ والجغرافيا قد هوى فى لمحة انمحي من ذاكرة الزمن.

- عمك يوسف صديقى منذ أكثر من ثلاثين عاماً عندما كنا زملاء فى الحزب الشيوعى الذى كان يسعى إلى إقامة دولة يعيش فيها العرب واليهود جنباً إلى جنب.

مدت أمل يدها مرتعشة كيف تضع يدها فى يد هذا الإسرائيلى.. كيف تفعل هذا بى يا عمى؟

وما إن رحب بها السيد أهارون بلغته العربية الفصيحة حتى خطفت يدها وفرت هاربة خارج المشهد الغريب الذى لم تتوقع حدوثه فى أكثر أحلامها تطرفاً.

الغريب فى الأمر كان فى دأده عزيزة التى ما إن رأت يوسف من خلف باب غرفتها حتى انتابتها حالة غريبة من التشنجات والبكاء الشديد لم تعرف أمل لها سبباً.. ماذا حل بك أنتِ أيضاً يا عمتى؟!

- إنه عدنان يا أمل إنه هو لقد كبر قليلاً وغزا رأسه الشيب قليلاً، أنا أراه كل ليلة يأتى ليطمئن على ويلوح لى من خلف النافذة.. لقد أتى لكى يخطبنى من أخى أليس كذلك يا أمل؟

- دخيلك عمتى شو عم تحكى.. هيدا مو عدنان هيدا صديق لعمى معين واسمه يوسف.. تعالى ارتاحى هون وأنا بسوى إلك شى تشربيه.

- لا يا أمل أنا مو اتجنيت أنا أعقل منك.. هيدا عدنان أنا مو تايهة عنه. فلى سوى إله شأى بالحبق هو بيحبه كثير.

- حاضر يا عمتى المهم إنتى ارتاحى.

شعرت أمل بالقلق الشديد على عزيزة لكنها عزت الأمر لاحتمالية وجود شبه بين عدنان والسيد يوسف لكنها ظلت طيلة تلك الليلة تفكر فى مصير عدنان وما حدث له بعد النكسة العام ٦٧، وهل من الممكن أنه عاش فى إسرائيل وبذل اسمه وكنيته؟ لا، كيف هذا؟ هذا لا يحدث إلا فى الأفلام.

كانت أمل تطوف بالأراضى المحتلة تمارس عملها الصحفى ببراعة وإتقان، فهذه مجموعة من المقالات عن العصابات المسلحة الصهيونية الهاجاناه والأرجون وشستيرن التى كانت تطرد السكان العرب من بيوتهم وتقتل وتسفك الدماء، وكيف أنها أصبحت فيما بعد تمثل نواة جيش الدفاع الإسرائيلى التى أصبح قادتها زعماء إسرائيليين كبار مثل بيجن ورايين.

بعدها بأيام تحدث لها عمها على انفراد بعد أن زاره أحد رجال الشباك الإسرائيلى فى صباح ذلك اليوم. بالرغم من ذلك لم تهدأ أمل أو تخفف من هجومها على إسرائيل فأخذت تندد بالأحزاب الدينية فى إسرائيل مثل حزبى شاس ويهوديت هاتوراه وجماعة جوش أمونيم المعروف عنهم كرههم الشديد للعرب.

كما لم تنسَ ذلك اليوم الذى شاركت فيه فى إحدى المظاهرات المنندة بسياسة الاستيطان التى يدعمها نيتنياهو وشارون التى كانت تنظمها

حركة السلام الآن. كما شاركت أيضاً فى مظاهرات حركة ناطورى كارتا الرافضة للصهيونية الذين يؤمنون بعدم إعلان الدولة قبل مجيء المسيح.

حتى جاء ذلك اليوم الذى كانت فيه تقوم بالتصوير فى القدس عند حائط المبكى وفوجئت بشاب متطرف يهودى هكذا يدل مظهره وخطبها بالعبرية بأن هذا المكان غير مخصص للسيدات خصوصاً حاسرات الرؤوس كما تقول الهلاخاه؛ الشريعة اليهودية. أخذت المفاجأة أمل، لم تدرك ما يريده منها هذا الشاب.. هل يدرك أنها مسلمة أم ظن أنها يهودية ولا يجوز لها أن تقف عند حائط المبكى لأنها أنثى طبقاً للشريعة اليهودية. كما أنها لم تدرك أن تلك الشريعة تطالب المرأة اليهودية بتغطية الشعر.

ألجمت المفاجأة أمل لبضع ثوانى قبل أن ترد على الشاب بعبرية سليمة أن هذا ليس من شأنه وأنها حرة فى تواجدتها بالشكل الذى تريده وفى المكان الذى تريده. إلا أن الشاب انفعل عليها ولطمها على وجهها حتى سال الدم من وجنتيها فدفعته فى صدره بقوة قبل أن يأتى رجل الأمن الإسرائيلى ويبعدها ويقبض على الشاب الإسرائيلى.

إلا أن أمل أعلنت للجميع عن فلسطينيتها بإخراجها الكوفية التى تحمل ألوان العلم الفلسطينى وتلحفت بها، فما كان من الجندى إلا أن قبض على أمل هى الأخرى حتى لا يظهر أمام مجموعة المتدينين اليهود الواقفين أنه نصر الفتاة الفلسطينية على ابن جلدته الشاب اليهودى المتدين وأخذهما سوياً إلى المخفر.

(٦٣) الجيتو

يصحو من نومه فزعاً يلهث بقوة.. نهر من العرق الغزير يتصبب من رقبتة ليتفرع إلى جداول تمر بين شعيرات صدره.. ينهض ليرتشف بعض الماء...

أما أن لهذا الكابوس أن ينتهى! لقد قاربت على الستين من عمرى وما زال هذا الكابوس يلاحقنى منذ كنت طفلاً.. لقد أوشكت على الانهيار.. حتى العلاج النفسى لم يعد مجدياً.. لم أعد أحتمل هذه الذكريات التى أثقلت كاهلى عبر السنين كأننى سيزيف أحمل عمرى فوق ظهري وأصعد به جبل الحياة فى عذاب أبدي لا ينتهى.. لقد تعبت حقاً من هذا العبث اللانهائى، كيف يتكرر هذا الحلم بنفس السيناريو كل ليلة؟ لماذا لا تتغير أحداثه.. كيف يستطيع العقل الباطن تصوير نفس المشاهد يومياً؟! المشاهد يومياً؟!

ألا يحدث فى حياتى كلها شىء يستحق أن يدخل فى سياق الأحلام.. لماذا يحتل هذا الكابوس آلة العرض بالكامل دون تجديد؟!!!

طفل عمره ثلاث سنوات يصرخ باكياً من الجوع يحمله أبوه فى جزع يحاول أن يهدده حتى يصمت، لا يريد الأب أن يسمع أحد بكاء طفله حتى لا يستدل الألمان على مكان ذلك المبنى المهجور الذى يختبئون فيه. تهرع الأم بين فضلات القمامة لتبحث عن أى شىء تسد به رمق الطفل ولا تجد شيئاً، ألهمها تفكيرها أن تدق أحد أبواب المنازل القريبة لكى تطلب قطعة خبز ولو صغيرة.

تفتح لها الباب إحدى السيدات وما إن تلقى تلك السيدة بنظرها على ذراع الأم الأيمن حتى تفزع وينتابها الصراخ وتتادى زوجها بالداخل..

تهرب الأم مطلقة العنان لساقها عائدة إلى البيت المهجور.. لقد أنساها خوفها على طفلها الجائع أن تخلع الشارة من على ذراعها فقد كان محظوراً في ذلك الوقت على كل اليهود في بولندا عدم ارتداء شارة عليها نجمة داود لكي تدل عليهم. هذا ما جعل هذه الأسرة البائسة تحاول الاختباء من الألمان في هذا البيت المهجور بلا طعام أو شيء يسد رمقهم أو يروى عطشهم.. إلا أن القدر لم يكن ليمهل تلك الأسرة حتى صباح اليوم التالي لتنهأ بحريتها رغم عذاب الجوع؛ فقد طارد أحد الجنود الألمان الأم وهي تحاول أن تخلع نجمة داود من يدها بعد أن سمع صياح السيدة التي فتحت لها الباب تصرخ: يهود.. يهود.

هنا بدأت مطاردة الأم بجندى واحد يركض خلفها في الطرقات والشوارع الضيقة وانتهت بعشرة جنود يقبضون عليها ويكبلونها من يديها وقدميها قبل أن ترتمي في أحضان زوجها الذى خرج بحثاً عنها فوقع هو الآخر فى الأسر.

لقد شاهد الطفل ذو الثلاث سنوات أباه وأمه وقد صارا هدفاً لضربات وركلات الجنود حتى سألت منهما الدماء أنهاراً، حتى سمع أحدهم صراخ الطفل مختبئاً خلف جدار فجذبه من ملابسه وألقى به بوحشية فوق جسد أمه قبل أن يحملوهم جميعاً داخل العربة لكي يتم ترحيلهم إلى جيتو وارسو الذى بناه الألمان النازيون لعزل اليهود فى داخله.

لم تحتمل الأم الحياة داخل تلك الغرفة الضيقة القذرة التى تم تخصيصها للأسرة داخل الجيتو، ووهن جسدها تماماً بسبب قلة الطعام الذى لم يكن يزيد عن حبة من البطاطس يومياً.. وماتت وجلدها يكاد يلتصق بعظامها! وغرق الأب فى أحزانه على زوجته، حتى جاء ذلك اليوم الذى حاول فيه الألمان تفكيك جيتو وارسو وإبادة سكانه. حاول بعض سكان الجيتو المقاومة لكن دون جدوى وتم إبادة معظمهم ومنهم

والد الطفل الذى قاوم ببطولة وشجاعة حتى مات بعد أن أصابته إحدى القذائف النازية فى رأسه مباشرة.

و عندما شاهد الطفل الدماء وهى تتفجر من رأس أبيه اطلق ساقيه للريح هاربًا خارج الجيتو من أحد الأماكن السرية التى كان يعرفها جيدًا أثناء مشاركته فى اللعب مع أطفال الجيتو. فضل يجرى حتى انهار تمامًا من التعب والتقطه رجل دين مسيحى خبأه فى الكنيسة وأطعمه ولم يفصح لأحد عن مكانه حتى انهزم الألمان فى الحرب ودخل الروس بولندا.

كيف يتأتى لأى يهودى نجا من معسكرات التعذيب النازية أن يفعل نفس الشيء؟

كان المحامى يوسف أهارون يفكر فى أحوال المخيمات الفلسطينية التى زارها فى غزة ولبنان، والمعاناة التى يحياها الفلسطينيون بها، التى ذكّرت به بشكل أو بآخر بمعاناة أسرته داخل جيتو وارسو وكابوسه الأبدى الذى يراه كل ليلة.

لقد اتهمه الحاخامات بأنه كلب العرب وعدو الهالاخاه (الشريعة اليهودية).

لقد ظل طيلة حياته يدافع عن السكان العرب فى إسرائيل وسكان المخيمات، كان يتذكر قضاياها التى ترفع فيها فى المحاكم الإسرائيلية.. تلك الفتاة التى فقدت أسرتها بالكامل نتيجة قصف الطائرات لمنزلها على شاطئ غزة.. أى تعويض سوف تحكم به المحكمة يمكن أن يعوض هذه الفتاة عن أسرتها!

وهذا الشاب الذى ضربه الجنود، أمام زوجته وابنه الرضيع، حتى

أقعدوه تماماً عن الحركة لأنه دافع عن تلك السيدة العجوز التي استجذبت به بعد أن لطمها ذلك الجندي على وجهها فاحتضنت التراب.. أى محكمة فى العالم يمكنها أن تعوض هذا الشاب عن ساقيه وتلك العجوز عن كبريائها؟!

هذا غير كم القضايا التى هدمت فيها السلطات الإسرائيلية مساكن الفلسطينيين وقرأهم لتذهبها للمستوطنين الغرباء الذين ليس لهم أدنى علاقة بزيتون هذه الأرض وبرتقالها.

أى المحاكم يمكنها أن تعوض هؤلاء الفلسطينيين عن تشريدهم بلا مأوى، ونظرة الذل فى أعينهم عندما يبصرون مستوطنًا يحمل بندقيته لكى يحمى بها منزله الجديد الذى بناه على أنقاض ذكرياتهم وتاريخهم!

قطع رنين الهاتف حبل أفكاره. لقد اتصل به صديقه معين يطلب منه أن يذهب إلى المخفر ليدافع عن أمل التى تم القبض عليها عند حائط المبكى. فارتدى ملابسه على الفور وتوجه إلى مخفر الشرطة ليقف إلى جوار ابنة أخ صديق عمره.

(٤٦) الحساب

عندما دخل عليها غرفة التحقيق كانت أمل فى حالة من الغليان.. لم تجد من تصب عليه جام غضبها غير السيد أهارون، الذى لى نداء صديقه مسرعاً إلى المخفر حتى دون أن يخلق ذقنه أو يضبط هندامه. خاطبها بالعربية التى يجيدها:

- كيفك يا أمل؟ شو القصة!

أجابته فى حدة:

- عم تسألنى يا سيد أهارون.. أنا عم خبرك القصة: هيدى مو دولة هيدى عصابة! تتشدقون بالديمقراطية واحترام حقوق الإنسان وأنتم أبعد ما يكون عن ذلك.

- اهدى شوية يا أمل وخبرينى يا بنتى.

- شو بدك تعرف.. أنا واحد ضربنى على وجهى وبالأخير قبضوا علىّ أنا ما باعرف ليش؟ ومن شأن تكمل التمثيلية بعنوا إلى محامى إسرائيلى.. فعلاً هيدى واحة الديمقراطية.

- لا يا أمل أنا ما فى حدن بعتنى أنا هون بعد ما معين حكانى.

- هذا هو الشكل الذى عم بتحاولوا تسويقه للعالم أن هناك أصوات هادئة عاقلة مثلك يا سيد أهارون يدافعون عن الفلسطينية، ولكن للأسف يا سيد أهارون لا فرق بين صقوركم وحمائمكم.

- أنا لن أدخل معك فى هذه المجادلات الآن يا أمل ولكن فيكى تسألنى

معين عنى مثل ما بدك لكن الحين أهم شى أخرجك من هون.

- كيف بدك تخرجنى من هون وأنت ما بتعرف تهمنى ولا أنا بعرف شو التهمة!

- احكىنى شو اللى جرى بالضبط.

- بعد ما المتطرف اليهودى ضربنى ما باعرف ليش خطر ببالى أنى أعرفه أنى مو يهودية من شان يتركنى لحالى فسحبت كوفيتى ياللى عليها علم فلسطين وحطيتها على كتفى بعدها قبض عليا الشرطى كأنى أنا الجانى مو المجنى عليه.

- آه أنا فهمت الحين.

- شو.

- الجندى اعتبر أنك رفعتى علم دولة أخرى وهيدا مخالف للقانون الإسرائيلى.

- أى قانون هيدا اللى بده يحرمنى إنى أرفع علم بلدى؟! هيدا ما هو قانون هيدا ظلم.

- باعرف يا أمل، أنا وعمك معين حاربنا طول عمرنا من شان الفلسطينيين يرفعوا علم بلادهم مثل الإسرائيلىة بالضبط.

- وشو اللى حصل؟

- للأسف لم نتمكن حتى الآن من تحقيق شىء.

- شفت يا سيد أهارون الحمائم فى إسرائيل لم يحققوا أى شىء
للفلسطينيين مثلهم مثل الصقور.

ظل يوسف أهارون يذكر لأمل بعد ذلك كيف أنه ظل طيلة أكثر من
ثلاثين عامًا يدافع فيها عن حقوق الفلسطينيين فى حياة كريمة تقوم على
المساواة والعدل وكانت صولاته وجولاته فى المحاكم الإسرائيلية مادة
غنية تملأ صفحات الجرائد ونشرات الأخبار.

أخبرها أنه لم يكن يفعل ذلك تقضلاً، منه ولكنه كان مقتنعاً أن ذلك
هو محض حق لا يتجزأ للفلسطينيين مثلهم مثل أى مظلوم يطالب
بحقوقه المشروعة وأنه لم يكن ينشد من وراء ذلك أى شهرة أو مال أو
أن يقال عنه أنه من الحمائم، ولكنه كان مؤمناً بحقوق من يدافع عنهم.

لقد عشت مع الفلسطينيين بالمخيمات لم يكن عندهم مشكلة فى
التعامل مع اليهود كانت مشكلتهم الكبرى مع الجنود الإسرائيليين هؤلاء
هم من يعبر عن الوجه القبيح لإسرائيل. فى إحدى المرات التى رأيت
فيها بعض الجنود يضربون شاباً فلسطينياً فى الضفة نهزتهم عن ذلك
وقلت لهم لقد علمكم النازيون كيف تصبحون مثلهم، لقد أصبحتم بلا
قلب وبلا عقل.. من الطبيعى أنكم سبب هذا الكره بين العرب وإسرائيل
بوحشيتكم وغباكم.

كنت أنفهم كرهه أمل للإسرائيليين عموماً، حتى وإن كانوا مثلى من
الحمائم على حد ذكرها؛ فأنا نفسى ظلمت أكره الألمان بالمطلق شعباً
وحكومة حتى بعد زوال النازية بسنوات. إن ما ترسخ فى ذهن يظل
محفوراً فى الذاكرة لا يبرحها، وخطأ إسرائيل التاريخى يتمثل فى
إشاعة الكره والأحقاد بين الجانبين بهذه الممارسات النازية التى لن
تعود على إسرائيل بالخير أبداً. سوف نظل فى هذا الجيتو حتى لو

ادعينا أنه دولة، فالحياة وسط وبين شعوب تتركهك ما هو إلا جيتو كبير
تحاصر نفسك فى داخله.

لك كل الحق يا أمل أن تشكى فى نواياى فأنا بالنسبة لك مجرد
إسرائيلى يهودى، حتى وإن كنت ملحدًا سأظل بحكم الميثولوجيا بالنسبة
لك عدوًّا لا يجب التفاهم معه كإنسان.

لقد ساهم زعمائنا السياسيون فى تلك المأساة التى سوف تظل أبد
الدهر، لقد حولوا إمكانية التعايش السلمى بين الجانبين إلى هراء أو
ضرب من المستحيل.

وهذا يفسر احتفال الفلسطينيين وتهليلهم عندما قذف صدام صواريخه
على إسرائيل، إنه حالة من التشفى فى هذا الكيان المغتصب الذى لم
يقدم أى بادرة على التعايش مع الطرف الآخر.

ما هى جريمة أمل أو الفلسطينيين سوى أنهم ولدوا فى فلسطين.. هل
هذا معقول! إنه تشويه ولىُّ للحقائق. كيف سئنتهم هتلر بالوحشية
واللاإنسانية بعد الآن ونحن نفعل مثله تمامًا؟!!

أفقت على صوت أمل وهى تصرخ فى وجهى وتقول: إن ما فعله
هذا الشاب معى سوف يجعلنى ألتهم كبده إذا امتلكت القوة التى أفتقدها
الآن، لن أترك ثأرى معه بدعوى التعايش والسلام الذى أثقلت رؤوسنا
بحديثكم أنت وعمى عنه.

هدأت من روع أمل. كنت واثقًا أن الموقف الذى تعرضت له كفيل
بأن يحولها من هذا الشخص الوديع الهادئ إلى هذا الوحش الذى عبرت
عنه بكلماتها تلك.

خرجت من المكتب وتحدثت إلى الضابط المكلف بالتحقيق فى الواقعة وقلت له بأى قدر من العدل يمكنك أن تدعى وأنت تقبض على المجنى عليها وتترك الجانى تحت دعوى وهمية.

هددته بأنها إن لم تنم فى بيتها الليلة فإن جميع صحف تل أبيب والعالم سوف تتعنك بالنازية فى صباح الغد بسبب احتجازك لفتاة فلسطينية أبوها عضو بالكنيست تم ضربها من متطرف يهودى قبيح كان يضربها باعتبارها فتاة يهودية تخالف الشريعة.. لمجرد أنها تحمل كوفية فلسطينية.. ترى أى عار سيلحق بك!

كانت كلمتى القاسية للضابط كفيلة بإخراجه لأمل خارج المخفر بل وتوصيلها بسيارة الشرطة لمنزل أبيها.

(٦٥) الدكتوراة

كان يوم حصولى على الدكتوراة يوماً مختلفاً لقد كان ذلك اليوم تنويجاً لجهود خمس سنوات مضيئة من العمل والكفاح فى هذه المدينة المزدحمة.. لذا قررت أن أحظى أخيراً بأول أجازة أقضيها كسائح ينقب عن مكنونات تلك المدينة الساحرة الذى لم يسمح لى الوقت أن أتعرف عليها بالشكل اللائق.

خرجنا أنا وليندا مع نواف وريتا للاحتفال بهذه المناسبة.. ركبنا الدراجات فوق جسر بروكلين، ثم تناولنا غداءنا فى مطعم كينيدي الذى يقع فى وسط منهاتن، ثم ذهبنا للتسوق فى تايم سكوير أعقبها جولة بحرية فى نهر هدسون، ثم متحف الفنون الحديثة.

أمام لوحة الجارية لماتيس سألتنى ريتا مداعبة: لماذا تجلس الفتيات هكذا فى بلادكم؟

همست فى أذنها:

- يمكنك أن تسألى ماتيس عن ذلك لا أنا.

ثم مررنا بلوحات بيكاسو جميلتى وهى تمثل بداية المدرسة التكعيبية ثم لوحة الغداء وأنسات أفينون.

علقت ريتا:

- إنها الصورة النمطية للشرقى الذى يتباهى بمعلوماته أمام البيض.

همست فى أذنها:

- أنا فقط أحاول أن أعلم السيدة البيضاء هذا الجانب من الحضارة.

نهرتها ليندا:

- كفاك ضجرًا يا ريتا دعينا نستمع باللوحات.

- آسفة.. أنا أمزح قليلاً.

- أعرف ذلك لكنك تجاوزت حدودك.

علق نواف:

- يا شباب دعونا نستمع، هل أنتم هكذا ناقر ونقير!

- ما معنى هذه الجملة أيها الفلسطيني؟!!

- معناها ما يحدث بين اثنين يتجادلان كثيرًا ولا ينتهى سجالهما أبدًا.

نظرت ريتا إلى:

- وهل أنا وأنت كذلك أيها السيد المصرى؟

- لا يا صديقتى الأمريكية نحن نمزح فقط.

- هذه اللوحة هى مسك الختام الجرنىكا لبيكاسو، التى تجاوز فيها المدرسة التكعيبية لينضم إلى رسامى السيريالية. ويحكى لنا فى هذه اللوحة عن الحرب فى إسبانيا عن طريق الرموز كالحصان المنهار هذا ويمثل بلده الذى كان ينهار تحت وطأة الحرب.

احتضنت ليندا وقبلتها قبل أن نخرج من المتحف فى طريقنا إلى

أوبرا نيويورك لحضور حفل أوركسترا يعرض مقتطفات من
سيمفونيات بيتهوفن ثم يعرض سيمفونية تسمى صور نيويورك
لمولينى.

داعبتنى ريتا:

- ألن تعطينا بعضاً من معلوماتك الغزيرة عن الموسيقى أيضاً؟!

- لا.. لن أسمح لك هذه المرة بالسخرية منى.. نواف وليندا يفهمان
فى الموسيقى أكثر منى.

أجابت ليندا:

- أنا أحب الموسيقى الحديثة لمندلسون أو مولينى.

- أنا بصراحة أفضل موسيقى القرن الثامن عشر لبيتهوفن وهيدن
وموتسارت.

أضاف نواف:

- أما أنا فأعشق باليهات تشايكوفسكى وفالسات شترواوس.

- ما أجملك أيها الفلسطينى أنا أيضاً أحب الفالس كثيراً.. هيا ارقص
معى.

حاولت ريتا أن ترقص مع نواف فى الشارع، ولكن خجله منعه من
مجاراتها فرقصت أنا معها. وأضافت:

- صديقك خجول لكنه جميل.. دعنى أعوضك عما فعلته بلادى

ببلدك وأتزوجك.

- لن تستطيعي تعويضه يا ريتا مهما فعلتِ فالجريمة الأمريكية لا تغتفر.

ثم طبعت قبلة على خد نواف، الذى قال:

- ليت كل الأمريكيين مثلك يا ريتا.

لاحظت أن ليندا ساهمة طوال الوقت ولا تتداخل كثيرًا فى الحديث معنا حتى دخلنا إلى المسرح وبدأت معزوفات بيتهوفن تحيل المكان إلى جنة وارفة الظلال تحوطها الشلالات والخضرة وطيور الكناريا.

بعد انتهاء العرض افترقنا وركبت السيارة مع ليندا لكنها ظلت ساهمة لا أعرف سببًا لحالتها تلك! هل تماديت فى المزاح أكثر من اللازم وأهملتها؟!

وصلنا إلى البناية التى أسكن فيها، وعرضت عليها أن تصعد معى لكنها رفضت بحجة الصداع وتركتنى وانطلقت.

الانتفاضة (٦٦)

نامت أمل تلك الليلة ولم تكن تعرف أن إسرائيل كلها سوف تصحو على بركان من الغضب قد نضجت حمم نيرانه وأن لها أن تنفجر.

لقد بدأت الانتفاضة الثانية تهز عرش إسرائيل.. انتهاكات بين الشباب الفلسطيني الثائر والإسرائيليين.

لم تتمكن أمل من كبح جماحها الصفي وانطلقت إلى القدس، لم تعر اهتماماً لملاحقات زوجها معاذ أو الإسرائيليين أو حتى حماس التي كانت قد عزمت على اختطافها وإعادتها سالمة لوالدها. كانت قضيتها أكبر من كل هؤلاء، لقد قامت الانتفاضة ويجب أن تشارك فيها بكل جوارحها، أن تنقل للعالم ما يدور في إسرائيل، لا بد أن تقضح ذلك الوجه القبيح للإسرائيليين وتنكيلهم بالشعب الفلسطيني الذي لم يفعل شيئاً غير أنه يطالب بحقه المشروع في الحياة.

لا تغضب مني يا عمى سوف أخالف تعليماتك هذه المرة، سوف أخرج من حيفا دون حراسة، سوف أسجل بالقلم والصورة بطولات شعبنا الأبى لحظة بلحظة، لا تقلق علىّ يا عمى، إنها اللحظة التاريخية التي كنت أنشدها من الزمن طيلة سنوات عمري، أنا الآن فلسطينية وأفتخر.. لن نرضخ أو نرضى بالذل أو الهوان لن نفعل مثلكم أنت وأبى.

سوف نقاوم ونضحي بأرواحنا في سبيل الكرامة، فلتبق أنت يا عمى في جددك الدائم في الكنيسة وصادقتك في المساء للسيد أهارون. وليظل أبى يبني لنفسه أو هاماً من الرماد في بلد آخر، وليبق أبو عمار محاصراً في رام الله تداعب خيالاته ذكريات أوسلو المريحة للأعصاب.

لن أفعل مثلكم جميعاً سوف ألقى بنفسى من فوق هذا الشلال
لأغوص فى نهر الوطن المتدفق العارم نقف فى وجه الظلم.. نخلى
قطعة من أرضنا السليبية نفرغها من آثار البارود لنزرع فيها البرتقال
مرة أخرى ندافع عنها بصدورنا، نرقص الدبكة ونضرب الأرض بقوة
تفجر منها الخير والحب.

كانت أمل تلقى الحجارة على الجنود والمدرعات الإسرائيلية مع
أطفال وشباب الانتفاضة بكل قوة. تذهب إلى غزة والضفة الغربية
تصور الانتهاكات الإسرائيلية عبر المعابر تساعد فى نقل الجرحى إلى
المستشفيات القريبة، تصور الدماء الفلسطينية الطاهرة وهى تنساب
فوق أجساد أصحابها.

كانت ترسل تقاريرها إلى الجريدة فى لندن كل ساعة، كانت تقوم
بالتصوير بنفسها.

بكت أمل كثيراً وأبكت العالم عندما نشرت فى صحيفةها صورة ذلك
الجندي الإسرائيلي القذر وهو يحمل جثة طفل فلسطينى رضيع ويستمتع
برؤية الدماء وهى تتفجر من عنقه بعد أن قطع رأسه.

ثم جاءت قصة محمد الدرة الطفل الذى مات بين يدي والده المذعور
من انهيار رصاص الجنود عليهما.

لم أتمكن من المقاومة وأجهشت بالبكاء من هذه المشاهد الدامية
والأخبار السوداء.. ما هذا العبث؟ كيف يسكت العالم على ذلك؟!!

لقد شعرت بالتقزم وأنا أقرأ ما تكتبه أمل فى جريدتها.. إنها هى
البطلة أما أنا فلا شىء على الإطلاق.

يأكلنى القلق والخوف عليها ولا أستطيع أن أفعل لها شيئاً، لا أستطيع حتى أن أنقذها من هذا الجندى الذى لطمها وحطم كاميراتها فى أحد أيام الانتفاضة.

أنا جبان يا أمل ولست أهلاً لهذا الحب ولا أستحقه.. فأنا هنا أمرح مع الفتيات فى بلاد العم سام وأنت من تعرضين حياتك للخطر فى كل دقيقة وبمنتهى الشجاعة والإقدام.

إنه لعار علينا جميعاً أن نقف هذا مكتوفى الأيدى ولا نفعل شيئاً.. ليس هذا من الشهامة والمروءة التى أخبرونا عنها فى كتب التاريخ العربى القديم.

إن مكانى ليس هنا لن أبقى فى أمريكا بعد الآن وأترك أمل وحيدة وسط الذئاب والأفاعى. لا بد أن أذهب إليها، لا أعرف كيف ولكن لن أجلس مكتوف الأيدى.

هنا أخرجنى الرنين المستمر لجرس الباب من انفعالاتى وهرعت إلى الباب.. فتحته بقوة لأجد قوات SWAT التابعة لمكتب التحقيقات الاتحادى دخلوا الشقة عنوة وانتشروا بكل ركن فيها، قبل أن يقرأ أحدهم علىّ حقوقى وهو يطرحنى أرضاً ويكبل يدي من الخلف.

FBI (٦٧)

- لماذا تتحدث بالإنجليزية يا أخى؟ نحن عرب مثل بعضنا أنا على حداد من مكتب التحقيقات الاتحادية، أنا من أصل لبنانى من بيروت صاحبة الغربية وجيت على هون وعمرى ١٠ سنوات.

كان والدى دائماً يخبرنى عما كانت عليه أحوال لبنان قبل الحرب الأهلية عندما كانت بيروت باريس الشرق.. كانت بلادنا العربية مشهورة بثقافتها ومفكرها وجمالها الطبيعى خصوصاً فى مصر. أنا قرأت نجيب محفوظ والعقاد وتوفيق الحكيم وأمى كانت تعشق صوت أم كلثوم.

لكن صدقنى أنا لم أرَ ذلك الجمال أبداً، كل ما كنت أتذكره فى مثل هذه السن الصغيرة هو الحروب التى نشبت بين الميليشيات ومنظر المسلحين الفلسطينيين وهم يجولون بسياراتهم الجيب شوارع بيروت يلوحون ببنادقهم الرشاشة ويصوبونها نحونا.

بعدها هاجرنا إلى الولايات هون ومن يومها شعرت بالأمان.. أمريكا هى البلد ياللى رحبت فينا واتعلمت فيها وحصلت على وظيفة هى حلم لكل أمريكى.

- لا أعتقد يا سيد حداد أننى هنا لكى أستمع إلى قصة حياتك فى أمريكا!

- لا أبداً أنا باعتذر لآلك أنت أكيد بتعرف كيف الواحد فينا عم يشتاق لحدن من بلاده يحكى معه بالعربى.

- أنا حقيقى اتشرفت بمعرفتك لكن عايز أعرف سبب وجودى هنا..

أنا فى نيويورك من خمس سنين وعمرى ما ارتكبت أى مخالفة!

- باعرف يا خيى هيدا واضح فى ملفك.. الموضوع وما فيه إنك هون من خمس سنين ونجحت فيها وصار إلك كاريير وحياة وهيدا بيخليك مثلى تمامًا مدين لها البلد.. مو هيك؟

- لا أستطيع إنكار ذلك.

- طيب ليش يا أخى كل هذا الكره لأمريكا؟! ليش بتكرهنا؟

- مين اللي قال كده.. أنا بحب أمريكا جدًا وعايذ أعيش هنا على طول.

- فى خبرية وصلت لنا بالمكتب إنك بتحكى بالجامعة ومع الطلبة بأن أمريكا هى الشيطان الأعظم مثل ما بيقولوا الإيرانيين.. إنت شيعى؟؟

- لا.. أنا مسلم سنى، كما أن التشيع ليس تهمة.

- آه.

- شوف يا أخ على دى مجرد وشاية قذرة وأنا أعرف مين اللي بلعكم.

- مين؟

- ماكس.

- فلنفرض أنه بلغنا هو مواطن أمريكى خايف على بلده.

- لا دخل لأمريكا بالموضوع.. الموضوع مجرد صراع على فتاة بدأت أواعدها بعد إنفصالها عنه.

- تقصد ليندا؟

- ما أنت عارف كل حاجة!

- طبعًا.. أكمل.

- مش معقول يكون مكتب التحقيقات الاتحادى مشغول بالصراع على الفتيات يا سيد حداد؟!

تغير وجه على وحاول أن يدارى بعض الانفعال قبل أن يرد:

- أنتم المصريون تحبون المراوغة يا أخى.

- أبدًا أنا بس باوضح الأمور.

- مين حازم؟

- آه قول كده بقى! زيارة حازم لى فى الجامعة وصلت الـ FBI فورًا.

- زارك فى بيتك وقضى معك يومين أليس كذلك؟!

- نعم.. حازم صديقى منذ الطفولة وافترقنا منذ خمس سنوات أنا جيت على أمريكا وهو راح أفغانستان.

- قصدك إنه إرهابى؟

- لو هو إرهابي ليه سمحتوا له يدخل البلاد بجواز سفر سليم.

- لم نكن نعرف عنه شيئاً.

- والآن؟

- نعم أنت خبرتنا الحين انه إرهابي.

- أنا لم أخبرك بشيء.. أنت من أطلقت عليه هذا اللقب.

- وكيف تستضيف إرهابياً من تنظيم القاعدة بشقتك.

- أنا قلت لك إنه صديق عمرى ولم يكن مطلوباً من السلطات الأمريكية فلم يكن بوسعى أن أرفض استضافته.

- عرفت منه أى معلومات خاصة بالزيارة؟

- قال أنه أحضر بعض الأموال لبعض الدارسين فى أمريكا.

- شو بيدرسوا؟

- الطيران.

- شو أسمائهم؟

- لا أتذكر.. أحدهم اسمه زياد وآخر تقريباً اسمه مروان.. لم أهتم أن أعرف أسمائهم بالطبع.

- خبرك عن الأماكن اللى راحها.

- أيوه أظن.. مسجد الفاروق فى بروكلين.

- ألم يثر ذلك فيك أى نوع من الشك؟!

- نعم.

- لماذا لم تبلغ عنه إذن؟

- أعتقد يا سيد على أن مسجد الفاروق ليس مكانًا سرّيًا.. إنه يمارس أنشطته تحت بصركم ومن أيام الثمانينيات عندما كان يجند الشباب المسلم للجهاد فى أفغانستان تحت رعاية الحكومة الأمريكية.

- الوضع تغير الآن يا صديقى.

- نعم أعرف ولكن لم يكن حازم يحمل معه أى شىء يثير الريبة.. لا أسلحة ولا قنابل.

- هل يخبرك حازم دائمًا بسفرياته. حول العالم؟

- نعم يخبرنى أحيانًا.. كانت كلها لدعم المراكز الإسلامية بالدول التى يزورها.

- فيك تخبرنى عن آخر مرة؟

- آخر مرة كان بألمانيا كان رايح المركز الإسلامى بهامبورج وميونخ.

- سبب الزيارة؟

- تحويل بعض الأموال لدعم الأنشطة الدينية.

- آه! أنشطة دينية.

- نعم هذا كل ما قاله لى ولم أهتم بالتفاصيل.

- خبرك إنه سافر اليمن؟

- نعم كلام بسيط.

- قبل تفجير كول ولا بعدها؟

- قبل.

فاجأنى بالتفاته مباغته:

- تعرف واحد اسمه خلاد؟

- لأ.

- ولا القصع أو أبو جندل؟ (كان هؤلاء الثلاثة من المتورطين فى تفجير المدمرة الأمريكية يو إس كول فى اليمن).

- لأ.

- سألته عن عملية تفجير المدمرة كول؟

- نعم أخبرنى أنه لا دخل لهم بها.. إن الفاعل مواطن يمنى غيور على دينه استغفره وجود الباخرة الأمريكية العملاقة فى عدن وأطفال فلسطين يموتون كل يوم بالأسلحة الأمريكية فقرّر أن يفجرها.

- وأنت صدقته؟!

- ليه أكذبه!

- لأن الحقيقة غير هيك. أنا كنت هناك فى اليمن وعندنا معلومات أكيدة أن الفاعل هو تنظيم القاعدة.

- أنت أدري.

- وأنت شو رأيك بأسماء بن لادن هل تحبه؟ هل تفرح عندما ينفذ أى عملية؟

- لأ طبعًا أنا باعتبره إرهابى وقاتل.

- طيب ليش ما بتحاول تنقذ صديقك منه؟

- حاولت ولم أوفق.. هو مقتنع تمامًا بما يفعله.

- حكى لك شىء عن ماليزيا؟ (كان حداد قد عرف معلومة أن خلاد قد اتصل برقم هاتف عمومى فى كوالا لامبور بماليزيا، ولم يعرف ماذا تصنع القاعدة هناك حتى أن الاستخبارات الأمريكية أخبرتهم أنها لا تعلم شيئًا عن ذلك... ثم اتضح بعد ذلك أن المخابرات أخفت معلومات عن اجتماع لتنظيم القاعدة هناك عن الـFBI).

- لأ.

- متى كانت آخر زيارة إليك للقاهرة.

- لم أسافر للقاهرة منذ أكثر من خمس سنوات.

- مين بيتصل فيك من هناك؟

- أهلى وأصدقائى.

- ما هى أسماؤهم؟

- اطمئن يا سيد حداد لا يوجد أحد منهم على علاقة بتنظيم القاعدة غير حازم.

- طيب ورام الله؟

- آه لى صديقة تعيش هناك.

- أمل بنت المهندس حسن الزهار.

- أنت تعرف كل شىء.

- إيه علاقة أمل بحماس؟

- لا توجد علاقة.. غير أن حماس فرع من الإخوان المسلمين ومنهم طبعاً المهندس حسن.

صمت قليلاً ثم علت نبرة صوته ونظر إلى كمن يوجه اتهاماً مباشراً:

- إنت مو شاييف أن موقفك غريب شوى يا زلمة!

- ليه؟!!

- يعنى إلك صديق إرهابى بتنظيم القاعدة واستضافته ببيتك وعم تحكى بالتليفون مع صديقة من حماس وأبوها على علاقة بالمجاهدين..
فيك تشرح لى هالتركيبة!

- أبدأ الموضوع بسيط يا سيد حداد.. أنت نفسك كنت بلبنان وقت الحرب الأهلية وكان ممكن يقولوا عليك إرهابى.

احمر وجهه من الغضب الذى حاول جاهداً أن يكتمه ثم قال بهدوء:

- إنت فيك تبقى معنا شوى.

- ليه أنا متهم بأيه؟

- لا توجد تهمة محددة يا صديقى.

- لا تقل لى صديقى.

- دخيلك يا زلمة تهدى أعصابك نحنا بنحتاجك هون من شان تتعاون معنا وتخبرنا معلومات عن حازم ممكن توصلنا لخيوط تنظيم القاعدة.. من شان هيك بنحتاجك تبقى معنا هون.

- لحد إمتى؟

- لا تخاف يومين على الأكثر.

- ده انتهاك صريح لتحذير ميراندا يا سيد حداد.

فقد على أعصابه قبل أن يصرخ فى وجهى:

- أنت متهم بالتعاون مع تنظيم القاعدة وحجب المعلومات عن السلطات الأمريكية.

(٦٨) الكابوس

الضباب يلف المكان بالكامل، الرؤية منعدمة، شاحنات تدخل إلى المرآب محملة بصناديق تفرغ شحنتها موزعة على أدوار المبنى ثم تخرج في هدوء دون أن يسألها أحد لماذا دخلت وماذا أفرغت.

يظهر السيناتور ويليام خلف الغيام يصرخ في السماء عودى يا ابنة صهيون.

بعض الموظفين فى برج التجارة العالمى يخرجون من المبنى قبل بداية يوم العمل بعضهم يرتدى قبعة اليارمولكا السوداء خلف رؤوسهم.

هيلين وبعد انتهائها من طقس الاعتراف تكتشف أنه لا أحد يستمع إلى اعترافاتها وأنها ظلت طيلة هذه السنوات الأخيرة تلقى باعترافها إلى العدم.. لا أحد هناك. تجرى إلى ديفيد لتخبره أن توم.. ابنه.

الشيخ وحدى يتفحص جباه كل من يمر من البوابات.

الشيخ خالد يقف عند حافة نهر هدسون يلعب لعبته المفضلة.. لعبة الطائرات.

حازم ومروان وزياى وعطا ربطوا أحزمتهم استعداداً للانطلاق من مطار بوسطن على متن الرحلة أمريكان إيرلاينز رقم ٧٧.

أمل تخرج من منزل عمها فى حيفا وتركب سيارتها يراقبها من بعيد معاذ وفى الجهة الأخرى سيارة يقودها ملتج.

- لقد رأيت عدنان يا معين إن صورته تظهر فى إحدى الجرائد.

- من عدنان هذا يا عزيزة إنه يوسف صديقى.. حماس خطفته لأنه محامى إسرائيلى.

- إنه حبيبى كنت أعلم أنه لم يمت يا معين.. كنت أعلم!

- إنه ابنك يا ديفيد إنه نتاج تلك العلاقة المشبوهة بيننا.

- لماذا لم تخبرينى وقتها؟

- ماذا كنت ستفعل إنه صديقك وكان يعرف كل شىء.

- كيف؟!؟

المهندس حسن يجمع أصدقائه ويقدم لهم اللبن والتمر

- اليوم سوف ينصرنا الله.

ويليام يشرب نخب الصداقة فى تلك الحفل التى دعت إليه الإيباك على شرفه. ينظر محدقًا فى صورة نجمة داود كبيرة معلقة على الحائط يتوسطها صليب صغير.

ألمح ماكس من بعيد يحيط ذراعه حول خصر ليندا وينظر إلى محدقًا بعد أن قذف فى وجهى بابتسامة شامتة.

أنادى ريتا ولا تسمعنى.. تضع فى أذنيها سماعة تلقى إلى سمعها بقصائد محمود درويش.

توم علم من والدته حقيقة أبيه فأصر أن يذهب إليه فى مكتبه بمركز التجارة فى الصباح، وفى يده جوان ويخبره أنه قرر السفر معها إلى

فيتنام ليتزوجها هناك.

الشيخ أسامة يجلس فى ذلك البيت الكبير فى باكستان بين زوجاته وأبنائه استعدادًا لتصوير الشريط الأهم فى حياته.

عدنان يقف وسط الشباب يمدهم بالسلاح ويدربهم على القتال.. إنها الانتفاضة.

رافى يحلق من الجو ويتسلى بمشاهدة المطاردة المثيرة بين معاذ والملتحى خلف أمل على طريق القدس.

هانك يرتدى زى الهنود الحمر ويضع الريش على رأسه يجرى ويقفز وسط ميدان التايم سكوير مصدرًا أصواتًا بدائية... عجبًا إنه ليس هانك.. من هذا؟ أنا أعرفه جيدًا.. وجهه غير واضح من الضباب... نواف!!

أمى تجلس فى تلك الزاوية القصية فى آخر ركن من البيت تصلى وشعرها يسبح خلفها متطايرًا مع نسيمات الهواء وتدعو لى أنا وأمل.. المحنة كبيرة يا أمى.

الشيخ يوسف وقف طويلًا محدقًا فى مكتبته أمام كتبه العتيقة.. ذرف بعض الدموع قبل أن يجلس فوق أريكته حاملاً كتاب أعيته السنون والأثرية وبدأ يقرأ.. اقرأ...

جورج يظهر فجأة فى الجامعة يحمل فى يده الكتب المقدسة ويصرخ فينا.. أفيقوا!!!

ليس وقتها الآن لن يرضى الله عن هذا السيناريو.. ثم بدأ يختفى.

السجن هو اللعنة الحقيقية.. لماذا يقبضون علىّ أنا؟ لأنى استضفت
حازم فى بيتى ثم يتركونه هو نفسه يمضى بسلام.

عزيزة مريضة يا أمل عندها هلاوس ترى وتسمع أشخاصاً وهميين
ليس لهم وجود.

كيف يا عمى.

لا يوجد أحد اسمه عدنان. لقد تأكدت من سجلات رام الله وحيفا.. إنه
شبح.

عدنان هو تاريخنا يا عمى وليس شبحاً.. نحن لا شيء بدونه.

كما قلت لك إنها مريضة ويجب علاجها فوراً.

علاجك النفسى لن يجدى يا عمى.. علاجها الحقيقى أن تجد لها
عدنان.

الساعة تقترب من التاسعة صباحاً.

ديفيد يترك هيلين منهارة ويركض فى شوارع منهاتن.

يختنق الهواء فى رنتيه ككلب لاهث يسير وراء سراب لا يدركه
أبداً.

يسمع صوت أزيز الطائرة يخترق أذنيه قبل أن يبصر توم وجوان
يمران من بوابة مركز التجارة العالمى فى طريقهما لمكتبه بالدور
الثلاثين.

يصرخ من بعيد.. صوت الطائرة يبعثر موجات صوته بين ذرات الهواء.

يلقى بجثته على الأرض وهو ينظر فى حسرة إلى المصور الذى يقف فوق إحدى ناطحات السحاب القريبة من مركز التجارة مستعداً لتصوير الطائرة الأولى وهى تقترب من المبنى الشمالى قبل أن تستحيل أشلاءً تغوص وسط ركام طوابقه المنهارة.

على حداد يصرخ فى أحد عملاء الاستخبارات الأمريكية: هل أخفيتم عنا أى معلومات أخرى؟! كيف أخفيتم عنا المعلومات التى طلبناها قبل الكارثة بشهور عن هاتف كوالا لامبور وعلاقته بالقاعدة؟ لو حصلنا على هذه المعلومات وقت طلبها لكنا منعنا حدوث تلك المصيبة.

يحاول معاذ أن يضيق الطريق على سيارة أمل حتى يعيدها إليه.. تحاول أمل أن تزيد من سرعتها لكى تتجاوزه، فى تلك اللحظة تمكن الملتحى من تجاوز سيارة معاذ وأغلق الطريق على أمل تماماً. لم تتمكن أمل من كبح جماح سيارتها لتصطدم بقوة بسيارة الملتحى الضخمة من الخلف وتتهشم مقدمة سيارتها تماماً قبل أن تنقلب عدة مرات وتنفجر فى ثوان معدودة.

يهرع إليها معاذ والملتحى ولكن دون جدوى.. النيران تأكل سيارة أمل والدماء تغطى وجهها.

ينظران إلى بعضهما نظرة ذات دلالة غير مفهومة، ويعود كل منهما لسيارته ويسير كل منهما عكس اتجاه الآخر.

أسمع نداءً خفياً ينادى باسم أمل من بعيد ثم يخفت تدريجياً حتى يتلاشى تماماً.

بعض الصبية من أطفال الحجارة يلهون بطائراتهم الورقية خلف التل، يحاولون التحكم فى خيوطها بما يتناسب مع سرعة الرياح وقوتها. تتصاعد طائراتهم مخترقة كبد السماء.

بعض الجنود الإسرائيليين يقفون فى الجهة الأخرى من التل، يشاهدون الطائرات ولا يرون من يطيرها. حدقوا طويلاً فى الطائرات قبل أن يكتشفوا أنها شكلت مجتمعة بألوان الأحمر والأخضر والأبيض والأسود علم فلسطين فوق القدس لوحة اخترقت قوانين الأمن والسياسة كما رسام يفض بضربات فرشاته القوية عذرية لوحته البيضاء الناصعة.

انهمرت رصاصات الجنود محاولة إسقاط الطائرات دون جدوى.

فهرس المحتويات

٤	(١) أكتوبر ٨١
١٠	(٢) أمل
٢٠	(٣) حسنى مبارك
٢٤	(٤) صبرا وشاتيلا
٣٢	(٥) أفغانستان
٣٤	(٦) مراهقة
٤٨	(٧) السيناتور
٥٦	(٨) هيلجا
٦٢	(٩) جسر بروكلين
٦٦	(١٠) صديقى
٧٠	(١١) نيويورك ٨٣
٧٤	(١٢) كلية الإعلام
٧٨	(١٣) المثلث
٨٦	(١٤) العزلة
٩٢	(١٥) يا فلسطينية
٩٨	(١٦) الشيخ وحدى
١٠٤	(١٧) الشلة

١١٠	(١٨) بيت الأنصار.....
١١٨	(١٩) ستيانجر.....
١٢٦	(٢٠) جلال أباد.....
١٣٠	(٢١) دور شطرنج.....
١٣٦	(٢٢) التوبة.....
١٤٢	(٢٣) زواج أمل.....
١٤٨	(٢٤) الخطوبة.....
١٥٤	(٢٥) ليلة الدخلة.....
١٦٢	(٢٦) أعمال المنزل.....
١٦٨	(٢٧) الصلح.....
١٧٢	(٢٨) وفاة أمى.....
١٧٦	(٢٩) الشيخين.....
١٨٠	(٣٠) المعتقل.....
١٩٠	(٣١) التاكو الساخن.....
٢٠٠	(٣٢) الخروج.....
٢٠٦	(٣٣) نجوى.....
٢١٤	(٣٤) رحيل حازم.....
٢٢٠	(٣٥) دكتور جلال.....

- (٣٦) الصحيفة..... ٢٢٦
- (٣٧) المقابلة..... ٢٣٦
- (٣٨) هل تعبرين النهر..... ٢٤٠
- (٣٩) معاذ..... ٢٤٦
- (٤١) رام الله ٦٧..... ٢٥٤
- (٤٢) الخيار..... ٢٦٦
- (٤٣) رافى..... ٢٧٦
- (٤٤) بار رشيد..... ٢٨٢
- (٤٥) رام الله ٩٤..... ٣٠٢
- (٤٦) الفخ..... ٣١٦
- (٤٧) الحلم الأمريكى..... ٣٢٤
- (٤٨) جامعة كولومبيا..... ٣٣٤
- (٤٨) العودة..... ٣٤٦
- (٥٠) الاعتراف..... ٣٥٢
- (٥١) قندهار ٢..... ٣٥٦
- (٥٢) ليندا..... ٣٦٠
- (٥٣) ماكس..... ٣٨٠
- (٥٤) إستراتيجية جديدة..... ٣٨٦

- (٥٥) موعد غرامى ٣٩٢
- (٥٦) حماس ٣٩٨
- (٥٧) نواف ٤٠٤
- (٥٨) فيلم أمريكى ٤١٠
- (٥٨) حيفا ٤١٦
- (٦٠) توم ٤٢٢
- (٦١) زائر من مصر ٤٢٨
- (٦٢) حيفا ٢ ٤٣٨
- (٦٣) الجيتو ٤٤٢
- (٤٦) الحساب ٤٤٦
- (٦٥) الدكتورة ٤٥٢
- (٦٦) الانتفاضة ٤٥٦
- (٦٧) FBI ٤٦٠
- (٦٨) الكابوس ٤٧٠